لذلك لا يُديم الله سبحانه غِنَى أحدٍ أبد الدهر، بل جعل الدنيا دُوَلاً [1] بين الناس.

إذن : فلو عرف هذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - معنى كلمة الفضل [2] لما قالوها ؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، فى المحسوسات أو المعانى والفضل يقتضى وجود فاضل ومفضول.

ولينظر كل طاغية فى حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم.

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضرورى .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يطغى ، فنحن نقول له : تعقَّل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يُجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبنى سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملأ نوح- عليه السلام -:

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغِنَى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم.

---

(١) الدُّولة : اسم للشيء الذى يتداول ، والدَّولة : الفعل والانتقال من حال إلى حال. [بتصرف من لسان العرب - مادة : دول]

(٢) فالفضل بمفهوم الكفرة يخالف الفضل فى مفهوم المؤمن : فالفضل عند الكافر هو المال والسلطان ، وفى مفهوم المؤمن هو الاصطفاء والعطاءات والهبات الإلهية التى يصطفى الله سبحانه بها الرسل والأنبياء والمخلصين من عباده .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

والظن [1] هو الراجح، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستيقظ في النفس كومضات، فالمتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملأ الكافر، قالوا :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

ولم يقولوا : «نعتقد أنكم كاذبون».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ [2] مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) ﴾

وقول نوح عليه السلام: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني إن كنت على بينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية، وآتاني الحق سبحانه: ﴿رَحْمَةً﴾ أي: رسالة، بينما خفيت هذه المسألة عنكم، فهل أجبركم على

---

(١) الظن: ما يحصل في النفس عن أمارة، فهو شك راجح، وفعله من أفعال الرجحان. والظن: مصدر، والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس. قال تعالى: ﴿ .. إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون. وقال تعالى: ﴿ .. وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب] الظنونا بألف في الوصل، وفي الوقف، وبغير ألف قراءة. [القاموس القويم].

(٢) البينة: الحجة الواضحة الموضحة للحق. والبينة: الظاهرة الواضحة التي لا شك فيها، أو هي مبينة للحق مؤيدة له، مظهرة لأمره. قال تعالى: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم] بتصرف.

ذلك ؟ لا ؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتى طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين[1] .

وحين ننظر فى قوله :

﴿ ..أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾ [هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نلزم» ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مطمور فى الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة.

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب[2] ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان فى القلوب.

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم[3] كما أخضع الكون كله له،فهو سبحانه القائل:

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ .. (٢٧) ﴾ [النازعات]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر[4] ، وكلَّ الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

(٢) القلوب لها حكومة خاصة ، يقول الحق : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العابدين ، وإيمان القوالب إيمان المكرهين والمرائين والمنافقين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومنطق المكرهين .

(٣) ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس] ، ويقول أيضاً : ﴿ .. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) ﴾ . [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن] ويقول الحق : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء]

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى.

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال سبحانه عنهم :

﴿ .. لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قوالب لأخضع الخلق كلهم لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [1] نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن رغبة إخضاع القوالب البشرية ، بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه أحداً على الإيمان.

والدِّين لا يكون بالإكراه ، بل بالطواعية والرضا.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ [2] .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل ، فالعقل بالإدراك ينفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب ينزع إلى اختياره بيقين المؤمن .

---

(١) بخع نفسه ، بخعاً وبخوعاً : قتلها همّاً وغيظاً وحزناً . وقال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف].

(٢) الغي : الضلال والانهماك في الجهل.

يقول الحق :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَبَيَّن ، أما الدِّين فأمر يتبيَّن فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمى محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففى هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت فى مطلوبات المنهج فلن تجدها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً . وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البينة واضحة فاصلة بينه وبين الغَىِّ .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية فى غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلِّى تجده يقول لك :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه فى الحَمْل على الدِّين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدِّين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدِّد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يُكره أحداً على الدخول فى الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخَلَ فى الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتد[1] ومعاقبة العاصى على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة فى الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ[2] مَالًا ۖ إِنْ[3] أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففى مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام]

لأن العوَض فى التبادل قد لا يكون مالاً ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالاً أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

---

(١) حَدّ المرتد فى شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخارى فى صحيحه (١٢/ ٢٦٧ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه» ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٧٦).
ولكن يجب أن ينتبه إلى أنه لا يحكم بارتداد أحد إلا بعد صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تحتمل التأويل ، حتى نُسب إلى الإمام مالك أنه قال: «من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه ، حُمل أمره على الإيمان».
ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستتابة لمدة ثلاثة أيام.

(٢) أى: لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله والإيمان به مالاً أو غيره.

(٣) إن - هنا - نافية ، بمعنى: «ما» أو «ليس» أى: ما أجرى إلا على الله.

﴿لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله ..(٢٩)﴾ [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغلَى الأمر.

وقول الرسول:

﴿إن أجرى[1] إلا على الله ..(٢٩)﴾ [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذى جاء به الرسول هو أمر نافع؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة.

ونحن نعلم أن مبادلة الشىء بعينه أو ما يساويه؛ تُسمَّى شراء، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين، وتظل العين ملكاً لصاحبها، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً، فكأن نوحاً عليه السلام يقول: لقد كنت أستحق أجراً لأننى أقدِّم لكم منفعة، لكننى لن آخذ منكم شيئاً، لا زُهْداً فى الأجر، ولكنى أطمع فى الأجر ممن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر.

ولأن هذا الملأ الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل[2]؛ لذلك يأتى الرد من نوح عليه السلام:

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا .. (٢٩)﴾ [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير، فاليقين الإيمانى لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة.

---

(١) أجره يؤجره إيجاراً: أجر من فلان الدار وغيرها: اكتراها منه، وآجره يؤاجره مؤاجرة استأجره. اتخذه أجيراً والإجارة: الأجر على العمل: عقد تمليك نفع مقصود من العين بعوض، والأجرة عوض العمل والانتفاع، والأجر الذى يكفى العامل المعيش والأجر الحقيقى القوة الشرائية للنقد الذى يحصل عليه العامل والأجرة: الأجر. والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله «المعجم الوجيز» بتصرف.

(٢) والأراذل جمع رذل، وقيل: الواحد أرذل والجمع أراذل، وقد غلبت عليه الاسمية وإن كان وصفاً (التبيان فى إعراب القرآن)

ولا يُخْلى رسولٌ مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتى الأغنياء ، بل الكلُّ سواسية أمام الله سبحانه وتعالى.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [1] يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ [2] (٥٢) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنة ، فمن تكبَّر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق فى كِبْره.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا [3] بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ [4] اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) ﴾ [الأنعام]

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ، وألا ينصرف عنهم أو عن أى واحد منهم، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) أى: نهاراً وليلاً. والمراد أنهم دائمو الدعاء لله رب العالمين.

(٢) نزلت هذه الآية فى بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم: ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال. فقد قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم ، فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فأنزل الله تعالى الآية. أخرجه النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٢٤).

(٣) فتنا: اختبرنا. والفتنة: الاختبار بالنار ، واستعيرت لكل اختبار شديد. وقال تعالى: ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) ﴾ [الصافات].

(٤) مَنَّ عليه: أنعم عليه وأحسن إليه. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم].

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ[1] عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

جـاء هـذا القـول حتـى لا ينشأ فـساد أو عداء بين المؤمنين برسـول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مُقَرَّبٌ منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ..(٢٩) ﴾ [هود]

وفى هـذا بيـانٌ أن نـوحـاً - عليـه السـلام - لن يطرد هـؤلاء الضـعـاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقـون الله تعـالى ، أيسمح نوح عليه السـلام أن يقـال عنه أمـام الحق - تبـارك وتعـالى - إنه قـد طرد قـومـاً آمنوا برسالته ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبـحـانه يحـاسب رسله ، والمرسَل إليهم ، فـهـو سبحانه القـائل :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ[2] (٦) ﴾ [الأعراف]

---

(١) عدت عينه عنه : تجاوزته وأهملت النظر إليه واستحسنت غيره ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام . قال تعالى : ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ..(٢٨) ﴾ [الكهف] أى : لا تتركهم ولا تهملهم . [القاموس القويم] .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ [الأعراف] كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾ [القصص] وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة] فيسأل الله عن الاستجابة للرسل ، ويسأل الرسل عن البلاغ . ومن النص القرآنى نأخذ حديث رسول الله ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » [ابن كثير بتصرف صـ ٢٠٦ ، جـ ٢]

إذن : فنوح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملأ الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [هود]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وهنا يوضِّح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد بقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه .

والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهى بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع فى طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .

وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [هود]

أى : يجب ألاَّ تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكُّر ، وهو التأمل لاستنباط شىء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكر ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .

وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبر ، أى : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر [1] ، بل لا بد من البحث فى حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جَلَّ وعَلاَ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ [2] الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

أى : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة فى المعطيات الخلفية للقرآن .

والتدبر هو الذى يكشف المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون فى تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .

ولذلك نجد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : «ثَوِّروا القرآن» [3] أى : قَلِّبوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح :

---

(١) وقد قال عز وجل : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم] وقد كان هذا تعقيباً منه سبحانه لقصة الروم وأنهم سينتصرون على الفرس فى بضع سنين ، وقد استغرب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اهتمامهم بظواهر الحياة الدنيا دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل وأقدار الله فى تصريف شئون خلقه .

(٢) تدبر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ونهاياتها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] أى : هل عجزوا وعموا فلا يتأملون معانى القرآن ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به . وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً والمعنى : أعجزوا فلا يتدبرون . [القاموس القويم] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان (مادة : ث و ر) ، قال : «وفى حديث عبد الله : أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين ، وفى رواية : علم الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته» .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ[1] وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ[2] أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملأ الكافر كل أسباب إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملأ ، وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده.

ولم يَدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ، لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب.

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمن منَ الضِّعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكّم عليهم عيون هذا الملأ الكافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال الله - عزَّ وجلَّ - له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان.

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [هود]

---

(1) غاب الشيء يغيب غيباً وغيبة وغياباً وغيوباً يعد فهو غائب ، والجمع غيب وغُيّاب . والغيب كل ما غاب عنك ، وجمعه غيوب وفي التنزيل ﴿ .. عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

(2) تزدرى : تحتقر . والازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب . [لسان العرب]

ونلحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّل إلى الغَيبة[1]، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم: إن الله سيمنع عنكم الخير، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما في نفوسهم، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الظالمين.

واللام في كلمة ﴿لِلَّذِينَ﴾ تعني الحديث عن الضعاف، لا حديثاً إلى الضعاف.

ومجيء «اللام» بمعنى «عن» له نظائر[2]، مثل قول الحق سبحانه:

﴿.. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾ [سبأ]

وهم هنا لا يقولون للحق، ولكنهم يقولون عن الحق، وهكذا جاءت «اللام» بمعنى «عن»[3].

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل»، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره.

---

(١) وهذا يعرف في أساليب البلاغة بالالتفات، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أي: من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول. (انظر الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي (٣/ ٢٥٣).

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. (١١)﴾ [الأحقاف] أي: عنهم وفي حقهم، لا أنهم خاطبوا به المؤمنين، وإلا لقيل: «ما سبقتمونا».

(٣) اللام: حرف يجر الظاهر والمضمر، ويؤدي عدة معان منها: انتهاء الغاية، والملك، وشبه الملك، والدلالة على التمليك، والدلالة على شبه التمليك، والدلالة على النسب، والتعدية المجردة، والتعليل، والتوكيد المحض، والتقوية، والدلالة على القسم والتعجب معاً، والدلالة على التعجب بغير قسم، والدلالة على العاقبة المنتظرة، والدلالة على التبليغ، والدلالة على التبيين، وأن تكون بمعنى «بعد»، وأن تكون بمعنى «قبل»، وأن تكون بمعنى «من البيانية»، وأن تكون للمجاوزة (بمعنى: عن)، وأن تكون لتوكيد النفي، وأن تكون بمعنى «مع»، وأن تكون بمعنى «عند»... انظر تفصيل ذلك في [النحو الوافي: (٢/ ٤٧٢ - ٤٨١)].

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :[١]

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجَدْل» أي : الفَتْل ، وفتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أي مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضَمّ شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بِلَفٍّ كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوي : « مفتول العضلات » ، أي : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أي : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلي فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذي خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتآزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

---

(١) جادل : خاصم بالحق والباطل . واستُعمل في الباطل في قوله تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء] واستُعمل في الحق في قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه حُجَّاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المراء [1] ، لأن الجدال إنما يكون لحقٍّ ، والمراء يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..(١٢٥) ﴾ [النحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي [2] تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١) ﴾ [المجادلة]

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء [3] .

---

(١) المراء : المماراة والجدال . وأصل المراء في اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة وغيرها
من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراء والمماراة يحمل معاني الشك والريبة في الأمر مما يستدعي جدالاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا منهي عنه .

(٢) هي امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل مالي ، وأفنى شبابي ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك . قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٨) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] أي : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] انظر : ابن كثير (٢/ ٥٩١) .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكُّك الآراء ، فالتحكك كالتلكُّك ، وهو الرغبة فى عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذى يوصل إلى الحق ، مثلما نحكُّ الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك [1] فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمِرَاء هو الجدَال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى [2] الضَّرع ، فحين يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهى حَلْبُ الضرع ، يظل مَنْ يحلبها مُمْسكاً بحَلَمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المريى» .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة «المراء»، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، الحِجَاج ؛ والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مَلُّوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذى أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود]

وكأنهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مَخْرج من بيده أن يأتى بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هى مِلْك لله سبحانه وتعالى .

---

(١) التحكك: التحرش والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أى: يتعرض لشرك. [اللسان - مادة: حكك] .

(٢) المريُ: مسح ضرع الناقة لتدر اللبن . والمرى: الناقة تدر على من يمسح ضرعها . وقيل: هى الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان : مادة - مرى] .
وجاء فى المصباح المنير : ماريته أماريه مماراة ومراء : جادلته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال : ماريته إذا طعنت فى قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقائل ، ولا يكون (المراء) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضاً ، وامترى فى أمر : شكَّ فيه . بتصرف ص ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدِّر للعذاب أواناً ، ويقدِّر لكلِّ تعذيب ميلاداً ، ولا يَعْجَلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبَّى[1] عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ[2] إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ[3] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدُّد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : «إن جئتنى غداً أقبل اعتذارك إنْ كان معك والدك» .

---

(١) تتأبى : تتمنع وترفض الانصياع والطاعة . ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرَّى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع ودلَّه عليه . ونصح له الود : أخلصه . ونصح لله : أطاعه وأخلص لدينه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سراً ولا علناً . ومن النصح بمعنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ .. وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف] ، ويقول : ﴿ .. وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم] .

(٣) أغواه : أضلَّه وأوقعه فى الغى والضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخر ، ولكنه كان يجب أن يتقدّم.

وفى الآية الكريمة - التى نحن بصددها - جاء الشرط الأول متأخراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عباده ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هي الضلال [1] والبعد عن الطريق المستقيم.

والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ ما ضلَّ صاحبُكُمْ ومَا غَوَىٰ [2] (٢) ﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وعَصَىٰ آدَمُ ربَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

ونحن يجب ألا نقع فى الآفة التى يخطىء البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معانٍ متعددة.

لذلك لا بد أن نعرض كل معانى اللفظ لنأخذ اللفظ المناسب للسّياق.

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [3] (٥٩) ﴾ [مريم]

---

(١) ضَلَّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفى وغاب فهو يأتى لازماً كما فى المثال السابق .
ويأتى متعدياً مثل : ضل المسافرُ الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغواية ، وأثبت له أنه هو الناطق منه وبه وله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) ﴾ [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيّاً ، وغوى يغوى غواية : انهمك فى الجهل ، وهو ضد الرشد . وغوى بمعنى خاب وضلَّ ؛ لأنه انهمك فى الجهل .

(٣) الغى : سمى به واد فى جهنم وفُسّر بذلك قوله : ﴿ .. فسوف يلقون غيا (٥٩) ﴾ [مريم] أى : جزاء الغى ، أو يدخلون وادى الغى فى جهنم [القاموس القويم].

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأن غَيَّهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمَّى العذاب باسم مُسَبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمَّى ما يلقاهم من العذاب سيئةً[١] .

وكذلك «الغَىُّ» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فآدم عليه السلام حين تَنَكَّبَ[٢] عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿.. وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته[٣] .

---

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] ؛ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .. (٥٤)﴾ [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (٣/ ٢٨١) .

(٢) نكب عن الشيء وعن الطريق : عدل . وتنكَّب فلانٌ عنَّا : مَالَ عنَّا . وتنكَّبه : تجنَّبه . [انظر : لسان العرب] . ويقول تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾ [المؤمنون] . أى : مائلون منحرفون عنه .

(٣) السوءات : جمع سوءة : وهي كل ما يقبح إظهاره وينبغي ستره ، قال تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستعِداً لاستقبال المنهج والوَحْي.

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِى ، ولكنه يترك الخيار للمكلَّف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى.

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار[1] ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضَلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووَجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد.

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضل[2].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]. ويقول سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة]. فإن الإنسان مخير فى البدائل ، أما القضايا التى لا يستطيع تبديلها فهى خصوصية الخالق ، ويفهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإثبات حق الاختيار له.

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان] ، فالله قد جعل الإنسان مُهيَّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكراً لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمناً. وإما كافراً بها فيكون كافراً.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[1] قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

جاء هذا القول فى صُلْب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمَّد الذى يناقض واقعاً.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التى تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس فى المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحدُّ من حريتك ، ولكنه فى الواقع يُحقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميكَ من أن يعتدى الآخرون عليك.

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود] أى : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] أى : مكذوبات - كما تدَّعون . [القاموس القويم].

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل فى أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء.

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم [1] باتِّهامه أنه قد افترى.

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة فى الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إنْ افتريته فعلىَّ إجرامى وأنتم برءاء منه ، وإنْ لم أَفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء.

وجاء الحذف من شِقٍّ المقابل من شِقٍّ آخر ، وهذا ما يسمَّى فى اللغة «الاحتباك» [2].

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّتُها فى الأفراد والعَتَاد وكلٍّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها فى العُدَّة والعَدَد وكلٍّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلب بإذن الله تعالى.

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى.

---

(١) آثام الذنوب فيما افتروه.

(٢) الاحتباك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى أن يحذف نظيره فى الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ..(١٢) ﴾ [النمل]. والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثانى «وأخرجها». وقال الزركشى : هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]. والتقدير : «إن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون» [الإتقان فى علوم القرآن : ٣/ ١٨٢ ، ١٨٣].

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت [1] والشيطان ، وهذا يسمَّى « الاحتباك » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ .. قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فلم يَقُلْ : « عَمَّا تُجرمون » . فلم يقابل إيذاءهم القوليَّ والماديَّ له بإيذاء قوليٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿ .. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التي أنزلها الله على العالم كله .

---

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان ، الصنم ، وكل ما عبد من دون الله ، وكل ما يغرى بالشر والداعي للضلال والفتنة .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ[1] فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ومجيء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الوحدانية لله عَزَّ وجَلَّ وتَفرُّده بالألوهية .

والآية التى نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجتراء نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ، وكنائنه الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتئاس : الحزن في استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

﴿ .. رَبِّ لا تَذَرْ [1] عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً [2] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) ﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

﴿ .. فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحبط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاصْنَعِ [3] الْفُلْكَ [4] بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

---

(١) يذره : يتركه ويدعه . وهذا الفعل لم يستعمل منه في القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [نوح] أي : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) ﴾ [المدثر] أي : اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . [القاموس القويم] .

(٢) الديّار : من يسكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديّار ، أي : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ .. رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) ﴾ [نوح] . أي : لا تترك أحداً منهم حياً . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الخير لكذ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩) ﴾ [طه] أي : أن الذي صنعوه وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أي : تُربّى محروساً بعنايتي . وقوله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود] أي : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل] والفلك : المدار تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿ .. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] (القاموس القويم - باختصار)

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحى له بصنع السفينة. ومعنى «اصنع» أى : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ، فالصنعة أنْ تُوجِدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ، أو صانع النَّجَفَ ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة فهو الحرفىُّ.

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمَّى صاحب هذه المهنة «زارع» أو «فلاَّح» ؛ لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة.

أما الصانع فيأتى بشىء من متطلبات الحياة ، فى تطورها ويوجد آلةً أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفىُّ هو الذى يصون تلك الآلة ، أما التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشىء والمستهلك ، فالتاجر يَكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشىء سيصنع من شىء آخر موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة ، وتضخَّمت فى الجذع والفروع.

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شقّ الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ طولها - كما قيل[1] - ثلاثمائة ذراع[2] وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

---

(١) ذكره قتادة. وفيها أقوال أخرى. واجتمع الرأى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤).

(٢) الذراع : مقياس للأطوال يقدر بـ ٧٥ سنتيمتراً أو أقل. والذراع من الإنسان : من المرفق إلى أطراف الأصابع.

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التى زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جداً لطول المدَّة التى قضاها نوح فى دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائريًا بمقدار دائرة كل عام. وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر ، وكل دائرة تمثِّل عاماً من عمرها.

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علَّمه الحق سبحانه بالوحى وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألمْ يُلهم الله سبحانه نبيَّه داود عليه السلام فى مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلَّ وعلا - قد أمر الجبال أن تُؤَوِّب[1] معه ، وكذلك الطير ، فألان له الحديد[2] دون نار :

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ..۝١١﴾ [سبأ]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليِّنًا دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمى معاطب[3] الإنسان .

---

(١) تؤوب : تسبِّح معه وترجِّع التسبيح . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) : «التأويب فى اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجِّع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) .

(٣) المعاطب : المهالك . واحدها معطب . والعطب : الهلاك يكون فى الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطباً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التى إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدى إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات[1].

والسابغة هى المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فَرْد الحصير أو لَفّه.

وفى نفس الآية يبيّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحى لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه:

﴿ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ[2] .. (١١) ﴾ [سبأ]

أى: أنك يا داود حين تنسج[3] الحديد الليّن - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كى لا تكون الدِّرع ضيِّقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلّل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال.

وكذلك يجب ألا تكون الدِّرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدِّرع سيف الخصم ، فيضرب الدِّرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدِّرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدِّرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبِّل الحركة ، فهذه هى الدِّرع المناسبة للقتال.

---

(١) الدرع السابغة: الواسعة التى تطول إلى الأرض فتغطى الكعبين. [اللسان - مادة: سبغ].

(٢) السَّرْد: نَسْج حلقات الدرع وإحكام صنعها. وسَرَدَ الأديم والجلد يسرده سرداً: خرزه وثقبه بالمخرز فى تتابع واتساق؛ ولهذا سمى نسج الدروع سرداً؛ لما فيه من دقة وتتابع واتساق. وقدِّرْ فى السرد: أى: أحكم العمل فى سرد الدروع ، أى: فى أثناء نسجها. أى: أحكم السرد ، وأتقن النسج. [القاموس القويم].

(٣) النسج: ضم الشىء إلى الشىء. ونسج الشىء ينسجه نسجاً فانتسج ، ونسجت الريح التراب: سحبت بعضه إلى بعض. والريح تنسج الماء: إذا ضربت متنه فانتسجت له طرائق كالحُبُك. ونسجت الريح الورق الهشيم: جمعت بعضه إلى بعض. ومن معانى النسج: حياكة الثوب. وربما سمى الدرّاع (صانع الدروع) نسّاجاً. [اللسان: مادة (ن س ج) بتصرف].

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّروع بتلك الهندسة الدقيقة التى أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له: ﴿ وَقَدِّرْ ..(١١) ﴾ وكلمة قدر تعطى معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجِّه إلى الإتقان فى الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان فى العمل والإبداع فيه ، لنتخذ من هذا التوجيه نبراساً[1] نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول: «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يَهَبَ الإنسانَ طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً فى تعليمه لداود عليه السلام:

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ[2] .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقى الله تعالى الخاطر فى قلب الرسول أو النبى أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كلَّ علومها وفنونها فى التحنيط والألوان والنَّحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمثِّلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر فى أصوله ؛ مصدره السماء .

وفى قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول:

---

(١) النبراس: المصباح ، أو الشيء المنير . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) اللَّبوس: ما يُلبس . والمراد بها هنا: الدروع التى تلبس فى الحرب . [القاموس القويم] .

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ[1] بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا. وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية.

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله محمد ﷺ؟

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا[2] .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور]

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام:

﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجة الفرعون، وقال سبحانه:

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد أُلقيَ في اليمِّ[3]،

---

(١) الفُلْك: السفينة. ولفظة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع. قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً مذكراً. وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله: «مواخر» أي: السفن.

(٢) أي: اصبِرْ على أذاهم، ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس. تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٥).

(٣) اليم: مجتمع الماء الكثير، سواء أكان ماء عذباً أو مالحاً، وقد ورد هذان المعنيان في القرآن:
- قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] فهو هنا الماء العذب. والمقصود نيل مصر.
- وقال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود خليج السويس امتداد البحر الأحمر.

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ [1] .. (٩) ﴾ [القصص]

ونحن نجد أن عَدُوَّ موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش في كنفه ورعايته ، وكأن الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُرَبُّون مَنْ يتولَّى قهركم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

أي : إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اختُرِعت بَعْدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفي أمريكا في العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِي وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه في طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [2] (١٣) ﴾ [القمر]

---

(١) قرة عين لي ولك : أي : مبعث سرور لي ولك . [القاموس القويم] .

(٢) دسر الدسار في الشيء : دفعه فيه بقوة . والدسار : المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة وجمعه (دُسُر) .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] . كناية عن موصوف هو السفينة . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ٢٦٤) .

أي : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر ألواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأحْكَمَ الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة.

مثلما تصنع البراميل الخشبية في عصرنا، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتِّبها ثم يُحْكم رَبْطها بإطار قوىٍّ ، وحين يوضع فيها أى سائل ، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدُّ المسَام ، فلا ينضح السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدَّد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدَّد بالحرارة.

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق [1] فى صنعته هو مَنْ يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك في الفصول الرتيبة [2] ؛ لأنه إن صنعها فى الصيف ، سنجد الخشب وهو منكمش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء ، والخشب متمدِّد سيأتى الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أي صندوق أو شبَّاك بإحكام.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ [3] ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

أي : لا تحدِّثنى فى أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر فى القمة العقدية ، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب، وهو الإغراق.

---

(١) الحاذق : الماهر فى عمله. حذق الشيء : مهر فيه . [انظر اللسان] .

(٢) الرتيبة : الثابتة التي لا توصف ببرد أو حرّ .

(٣) الغرق هو أن يغمر الماء الشخص حتى يموت ، يقول الحق : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس] أن تمكن منه ، وغرق كفرح فهو غرق وغارق وغريق . وجمع الأخير غرقى ، واسم المفعول منه مُغرق ، قال تعالى : ﴿ .. فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود] (القاموس القويم صـ ٥٩ جـ ٢).

وهكذا عَلِمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْع السفينة مرتبط بلون العقاب الذى سيقع على مَنْ كفروا برسالته ، فهو ومَنْ آمنوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يغرق.

ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول:

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ[1] مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟[2] مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعنى: ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوَّل إلى نجَّار ، ثم يتساءلون: كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة.

ونحن نلحظ فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

---

(١) ملأ: جماعة منهم.

(٢) سخر منه وبه من باب فرح سَخَرا وسَخْرا وسُخْرا وسُخْرِية وسُخْرِيَة: هزئ به. قال تعالى: ﴿ .. قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم]

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ[1] وَيَحِلُّ[2] عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾

ونلحظ في قول الحق سبحانه: ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أن الفعل الذى يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أى حدث - كما تعلم - له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً.

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول: «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة «سوف».

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة[3] ؛ ولذلك جاء بـ «سوف» لتدل على أوسع مَدًى زمنيٍّ.

وما الذى سوف يعلمونه؟ إنه العذاب ، أيأتى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملأ نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿ فَسَوْفَ تعلمونَ من يأتيهِ عذابٌ يُخْزِيه .. (٣٩) ﴾ [هود]

---

(١) خزى يخزى: هان وافتضح وخجل. وأخزاه فلان ويخزيه: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿ربَّنا إنَّك من تُدخِلِ النَّارَ فقدْ أخزيتَه .. (١٩٢) ﴾ [آل عمران].

(٢) يحل: ينزل عليهم. وقال تعالى: ﴿ .. ولا تطغَوْا فيه فيَحِلَّ عليكُمْ غضبي ومن يَحْلِلْ عليْهِ غضبي فقدْ هوى (٨١) ﴾ [طه] [القاموس القويم].

(٣) قال زيد بن أسلم: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٩).

وفى هذا القول ما يؤكِّد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسَخروا وقالوا :

﴿ .. فأتنا بما تعدُنا إن كُنتَ من الصَّادقين (٣٢) ﴾ [هود]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. ويَحِلُّ عليْه عذابٌ مُقِيمٌ (٣٩) ﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿يَحِلُّ﴾ وهى ضدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بالمكان ، أى : نزلَ ليقيم به ، والضدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿مُقِيمٌ﴾ يعنى أن العذاب الذى سيحِلُّ بهم عذاب دائم[1] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ[2] قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ[3] إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) ﴾

---

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٤/ ٣٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب :
- الأول : ﴿ عذابٌ يُخزيه ﴾ وهو فى الدنيا .
- الثانى : ﴿ عذابٌ مُقيم ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور : مكان تفجر الماء . والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى : ﴿ وفار التَّنورُ .. (٤٠) ﴾ [هود] أى : تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور : مجتمع ماء الوادى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة اندفاعه . [القاموس القويم] .

(٣) أهَلَ من باب فرح وضرب ونصر أهلاً وأهولاً : تزوج ، وأهل المكان عَمر بأهله . والأهل الأقارب والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبى أتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات السماوية ، قال تعالى : ﴿ .. يا أهلَ الكتاب لا تغلُوا في دينكُم غيرَ الحقِّ ولا تتَّبعُوا أهْواء قومٍ قدْ ضلُّوا من قبْلُ وأضلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سَوَاءِ السَّبيل (٧٧) ﴾ [المائدة][القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومَنْ آمن معه وكانوا قلّة قليلة .

إذن : ففى قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. (٣٧)﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠)﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أي : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين تغلى الماء نرى فقاقيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء منثوراً خارج إناء الغليان .

و«التنور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظَانّه وهو التنور .

واختلف العلماء[1] فى تفسير كلمة «التنور» فمنهم من قال : إن التنور هو

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال ، فلتراجع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ وهى تجتمع فى أن ذلك كان علامة» أهـ بتصرف . أما ابن كثير فقد رجّح قول ابن عباس أن التنور هو وجه الأرض ، أى : صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر باقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥] .

المكان الذى كان آدم عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضرُّ ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعلَى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كُلٍّ ﴾ المنونة - وتفيد التعميم -أى : احمل فى السفينة من كل شىء ، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ،حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفطنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود]

تدل على أن كلمة «زَوْجٍ» [1] هى مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

---

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يطلق على الذكر والأنثى ؛ فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو كل ما ينقسم قسمين متساويين .
والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود] أى : احمل فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع . وقال تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص] . أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة كل شىء وضده . [القاموس القويم] . بتصرف

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١) ﴾ [النساء]

إذن : كلمة «زَوْج» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤) ﴾ [الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجده ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على الاثنين لصار العدد فى تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضِّح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً (١) مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٢) (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٤) (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

---

(١) نطف الماء : سال وقطر . والنطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة ، الذى يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾ [النحل] .

(٢) منى يمنى : يُصبُّ فى الرحم . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

(٣) علقة : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلَق بما يمسه . وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥) ﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق] . [القاموس القويم] .

(٤) فسوى : فعدَّله وكمَّله ونفخ فيه الروح . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

﴿ .. احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا فى تلك السفينة عامين[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا[2] وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾

هذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠) ﴾ [هود]

وحَمَلَ نوح عليه السلام فى الفُلْك - بأمر من الله تعالى - من كل شىء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

---

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبرى عن ابن إسحاق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٥٤) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٧) عن ابن عباس أنهم مكثوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً ، أى : حوالى خمسة أشهر . فالله أعلم .

(٢) المجرى (بفتح الراء وتُمال نحو الكسرة) : مصدر ميمى بمعنى الجرى . قال تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود] أى : جَرْيُها وإرساؤها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس القويم] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه.

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلِى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِى.

ولكن الله تعالى يقول هنا:

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ..﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

ولم يقل : «اركبوا عليها».

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها[1] نوح عليه السلام بوحى من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار.

وقول الحق سبحانه:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

يُبيِّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليتيح

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر] ، وتأتى عقب التربية والتعليم بحراستى وعنايتى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور المتينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان.

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه.

وقول نوح عليه السلام:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

يعلّمنا أن جريانها إنما يتمّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضي يقول مفتتحاً الحكم: «باسم الدستور والقانون» أي: أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون.

ونوح عليه السلام يقول:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة.

ولذلك يقال: «كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[(١)].

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليّا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليّا فهو يحتاج لفكر ورويّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول: «باسم القوى القادر» ولكى تحصل على علم ؛ تقول: «باسم العليم» ، وتريد الغنى ؛ فتقول: «باسم الغنىّ» وحين تحتاج إلى الحلم تقول: «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول: «باسم القهار».

(١) أبتر: أى مقطوع البركة ، لا خير فيه.

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أن تنادى ربك وتتبرك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والجلال .

وإياك أن تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبِّقوا - كغالبية البشر - كل التكاليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التى ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هى الميزة فى قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصفُ السفينة وركَّابها :

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ[1] فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) ﴾

---

(١) الجرى : السير السريع . جرى الماء يجرى : سار . وجرت السفينة : سارت وأسرعت . قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. (٤٢) ﴾ [هود] وهى سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة] أى : فى السفينة المعهودة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى] وحذفت الياء تخفيفاً من الجوارى فى رسم المصحف . وقوله تعالى : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ [الذاريات] قيل : هى السفن . وقيل : هى الرياح . وقيل : هى النجوم والكواكب . وقال تعالى : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم] .

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيَّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادي نوح ابنه:

﴿ .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ[1] يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه

وفي هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن في مُخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي[2] مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ[3] بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى[4] إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرَّق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

---

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. (٤٢) ﴾ [هود] أي : في موضع عزل نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمني : يمنعني ويحميني من الماء فلا أغرق . والعصمة : المنع والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حجز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] أي : حجز الموج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ؛ فكان من المغرقين . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) آوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وأوى إلى المكان ، وأوى إليه يأوي أويًّا : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. (١٠) ﴾ [الكهف] أي : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودى .

ويقال : إن جبل الجودى يوجد فى الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى[1] وَغِيضَ[2] ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ[3] وَقِيلَ بُعْدًا[4] لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

والبلع هو مرور الشيء من الحَلْق ليسقط فى الجوف ، وساعة أن يأتى فى القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود]

فافهم أن القائل هو من تَنْصَاع له الأرض .

ولم يَقُل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابلعى ماءك » ؛ لأن هناك أصلاً متعيّناً وإنْ لم يقُله ، والحق سبحانه يريد أن ينمّى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

---

(١) أقلعى : أمسكى (امتنعي) عن إنزال المطر . [كلمات القرآن] . والإقلاع عن الأمر : الكَفّ عنه .
وأقلع عن الشيء : كفَّ عنه . وأقلعت السماء : كفّت عن المطر . [القاموس القويم] .

(٢) غيض الماء : نقص وذهب فى الأرض [كلمات القرآن] .
وغاض الماء يغيض غيضاً : ذهب وابتلعته الأرض [القاموس القويم] .

(٣) استوت على الجودى : استقرت على جبل بقرب الموصل . [كلمات القرآن] .
وقيل : إن ذلك كان يوم عاشوراء ، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل . [مختصر تفسير الطبرى] .

(٤) بعداً : أى : هلاكاً وسحقاً . [كلمات القرآن] .

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ أي: أن توقف المطر.

وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصبّ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحيّ تطفح إن كان هناك ما يسدّ تصريف الماء؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي لا يمتص المياه؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجنّد طاقاتها لإصلاح مواسير الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة.

وأقول هنا: إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان؛ لأني ألحظ أن الناس حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء الشرعي، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقيّ ليضيع دون جدوى[1].

وعلى الناس أن يدّخروا الماء، ولا يُسيئوا استغلاله؛ لأن الماء حين يتوفّر فهو يُحيي الموات، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى، ونحتاج لتخفيف العبء على شبكات الصرف الصحيّ.

باختصار؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرُّف فيها؛ لننعم بها، ونسعد بخيرها.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي .. (٤٤) ﴾ [هود]

أي: اتركي المطر.. ومن ذلك أخذنا كلمة «قِلْع» الذي يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة، وهو الشّراع.

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ. فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢١) وابن ماجه في سننه (٤٢٥) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف، لضعف حي بن عبد الله وابن لهيعة».

ويُقال: «أقلعت المركب» أي: تركت السكون الذى كانت عليه وهى واقفة على الشاطىء .

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ .. (٤٤) ﴾ [هود]

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول ؛ لتعلم أن الله تعالى هو الذى أمر الماء بأن يغيض.

ومادة «غاض» تُستعمل لازمةً ، وتُستعمل متعديةً[1] .

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ .. (٤٤) ﴾ [هود]

أى: استقرت السفينة على جبل الجودى.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود]

وهو بعدٌ نهائىٌ إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة فى نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ[2] ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) ﴾

---

(١) تستعمل «غاض» لازمة ، وهى أن تكتفى بفاعلها فلا تحتاج لمفعول به، وذلك مثل: غاض الماء. أى: نقص. وقد تستعمل متعدية أى: تتعدى فاعلها إلى المفعول به. فتقول: أغاض الله ماءه (للبئر) أو: غاضه وغيَّضه.

(٢) أحكم: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. أى: أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين. وأحكم الأمر: أتقنه. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢) ﴾ [الحج] أى: يبيِّنها ويجعلها مُتقَنة مُقنعة مُحكَمة. [القاموس القويم].

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمَّل أىُّ أبٍ أو أىُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتّباع تجد المثل فى إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليُعلى جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفِّذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

---

(١) ابتلى : اختبر وامتحن . بكلمات : بأوامر ونواه . فأتمهنّ : أدّاهنّ لله تعالى على الكمال . [كلمات القرآن] .
وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قصُّ الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار .

﴿ .. لا يَنَالُ عَهْدِي [1] الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

من هذا نعلم أن النبوَّة ليس لها بنوَّة ، بل النبوَّة لها أتباع .

ويتضح ذلك أيضاً فى قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقرَّ فى ذهنه قول الحق سبحانه :

﴿ .. لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..(١٢٦) ﴾ [البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه يبيِّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هى للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

أى : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إنَّ عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن تناسباً عكسيّاً ، فإن كان الابن قويّاً فعاطفة الأبوة والأمومة تقلُّ .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غنى قائم بأمر الأبوين ويتكفَّل بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

---

(١) العهد : الزمان والوصية والموثق والذمّة والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. (٢٧) ﴾ [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر يعهد عهداً : أوصاه به وجعله فى ذمته وضمانه . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .. (٦٠) ﴾ [يس] . [القاموس القويم] .

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغنىّ ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن فى حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفى نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحاً كان يملك المبرِّر طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل فى السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله ، فقال :

﴿ .. رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾ [هود]

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطىء ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ[1] أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ (٤٦) ﴾

---

(١) ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ : أى : ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا ممن وعدتك أن تنجيه معك .
﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ : قيل : معناه ، أن سؤالك إياى ما تسأله فى ابنك المخالف لك عمل غير صالح . ﴿ .. إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ : فى مسألتك إياى عن ذلك . [مختصر تفسير الطبرى] .
ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . والموعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يُلفتَ نبيَّه نوحاً إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع ، وإذا قاس نوح - عليه السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له.

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي : «سلمان منَّا آل البيت»[1].

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتِّباع ، لا بنوة نَسَب.

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [هود]

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله :

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ..﴿٤٦﴾﴾ [هود]

فكأن البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح.

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتِّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه.

ويقول الحق سبحانه :

﴿.. فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف المزني . قال الذهبي والعجلوني : سنده ضعيف.

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكِّر جيِّداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يربيهم ربهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ[1] أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقرٌّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى.

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود]

يوضِّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه.

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) عاذ يعوذ عوذاً : لاذ ولجأ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس] ، أي : ألجأ إليه ، وألوذ به ، وأحتمي بحمايته [القاموس القويم].

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ[1] عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم[2] مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه :

﴿ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل فى تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل[3] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

تضمَّن أهل[4] نوح عليه السلام ومَنْ آمن به ، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب .

---

(١) البركة : زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٦٥] .

(٢) يمسهم العذاب : يصيبهم ويؤذيهم . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود] . [القاموس القويم] .

(٣) الأراذل : جمع أرذل : وهو الدون من الناس ، وقيل : هو الدون فى منظره وحالاته . وقيل : هو الردىء من كل شىء . وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجامة . قاله الزجاج . [انظر : لسان العرب - مادة : رذل] .

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التى قال عنها رب العزة : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] وخيانتها لنوح كانت فى الإيمان . قال ابن عباس : ما زنت امرأة نوح ، إنما كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون ، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٣] .

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض.

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ (١) بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول:

﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾ [هود]

ولن يجد مَنْ يتهمه بالافتراء.

ومَنْ بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلَّغهم به نوح عن الله تعالى.

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجعله كثيراً.

ويقال: «إن هذا الشىء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجىء بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع.

إذن: فالشىء المبارك هو القليل الذى يؤدِّى ما يؤدِّيه الكثير ، مع مظنَّة أنه لا يفى.

---

(١) هَبَط يَهْبِط هَبْطاً ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سُفْل ، أو انحدر من عُلْو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب قعد هبوطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٤) ﴾ [البقرة] كما دكَّ الجبل حينما تجلى الله عليه (القاموس القويم بتصرف)

وكان يجب أن تأتى هنا كلمة ﴿وبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كلٍّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفى.

وقول الحق سبحانه:

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⟨٤٨⟩﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة، وبمضىّ الزمن طرأت الغفلة على بعضٍ منهم، ويأتى جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج.

وفى هذا يقول الرسول ﷺ: «ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت [1]، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المَجْل [2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه مُنتبراً [3]، وليس فيه شىء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة، حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما فى قلبه

---

(١) الوكت: الأثر اليسير. قاله الهروى. وقال غيره: هو سواد يسير. وقيل: هو لون يحدث مخالف للّون الذى كان قبله. [شرح النووى لصحيح مسلم - ٢/ ٥٢٨].

(٢) المجل: أن يكون بين الجلد واللحم ماء. والمجلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. مجلت اليد: نفطت من العمل فمرنت وصلبت وثَخُنَ جلدها وتعجّر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. [لسان العرب - مادة: مجل].

(٣) منتبراً: مرتفعاً. وكل ما رفعته فقد نبرته. وانتبر الجرح: ارتفع وورم. [لسان العرب - مادة: نبر] قال النووى فى شرحه لمسلم (٢/ ٥٢٨): «منه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه».

مثقال حبة من خَرْدلٍ [١] من إيمان» [٢].

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أشْرِبَها [٣] نُكتت [٤] فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْبادّاً [٥] كالكوز مُجَخِّياً [٦] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَواه» [٧].

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب.

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة ، وسيمتّعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضنّ عليهم ، ولكن سيَلحقُهم العذاب.

---

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب التوابل. يضرب مثلاً في الصغر ، قال تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) أي : خالط قلبه حُبُّ الفتن. وكأنه أسقاها. ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة] أي : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله. [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب].

(٤) النكت : أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها. أي : أن الفتنة تترك أثراً في القلب. [راجع : مختار القاموس - مادة : نكت].

(٥) مرباداً : أسود عليه غبرة. والمقصود من حيث المعنى لا الصورة. ذكره ابن منظور في لسان العرب. والتربد : التلون. يقال : لما رأني تَربَّد لونه. أي : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر. [اللسان].

(٦) الكوز المجخي : أي : المائل الذي يكبّ ويصبّ ما فيه. فالمجخي هنا هو : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء ، لأن الكوز إذا مال انصبّ ما فيه. [اللسان - مادة : ج خ ى].

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم في صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان.

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثانى : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن منْ ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رانت [1] الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك أنك جلستَ إلى معلّم [2] ، ولم يذكر عنك أنك قرأت فى كتاب ؛ ولذلك يأتى فى القرآن :

---

(١) ران الشيء ريناً : صدىء ، مأخوذ من الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ، ويُستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطّاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] أى : غطت غشاوة الذنوب على قلوبهم . [القاموس القويم] .

(٢) حاول مشركو قريش أن يطعنوا فى أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] فاتهموه بالتعلم من غلام نصرانى أعجمى ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا . يقول ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٨٦) : «ربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه» .

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ[1] ..(٤٤)﴾[القصص]

وجاء:

﴿.. وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ[2] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[3] مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلّم عن معلّم فمَن علّمك ؟

إنما عَلّمك الله سبحانه.

وكأن الله سبحانه وتعالى علّم رسوله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله، وأنه سبحانه لن يسلّمه إلى خصومه ولا أعدائه.

ولذلك يأتي القول الكريم: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذى استمر ألف سنة إلا خمسين، ويأتي بعدها قوله سبحانه:

---

(١) ﴿وَمَا كُنتَ﴾ : خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ : أى: بجانب الجبل أو الوادى أو المكان الغربى من موسى حين المناجاة. ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ (٤٤)﴾ [القصص] : أى: أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه. [تفسير الجلالين، ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٢) الأقلام - هنا - جمع قلم بمعنى السهم أو خشبة تشبهه، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه فى القمار - وقد نهى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى القرعة. ومن استعماله فى القرعة قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾[آل عمران] فالأقلام هنا: سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم. [القاموس القويم].

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة: قام بالتربية والرعاية لمن يكفله. وقوله سبحانه: (يَكْفُلُ مَرْيَمَ): أى: يرعاها ويربيها. وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران] أى: جعله كافلاً لها. [القاموس القويم].

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]

* * *

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمَّت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسل جُدد إلا إذا لم يوجد فى الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانيةَّ فى النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدِّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوَّامة تردعه وتردُّه إلى الإيمان .

أما إذا تصلَّبتْ ذاتُه ، ولم توجد لديه نفس لوَّامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلَوْمه .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث ربُّ العزة سبحانه برسول جديد ، وبيِّنة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ[1] أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ[2] ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٢) : «هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل» وقد قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) : «قيل : هُمْ عادان : عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ [الفجر] » .

(٢) ﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية . أى : ما أنتم إلا مفترون .

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به.

وحين يقول لهم:

﴿ يَا قَوْمِ .. (٥٠) ﴾ [هود]

فهذا للإيناس أيضاً.

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء.

والله سبحانه لم يقل:

﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود]

إلا لأن الفساد قد طَمَّ [1].

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود:

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا [2] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي [3] أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾

---

(١) يقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو : قد طَمَّ. ويقال: طَمَّ الماء إذا كثر. طَمَّ: غَمَر، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾ [النازعات] . [راجع : لسان العرب، والقاموس القويم].

(٢) كلمة (إن) فى هذه الآية الكريمة ، نافية بمعنى (ما) النافية؛ أى : ما أجرى إلا على الذى فطرنى ، أو ليس أجرى إلا على الذى فطرنى ، وهو الله سبحانه وتعالى. أجر فلان فلاناً - من بابى ضَرَب ونصر - أجْرا : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسمى المهر أجراً مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى مهورهن - وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أى ثوابه (القاموس القويم بتصرف)

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم؛ فهو فاطر. قال تعالى: ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الأنعام] أى : خالقهما. وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى : خلقكم أول مرة فى الدنيا. [القاموس القويم].

وكأن هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدِّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أثقلكم مما ألفتم ، ثم آخذ منكم مالاً مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة تَرْك ما تَعوَّدْتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة.

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن: فلا مشقة أكلِّفكم بها ، كما أننى فى غنًى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى.

﴿ .. إنْ أجْرِىَ إلاَّ علَى الَّذِى فَطَرَنِى[1] أفَلا تعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

أى: أنَّ أجرى على مَنْ خَلَقنى مُعَدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان.

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة.

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشترى بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمَّى هذه العملية بيعاً وشراءً.

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه.

وقول هود عليه السلام:

﴿ لا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً.. (٥١) ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

---

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبدأهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ .. (١٤) ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشىء شقه فَطْراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء.

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة [1] :

﴿ لا أسألكم عليه أجرا .. (٥١) ﴾ [هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها [2] ؛ لأن فرعون قال له :

﴿ ألم نربك فينا وليدا .. (١٨) ﴾ [الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجمة ، وهي المنهج الرسالي الذي جاء به هود عليه السلام.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا [3] وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (٥٢) ﴾

---

(١) قالها نوح عليه السلام : [سورة يونس، آية ٧٢] ، [سورة هود ، آية ٢٩] ، [الشعراء ، آية ١٠٩]. وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود : [الشعراء : ١٤٥] وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] . وقالها شعيب [الشعراء : ١٨٠].

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بني إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩) ﴾ [الشعراء] فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل.

(٣) مدراراً : صيغة مبالغة، أي : كثير غزير متتابع. وقال الله سبحانه : ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدرارا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أي تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم] . وقد وردت كلمة (مدراراً) في القرآن الكريم ثلاث مرات : في الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفي الآية الثانية والخمسين من سورة هود ، وفي الآية الحادية عشرة من سورة نوح.

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول : يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى فات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصى .

وعلى الإنسان أن يتذكّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هى مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسيك رتابة [1] الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحّح العقيدة فى قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقّون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هى أن تؤدّى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل فى ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام فى حركة الحياة ، يريدون منّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم: إن الإسلام حينما دخل فى حركة الحياة غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب .

---

(١) رتابة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبذاته وتنسى مُسيِّره ومُسبِّبه . قال فى اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم ، والرتب : الشيء المقيم الثابت» .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أميٌّ [(١)] أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول.

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة.

ونقول لهم: لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثَّل أوامر المعبود في «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون.

إذن: فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بنى عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام [(٢)].

إذن: فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن

---

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة في القرآن ، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف].
الأمي نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التي ولد عليها مفطوراً بفطرة الله بالتلقي عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبي ، وهي تشريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والأمية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقيل أنه قرأ ونقل عن غيره . « من أقوال الشيخ الشعراوي » م . س

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان» أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦).

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حول:ا .

فالعبادة تستوعب كل حركة فى الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العبادة تنحصر فى باب العبادات فى تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس فى المعاملات تؤدى إلى انتظام حياة الناس .

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والاستغفار [1] لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التى ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذى جاء من قبله ، أو هى الذنوب التى ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والتوبة تقتضى العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلٍّ ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

---

(١) غفر الذنب يغفره - كضرب - غفرا وغُفرانا ومغفرة . ستره وعفا عنه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. (٥٨) ﴾ [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صيغتان للمبالغة وكلها من أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمى ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ .. (٦٤) ﴾ [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم . [القاموس القويم باختصار]

مثلما قال سبحانه فى موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ [1] عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ [2] رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التى تنتظم بها كل حركة فى الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفِّر لنفسك القُوتَ [3] باستنباطه من الأسباب التى طمرها [4] الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

---

(١) أى : لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٠).

(٢) وذلك أنهم قالوا لرسولهم هود عليه السلام: ﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف].

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه «أقوات» . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . وأقات النبات أو الحيوان : أمدَّه بقُوته الذى يحفظ حياته . وأقات عليه : حفظه وحفظ بقاءه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء] أى : غالباً مقتدراً ، أو حافظاً واقياً حياته . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخبأها فى باطن الأرض . والمطمورة : حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيىء خفيًا يطمر فيه الطعام والمال . أى : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسماء هي كل ما عَلاكَ فأظلَّكَ[1] ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها.

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج]

أي : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أي شيء ويربطه فيما علاه ويعلّق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت ، وغيظه لن يرحل عنه .

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا .. ﴿٥٢﴾﴾ [هود]

والمدرار : هو الذي يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذي يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : «اللهم حوالينا ولا علينا»[2] .

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضرُّ ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قَوة إلى قوتنا .

---

(١) قال الزجاج : السماء في اللغة : يقال لكل ما ارتفع وعلا : قد سما يسمو . وكل سقف فهو سماء . والسماء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء . [اللسان : مادة سمو] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٧) ، والبخاري في صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة - فو الذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ؛ ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ ، فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله تهدَّم البناء ، وغرق المال ؛ فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : «اللهم حوالينا ولا علينا» .

أما مَنْ يتولَّى [1] ؛ فهو يُجرم فى حقِّ نفسه ؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ فلا تظنّ أن إجرام أىِّ عبدٍ بالمعصية يؤذى غيره [2] .

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس]

ويأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذى قاله قوم عاد:

﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ [3] وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وهم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو مُعجزة .

والبيِّنة - كما نعلم - هى الأمارة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً [4] وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام:

---

(١) يتولى: يُعرض . والتولِّى: الإعراض والإدبار . ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) والحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [النساء] والإثم : الذنب ، وعاقبته إنما تعود على نفسه .

(٣) بينة: أى : دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى: ﴿ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ [البينة] . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) البرد: ضد الحر . قال بعض العلماء: جعل الله فى النار برداً يرفع حرها ، وحراً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو العالية: ولو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد . انظر تفسير القرطبى (٦/ ٤٤٨٢) .

﴿ .. يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [1] وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [2] ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن كنتم أهلاً للتحدى ، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحكموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الربانى ؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاء نور الله فى يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلِّصوا الدنيا منه بقتله .. ما حدث هذا أبداً.

إذن: فالبيِّنة [3] التى جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدى القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهى القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدَّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء .

---

(١) مقامى (بضم الميم) : أى: إقامتى بينكم . ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى: لا إقامة لكم . راجع تفسير ابن كثير .

(٢) الغمة: التباس الأمر وعدم وضوحه . وقال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم] .

(٣) أبان الشىء يبين بياناً أى: ظهر واتضح ، فهو بين ، وهى بينة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها ، والبينة الحجة والبرهان بقول الحق: ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [البينة] وتبين الأمر: وضح وظهر . (القاموس القويم)

فمثلاً شفى عيسى - عليه السلام - الأكمه [١] والأبرص [٢] - بإذن ربه - فمَنْ رآه آمن به ، ومَنْ لم يَرَه قد لا يؤمن ، وكذلك موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أى واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول: محمد رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عامّاً ؛ ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس الباقى ؛ ومع ذلك قالوا له:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [٣] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [٤] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [٥] (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتى الرد :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٥١) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) كمه يكمه كمهاً ، فهو أكمه : وُلِدَ أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . قال تعالى: ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم].

(٢) الأبرص: هو من أصابه داء البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام . قال تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. (١١٠) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم].

(٣) نبع الماء: خرج من العين . والينبوع : العين يخرج منها الماء غزيراً سهلاً . والجمع : ينابيع . قال تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم].

(٤) كسفاً : قطعاً . والكسفة : القطعة . وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] . وقال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [سبأ] [القاموس القويم] .

(٥) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الأعوان المناصرون . قال تعالى: ﴿ .. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء] معك ليؤيدوك . [القاموس القويم].

ومع ذلك كذَّبوا.

وأضاف قوم عاد:

﴿..وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود]

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة»؛ لأن الإله هو مَنْ يُنزل منهجاً يحدِّد من خلاله كيف يُعْبَد؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً؛ ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن: فالقياس المنطقي يُلغي تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة؛ فلماذا عبدوها؟

لقد عبدوها؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر.

وهذه هي حُجَّة كل ادِّعاء نبوة أو ادِّعاء مَهديَّة [1] في هذا العصر، فيدَّعي النبيُّ الكاذب النبوَّة، ويدعو للاختلاط مع النساء، وشرب الخمر، وارتكاب الموبقات [2]، ويسمِّي ذلك ديناً.

ونجد مثل هذه الدَّعاوَى في البهائية [3] والقاديانية [4]؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة.

---

(١) المقصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في أحاديث رواها البخاري في صحيحه، أنه يأتي في آخر الزمان، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم.

(٢) الموبقات: المهلكات. أوبقه: أهلكه. وقال تعالى: ﴿.. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف] أي: جعلنا تواصلهم في الدنيا موبقاً، أي: مهلكاً لهم في الآخرة. [لسان العرب - مادة: وبق].

(٣) البهائية: طائفة ذات عقائد فاسدة، تنسب لـ «الميرزا حسين علي المازندراني» تربَّى بطهران، ولد عام ١٢٣٣ هـ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية. انظر: حقيقة البابية والبهائية - د. محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م.

(٤) القاديانية: تُنسب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين الباكستان والهند، ولد ١٢٥٢ هـ، وادَّعى النبوة. (القاديانية، نشأتها وتطورها، د. حسن عيسى - دار القلم / الكويت ١٩٨١ م).

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ..(٥٣) ﴾ [هود]

يعني : وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

أي : وما نحن لك بمصدِّقين ، لأن (آمن) تأتي بمعاني متعددة [1] .

فإنْ عدَّيتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وإنْ عدَّيتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. (٦٢) ﴾ [البقرة]

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية .

وإن عدَّيتها بحرف «اللام» ؛ مثل قول الحق سبحانه :

---

(١) أمن يأمن : اطمأن ولم يخف . وأمن منه : سلم . وأمن على كذا : اطمأن إليه ووثق به . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] .

وآمن : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ..(٣٥) ﴾ [إبراهيم] . أي : يأمن من يحل به .

وآمنه من خوف : جعله آمناً غير خائف . ومعاني المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان . قال تعالى : ﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] أي : جعلهم آمنين لا يخافون ؛ لأنهم جيران الحرم الآمن في البلد الآمن .

والمؤمن : من أسماء الله الحسنى ، أي : واهب الأمن وباعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين ؛ فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ .. (٢٣) ﴾ [الحشر] .

وآمن له : أذعن وخضع عن ثقة وحب وتقدير . قال تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ..(٢٦) ﴾ [العنكبوت] .

وآمن به : صدَّق به ووثق به عن اقتناع . قال تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ [يس] .

والإيمان : الإذعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. (١٥٨) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣)﴾ [يونس]

تكون بمعنى التصديق.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

و«إن» التى تُفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية، وأداة «إن» الشرطية يأتى بعدها جملة شرط، وجواب شرط، فإن لم تكن كذلك فهى تكون بمعنى النفى؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢)﴾ [المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ[1] .. (٥٤)﴾ [هود]

أى: «ما نقول إلا اعتراك».

وهكذا نعلم أن كلمة «إنْ» هنا جاءت بمعنى النفي.

و«إلا» هى أداة استثناء، وقبلها فعل هو «نقول»، وإذا وجدت أداة استثناء، ولم يذكر المستثنى منه صراحة، فاعلم أنه واحد من ثلاثة: إما أن يكون مصدر الفعل، وإما أن يكون ظرف الفعل، وإما أن يكون حال الفعل[2].

---

(١) عراه يعروه: ألمّ به أو غشيه وأصابه. قال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ..(٥٤)﴾ [هود] أى: أصابك. قال الفراء: كانوا كذّبوه - يعنى: هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً، وادعوا أن آلهتهم هى التى خبلته لعيبه إياها، قال الفراء: معناه: ما نقول إلا مسَّك بعض أصنامنا بجنون لسبِّك إياها. [لسان العرب، والقاموس القويم].

(٢) يسمى النحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرَّغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه، والكلام غير موجب (أى: منفى) مثل: ما تكلم إلا واحد. ويقول تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ..(٣٢)﴾ [الجاثية] أى: ما نظن إلا ظناً حقيماً. انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى [٢/ ٣١٧ - ٣٣٧].

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهتهم وأبْطَلتَ ألوهيّتهم ، وجئتَ بإله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به الجنون - فأخذتَ تخلطُ في الكلام الذي ليس له معنى.

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ .. قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا [1] أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهو يُشهد الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله ؛ لأن عقل الرسولَ هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله.

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه.

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [2] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُق له ، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخُلُق الطيِّب.

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا: أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه بريء من تلك الآلهة التي يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام:

---

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة، ولكن المعنى: وأشهدكم نهاية للتقرير، أي: لتعرفوا أني بريء من عبادة الأصنام التي تعبدونها. انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٧٠).

(٢) غير ممنون: أي: غير مقطوع، بل هو دائم، ويحتمل أنه غير مكدَّر بالمنّ والتقريع والفخر به. والمعنيان لا يتعارضان [القاموس القويم ٢/ ٢٤٠].

﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي[1] جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾

وقوله : ﴿من دونه﴾ أي : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبّرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى.

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أُشْهِدُ اللَّهَ ..۝٥٤﴾ [هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة.

وهو لم يَقُلْ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة.

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ..۝١٨﴾ [آل عمران]

---

(١) كان فلاناً مكيده كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعاقبتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد يقول الحق : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ..۝٦٤﴾ [طه] (القاموس القويم بتصرف)

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم [1]، والله سبحانه وتعالى حين شهد لنفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة.

وقد أشهد هود عليه السلام ربَّه سبحانه، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولاً ليُمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ [2] إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [3] إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ [4] مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران].

(٢) الدابة: اسم فاعل، وغلب على غير العاقل، ويستوى فيه المذكر والمؤنث وقد يشمل العاقل وغيره، كقوله تعالى: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره. وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل كلمة ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فالعطف يقتضى المغايرة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾ [الأنفال] تشمل الحيوان والإنسان الكافر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. (٢٩) ﴾ [الشورى] والدابة هنا تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة. [القاموس القويم] بتصرف.

(٣) الناصية: ما برز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة، ويسمى مكانه أيضاً «ناصية». وأخذ بناصية فلان: قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. (٥٦) ﴾ [هود] أى: مسيطر عليها مالك أمرها متصرف فيها. وقوله تعالى: ﴿ .. فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن] أى: يُجَرّ المجرمون من نواصيهم وأقدامهم، فتربط ناصية المجرم مع قدميه، ويؤخذ فيلقى فى النار عاجزاً مهاناً. وقوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾ [العلق] مجاز مرسل علاقته الجزئية، أى: صاحبها كاذب خاطىء. [القاموس القويم].

(٤) الصراط: لغة فى السراط، وبهما قرىء - بالصاد، والسين - وهو السبيل والطريق للخير والشر. فمن الخير قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]. ومن الشر والهلاك، قوله تعالى: ﴿ .. فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات] والتعبير بقوله تعالى: ﴿ فَاهْدُوهُمْ ﴾ على سبيل التهكم والسخرية. [القاموس القويم].

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكّل على الله تعالى الذى لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابّة تدبُّ فى الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هى مقدّم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدُّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ [1] فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن]

وفى آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا [2] بِالنَّاصِيَةِ (١٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلّطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ . . مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال فى صدر [3] الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم . . (٥٦) ﴾ ، وفى عَجُز [4] الآية قال : ﴿ . . إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ، والسبب فى قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم . . (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادحين [5] فى مسألة ربوبية الحق سبحانه .

---

(١) السيماء والسيما والسيمة : العلامة ، وسوم الشيء : أعلمه يسومه أى : بعلامة . [القاموس القويم] .

(٢) سفع بناصيته : قبض عليها فاجتذبها . أى : لنجذبنه من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [القاموس القويم ١/ ٣١٦] .

(٣) الصدر : مقدم كل شيء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شيء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) القدح فى الشيء : العيب فيه وانتقاصه . [راجع اللسان - مادة : قدح] .

لذلك قال عليه السلام فى مجال السيطرة: ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أما فى عجز الآية فقال:

﴿.. إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة، ولم يأت هنا بشىء يخصُّ أربابهم؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم فى منتهى قُدرته، وقَهْره وسيطرته، ولا شىء يُفلت منه، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره فى الظلم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا[1] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ[2] (٥٧)﴾

الفعل «تولَّوا» أصله: «تتولَّوا»، وفى اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة.

وهكذا يكون المعنى:

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذى أرسلت به إليكم، ولا عُذر لكم عندى؛ لأن الحق سبحانه لا يعذِّب قوماً وهم غافلون؛ لذلك أرسلنى إليكم.

---

(١) ولى عن الشىء: انصرف عنه، أو أعرض عنه. وقال تعالى: ﴿.. وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾ [الإسراء] أى: أعرضوا. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ .. (٢٠)﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم].

(٢) حفيظ: من أسماء الله الحسنى. والحفيظ: الحافظ الأمين الذى يحفظ عباده ويحميهم. قال تعالى: ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾ [سبأ] [القاموس القويم - بتصرف].

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبيِّن له : فإن تولَّوا فقل لهم : ﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء [1] لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ..(٥٩) ﴾[مريم]

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيِّباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨) ﴾ [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا .. (٥٧) ﴾ [هود]

---

(١) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أي الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ .. (٥٩) ﴾ [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجمعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ..(٦٩) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ..(٣٩) ﴾[فاطر] [القاموس القويم صـ٢٠٣ ، ٢٠٤ جـ١]

لأن المنهج الذى نزل على الخَلْق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد ، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف[1] .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم ألفتم التمرد ؛ إما التمرد فى القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض »؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود]

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس[2] والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : «يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول: لا ؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه:

﴿لا تأخذه سنة [1] ولا نوم ..(٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن الغَفْلة أو النوم، بل هو سبحانه قيوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [2] (٥٨)﴾

وساعة تسمع ﴿ولمّا جاء أمرُنا﴾ فأنت تعرف أن هناك آمراً وأمراً مُطاعاً، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إذا السَّماءُ انشقَّتْ (١) وأذِنَتْ لربِّها وحُقَّتْ [3] (٢)﴾ [الانشقاق]

إذن: فهي بمجرد السمع نَفَّذت أمر الحق سبحانه.

---

(١) السنة: النعاس وهو أول النوم. والنعاس ما كان من العين، فإذا صار في القلب صار نوماً. وقد فرّق المفضل الضبي بينهما فقال: السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب. [راجع تفسير القرطبي ٢/ ١١٩٦].

(٢) عذاب غليظ: أي: كبير كثير شديد صعب. [القاموس القويم].

(٣) حق له (بالبناء للمجهول): أثبت له. قال تعالى: ﴿وأذنت لربها وحُقَّت (٢)﴾ [الانشقاق] أي: كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله. [القاموس القويم].

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجي موسى عليه السلام من الذبح الذى أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لأمِّ موسى قائلاً:

﴿ .. فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

وكيف تفعل أمٌّ ذلك؟

إن كل أمٍّ إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء فى البحر موت محقَّق [2] ، لكن أم موسى استقبلت الوحى ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهامٍ واردٍ إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شكٌّ أو شيطان.

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر:

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [3] .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

وقد استقبل البحرُ الأمرَ الإلهى ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

فى قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه:

---

(١) اليم: البحر أو النهر العذب. وقد ورد المعنيان فى القرآن، فقال تعالى: ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح، وهو امتداد البحر الأحمر.
وقال تعالى لموسى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] فاليم هنا هو نهر النيل العذب. [القاموس القويم].

(٢) أم موسى عاشت فى خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت فى خوف محقق وهو إلقاء ابنها فى البحر ، فالبحر يعنى الغرق .. ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل الخوف المحقق بالإيمان التقى ، فالبحر استقبله ، والموج يداعبه ، والشاطىء يقبله ، والعدو يربيه ، وعين الله ترعاه.

(٣) الساحل: شاطىء النهر؛ لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته. قال تعالى: ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] أى: بشاطىء النهر. [القاموس القويم].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ..(٤٠)﴾ [هود]

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ..(٥٨)﴾ [هود]

يعنى: مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب فى دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى.

فحين تأتى ريحٌ صَرْصَرٌ [1] أو صَيحةٌ طاغيةٌ، فهذا العذاب من خارجهم، وما دام العذاب من الخارج، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يَعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير.

إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك، وهى صيحة موجَّهة، مثلها مثل حجارة سجِّيل [2] التى رمتها طير أبابيل [3] على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نجاة جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين.

---

(١) الصِّرّ: البرد الشديد. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ..(١١٧)﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة] [القاموس القويم].

(٢) السجِّيل: الطين المتحجِّر. قال تعالى: ﴿.. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢)﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)﴾ [الفيل] [القاموس القويم].

(٣) أبابيل: جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها، وهى تفيد الكثرة. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)﴾ [الفيل] [القاموس القويم].

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد؛ ولكنه يُنجي المؤمن؛ ويعذِّب الكافر؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه.

يقول المتنبي [1]:

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوجُهِنا ... وَمَا تُسَوِّدُ بِيضَ العَيْنِ والَّلمَمِ

وَكَانَ حَالُهُما في الحُكْمِ واحِدَةً ... لَو احتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إلَى حَكَمِ [2]

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر، لكنك إن تركت شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد؛ لكن القابل مختلف.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨)﴾ [هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام؛ لأن هذه هي الرحمة.

والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

---

(١) هو: أبو الطيب أحمد بن الحسين، شاعر حكيم، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ، نشأ بالشام، ادعى النبوة في بادية السماوة (بين الكوفة والشام)، ولذلك سمى بالمتنبي، ثم رجع عن دعواه بعد أسره، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً. (الأعلام لخير الدين الزركلي).

(٢) المتنبي رغم أنه أديب له قدرة على إدارة المعاني، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية، التي تجعل العقل مختاراً بتوحيد لقدرة الله سبحانه.

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر فى نفس الآية الكريمة نجاتين:

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه:

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود]

والنجاة الثانية : هى نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا.

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة.

وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم.

ولذلك حينما يُملِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع [1] امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعِرْض ، ولم يُملِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة [2] التى يتزوجها ؛ فالزوجَ يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا [3] (٢١) ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ.

---

(١) البضع: النكاح والجماع، والمباضعة: المجامعة ومباشرة الرجل للمرأة. [لسان العرب - مادة: بضع].

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها، أو التدخل فى كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة.

(٣) ميثاقاً غليظاً: أى: عظيماً كبير الشأن، هو ميثاق الزواج. [القاموس القويم].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا[1] بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ[2] وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[3] (٥٩) ﴾

و«تلك» إشارة إلى المكان الذى عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التى عاشت فى المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهى إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهى الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحى بإيمان بما تنص عليه .

---

(١) جحد الحق يجحده جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية : كفر بها . قال تعالى : ﴿ .. ولَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٥١) ﴾ [المؤمنون] . يعنى : النبى ﷺ ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وإنما جمع هنا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل» .

(٣) الجبار : المتكبر . والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التى فى القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتى مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهى المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التى يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة فى خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض [1] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ..(٥٩) ﴾ [هود]

وهود عليه السلام هو الذى أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنىُّ بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ [2] النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ..(٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) الجحود لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشرود الفكر وضعف النفس .

(٢) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ..(٧) ﴾ [المائدة] أى : عهده الذى عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩].

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ... (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فهم قد انقسموا إلى قسمين ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [1] (٥٩) ﴾ [هود]

أي : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ في ذاته ، وهناك مُضِلٌّ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران [2] : وزر ضلاله في ذاته ، ووزر إضلال غيره [3] .

أما الذين اتَّبعوا فلهم بعض العذر ؛ لأنهم اتُّبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

---

(١) العنيد : صيغة مبالغة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم صـ ٣٩٠ جـ ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى: ﴿ ... فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) ﴾ [طه] أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ﴾ [الشرح] أى : همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءته الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل إلا هم أمته ، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله وخوفك إياه ، وقد وضعه عنك وغفره لك . قال تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة ذنوباً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٣].

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت] والأثقال هي الذنوب ، ويحملون أثقال من أضلوهم فاتبعوهم فى ضلالهم [راجع : القاموس القويم ، مادة ثقل].

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التى ضلت فى ذاتها ويقول:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ [١] وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً [٢] وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

والزمان بالنسبة للمخلوق ثلاثة أقسام: حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ [٣] ، وساعة يبعثون هى الزمن الثالث.

---

(١) الأمانى: جمع أمنية، وهى ما يرغب الإنسان فيه من الخير، فعلمهم من الكتاب ليس أمانى كاذبة فى دخول الجنة دون أن يصدقها عملهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (١٢٣) ﴾ [النساء]. [القاموس القويم ٢/ ٢٤١] بزيادة يقتضيها المقام.

(٢) اللعنة: اسم مرة، وتستعمل بمعنى المصدر، قال تعالى: ﴿ .. أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود] أى: سخطه وغضبه وطرده منصبٌ على الظالمين. [القاموس القويم].

(٣) البرزخ: الحاجز بين الشيئين. قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] أى: بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما فى مجراه؛ فلا يبغى ولا يطغى على الآخر. وقال تعالى: ﴿ .. وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى: حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ ، من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم].

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء [١] ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار.

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

هذه هي الأزمنة الثلاثة - حياة ، وبرزخ ، وبعث - وكل وقت منها له ظرف.

ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [٢] وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر]

وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار» [٣]

إذن : فهنا زمنان : زمن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، وزمن دخولهم النار.

---

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم ، وهو في حد ذاته عذاب.

(٢) الغدو : الدخول في الغداة ، أو السير أول النهار. قال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] أي : مدة سير الرياح في وقت الغداة تقطعها القوافل في شهر.
ويقابل الغدو بالعشي وبالآصال ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا .. (٤٦) ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور]. [القاموس القويم].

(٣) أخرجه الترمذي والطبراني في الكبير عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن أبي هريرة وسندهما ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٣/ ٤٦) ومسند الفردوس للديلمي (٣/ ٢٣١).

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار[(١)] ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .

وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب فى الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»[(٢)] هى أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذى يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتى كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً فى الدنيا بالريح العقيم[(٣)] ، ثم أتبعوا لعنة فى البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيَّن بكلمة «ألا» أى : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفتاح وهى مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ .. (١٣) ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتحضيض والحث ، كقوله تعالى : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] [القاموس القويم ١ / ٢٧] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هى التى لا خير فيها - بل هى تهلك وتدمر . وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم صـ ٣١ جـ ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث فى الدنيا ، وهو كفر فى القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً فى الدنيا.

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم فى البرزخ ، ثم تأتى لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم، بل كفروا بربهم.

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التى لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهى الجزاء العادل.

وقد أوضح لهم هود عليه السلام:

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [1] إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

أى: أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

فأنت لا تكتفى بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول: ولماذا يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

---

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية - وأخذ بناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ..(٥٦)﴾ [هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها . [القاموس القويم بتصرف صـ ٢٧٠ جـ ٢] .

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن:

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عاداً» كانت اثنتين: عاداً الأولى، وهم قوم عاشوا وضلُّوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية [1].

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ[2] أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم[3] مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[4] فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١ ﴾

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) أنهما عادان، عاد الأولى، وعاد الأخرى، فهؤلاء - أى: قوم هود - هم الأولى. وأما الأخرى فهى أقوام عاشت فى جزيرة العرب. وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ ﴾ [الفجر]، ويقول (٣/ ٢٧٥٢): «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما روى ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون رمال عالج، وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت فيما روى بنواحي حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولحق هود - حين أهلك قومه - بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا».

(٢) ثمود: قبيلة من العرب الأول. ويقال: إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح. [راجع: لسان العرب - مادة ثمد].

(٣) أنشأ الشيء: أوجده وأحدثه وخلقه. وأنشأ الله السحاب: كوَّنه وأظهره فى السماء. قال تعالى: ﴿ .. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ ﴾ [الرعد] أى: يكوِّن السحب الممتلئة بالماء. وأنشأكم من الأرض: خلقكم منها. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) عمر فلان الدار: بناها، وعمر القوم المكان: سكنوه، فهو معمور. وعمرت الدار بأهلها؛ فهى عامرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ..۝١٨ ﴾ [التوبة] أى: يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويمكث للاعتكاف، ويبنيها ويحافظ عليها؛ فكل ذلك من عمارتها.
وقوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ..۝١٩ ﴾ [التوبة] أى: أن عمارة المسجد بغير إيمان لا وزن لها؛ فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال. واستعمره فى المكان: جعله يعمره. قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..۝٦١ ﴾ [هود]. [القاموس القويم ٢/ ٣٥].

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ليبين العلاقة التى بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه- فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ﴾ ، وهى من القيام ، يعنى: يا من تقومون للأمور . والذى يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - فى طى الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مطويات على الستر فى ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السُّكْنى وتربية الأولاد.

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل.

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجال ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك: إذا كنت لم تنتقد التهتك فى الملابس ، ووَصَفْتَهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل فى أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً.

ونعود إلى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ والعبادة تقتضى تلقى أوامر الإله المعبود بـ«افعل» و «لا تفعل»[1] فى كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شىء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسع أحداً مخالفته.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ [هود]

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شىء ، ويقال : أنشأ ، أى : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشىء آخر.

لذلك لا نقول لمن اخترع: إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشىء من عدم.

والوجود من العدم قسمان: قسم أوجدته باستعانة بموجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) إن مدار التكليف فى حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهى ، فمن الأمر نأخذ الفرض والسنة والمستحب والمندوب والتطوع والواجب والحلال ، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية . والنهى : يكون عن الحرام والمكروه . وحركة الحياة منوطة بافعل كأمر ، ولا تفعل كنهى ، وفى النهى عند الاستجابة سعادة ، وعند المخالفة شقاء .

والحق سبحانه جلَّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مَرَدُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها للطلب[2] ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أخرى : «دول الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخربون في الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

---

(١) استعمركم فيها : أذن لكم في عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان : مادة عمر] .

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي : تأتي كلمة استفعل في لسان العرب على معان :
- منها : استفعل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استحملته أي : طلبت منه حملاناً .
- وبمعنى : اعتقد ، كقولهم : استسهلت هذا الأمر ، أي : اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً . واستعظمته أي : اعتقدته عظيماً ووجدته .
- وبمعنى : أصبت ، كقولهم : استجدته أي : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : قر في المكان واستقر . نقله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٧٥) .

و﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيدوه صلاحاً.

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأوانى المستطرقة [1] ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأوانى المستطرقة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت.

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل،وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً.

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة في عدد السكان.

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان.

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلَّى على الخَلْق بصفات من صفاته ، فالقوىُّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنىً ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا.

---

(١) الأوانى المستطرقة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد. [المعجم الوسيط].

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل.

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذى زرع له النخلة [1] هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً - وليستفيد بها من يأتى من بعده.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة [2].

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم:

---

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾ [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة].

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله: «يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٤٠) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبى ذر الغفارى.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا[1] قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[2] (٦٢) ﴾

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجوُّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعْبد هو أمر خاطىء ؛ لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج ؛ يتبعه من يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿ ..وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود]

---

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا .. (٦٢) ﴾ [هود] أي : كنا نرجو أن تكون فينا سيداً . [مختصر تفسير الطبري] و[القاموس القويم] .
قيل : كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك . انظر القرطبي (٤/ ٣٣٧٧) .

(٢) أرابه : أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه ، واسم الفاعل : مريب . وقوله تعالى : ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) ﴾ [هود] على سبيل التوكيد ، أي : في شك موصل إلى شك . وكذلك قوله تعالى على لسان قوم ثمود : ﴿ .. وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود] . وأراب الرجل فهو مريب : صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس . قال تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

والشك هو استواء الطرفين: النفى والإثبات.

إذن: فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هى عبادة صادقة، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون فى أمر تلك العبادة؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير فى صالح عليه السلام جعلتهم يترددون فى أمر عبادتهم [1].

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ [2] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ [3] مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً [4] فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ [5] (٦٣) ﴾

---

(١) وأيضاً فإنهم فى شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد، فخطابهم هنا موجه لصالح (مما تدعونا) أى: يا صالح. كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، أرسل إليها أخوهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنه، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانشقت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتتركه لهم يوماً وكانوا يشربون من حليبها ويملأون ما يشاءون من أوعيتهم، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها، فعقروها، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاثة أيام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد.

(٢) أرأيتم: أى: أخبرونى. [كلمات القرآن].

(٣) بينة: يقين وبرهان وبصيرة. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وهى الحجة الواضحة الموضحة للحق التى تجعل الحق ظاهراً للعيان.

(٤) رحمة: أى: نبوة. [تفسير الجلالين]. وقد سبق قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ .. (٢٨) ﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٣): «أى: نبوة ورسالة. عن ابن عباس، وهى رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان والإسلام».

(٥) خسَّره: جعله يخسر، وخسره تخسيراً: أبعده عن الخير، وأهلكه. وقوله تعالى: ﴿ .. فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود] أى: غير إبعاد عن الخير، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء فى تفسير الجلالين: (غير تخسير) أى: غير تضليل. وجاء فى مختصر تفسير الطبرى ﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، يخسركم حظوظكم من رحمة الله عز وجل.

وكأن صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيَّدني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليَّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ..(٦٣) ﴾ وهي النبوة ؟

﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ..(٦٣) ﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال. فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها ، فإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزاد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى.

إذن: فالتخسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ[1] ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ[2] فَذَرُوهَا[3] تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ[4] فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) ﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة[5] ما ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت بيوتهم فى الجبال. ومن يَزُرْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهى منحوتة فى الجبال.

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[6] (١٤٩) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الناقة : أنثى الجمل ، ونسبت ناقة صالح لله ، لأنها ناقة فقراء الله تسقيهم لبنها ، أو لأنها منذورة لله وإن الله حاميها وراعيها ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبت لله تشريفاً لها . [القاموس القويم].

(٢) آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام . [كلمات القرآن].

(٣) ذروها : دعوها أو اتركوها . وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر ؛ فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [نوح] أى : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] أى : اتركنى أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) ﴾ [التوبة] أى : اتركنا . [القاموس القويم] بتصرف.

وجاء فى مختصر تفسير الطبرى : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود] أى : اتركوها تأكل من أرض الله ، ليس عليكم رزقها ولا مؤونتها.

(٤) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٦٤) ﴾ أى : لا تقتلوها ولا تنالوها بعقر . [مختصر تفسير الطبرى].

(٥) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٣٧٨) : «قيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحجر يقال لها : الكاثبة».

(٦) فَرِهَ : أشر وبطر فهو فَرِهٌ ، وفره فراهة وفروهة : حذق ومهر ونشط وخف فهو فارهٌ . وقُرِئ بهما قوله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] أى : حاذقين نشطين ، وقرئ (فرهين) أى : بطرين أشرين . [القاموس القويم].

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهى خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهى حامل.

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه.

مثلما نقول: «بيت الله» ، وهذا القول إن أُطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه: «بيت الله» فنحن نبنى عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكرت لتكون مُصَلّى ، ولا يُزاوَل فيها أى عمل آخر.

هكذا تكون الكعبة هى بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هى بيوت لله باختيار خَلْق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن: فإن أضيف شىء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح :﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ..(٦٤)﴾ وهى ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو.

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشىء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه.

ومثال ذلك: ابن أبى لهب [1] ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبى لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنه: طلق بنت

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال: لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨) وقال أيضاً: كانت أم كلثوم بنت رسول الله تحت عتيبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبى لهب .

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء [١] ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه [٢]».

فقال أبو لهب: إني لأتوجس شراً من دعوة محمد.

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال: «أكلك كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً.

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام: هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان.

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً.

---

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (تبت يدا أبي لهب) قال أبو لهب لابنيه عتيبة وعتبة: رأسي ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ، وسأل النبي ﷺ عتبة طلاق رقية ، وسألته رقية ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الحطب: طلقها يا بني فإنها قد صبت فطلقها. وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبي ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال: كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ: «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه». دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبراني مرسلاً وقال: فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبي عقرب وصححه. وحسنه ابن حجر في الفتح (٤/ ٣٩).

(٢) الكلب: كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده: غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وفي التنزيل العزيز: ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين .. ④ ﴾ [المائدة] ، فقد دخل في هذا: الفهد ، والبازي ، والصقر ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح» [انظر: اللسان مادة: كلب] وانظر فتح الباري (٤/ ٣٩).

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه.

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها. وقال لهم:

﴿.. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤)﴾ [هود]

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسّوها[1] بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر.

إذن: فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها.

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية:

﴿فَعَقَرُوهَا[2] فَقَالَ تَمَتَّعُوا[3] فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[4] (٦٥)﴾

---

(١) المس: الجنون على تخيل أن الجن مسته كقوله تعالى: ﴿كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ..(٢٧٥)﴾ [البقرة] أي: المصروع الذي لا يعي مسه وماسّه مماسة أو مساساً مسّ كل منها الآخر مفاعلة من الجانبين وتماس الزوجان تلاقت بشراتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومسه من باب فرح مسّاً أجرى يده عليه من غير حائل ومسته النار أصابته ومسّه المرض: أصابه على إعجاز ، وقوله تعالى: ﴿لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)﴾ [الواقعة] أي: لا يمسك بالمصحف إلا الطاهرون من الحدث الأكبر. [القاموس القويم بتصرف صـ٢٢٦ جـ٢].

(٢) العقْر: أصل كل شيء، وعقرته: أصبت عقره، كقوله تعالى: ﴿فعقروها ..(٦٥)﴾ [هود] أي: أصابوها إصابة قاتلة، أي: نحروها. [القاموس القويم].

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد. ومتع بالشيء: انتفع به. والمتاع: مصدر يسمى به الشيء المنتفع به، والمتاع: كل ما ينتفع به من طعام وأثاث وأداة ومال. وقال تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣)﴾ [الحجر] وقال تعالى: ﴿.. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (١٢)﴾ [محمد]. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) وعد غير مكذوب: أي: وعد صادق واقع لا محالة؛ وهو من قبيل تأكيد الشيء بنفي نقيضه.

وجلسوا فى منازلهم ثلاثة أيام [1] ثم جاءهم العذاب.

ولقائل أن يقول: ولمَ الإمهال بثلاثة أيام؟

ونقول: إن العذاب إذا جاء فالألم الحسِّى ينقطع من المعذَّب، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا فى ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حسِّيًا، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذى قال فيه الله تعالى:

﴿.. وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود]

الحق سبحانه هو الذى يَعدُ، وهو القادر على إنفاذ الوعد، ولا تقوم قوة أمامه؛ لذلك فهو وعد صَادق غير مكذوب.

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشىء، فمن الممكن أن يأتى وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع.

لذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك إن قلت: «أفعل ذلك غداً»، وتحدد إنساناً بلقائه لكذا وكذا؛ فقل: «إن شاء الله»؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتى، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور «بمشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز ما وعد به؛ يكون قد خرج عن الكذب، لأن الله تعالى لم يشأ، لأن الإنسان إذا وعد، فهو لا يعتمد على إرادته، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شىء.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٩) أن عقرها كان يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت. وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما قاموا ثلاثة أيام، لأن الفصيل رغا ثلاثاً، فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول، ثم احمرت فى الثانى، ثم اسودت فى الثالث. وهلكوا فى الرابع. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٩).

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكّن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من يعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للُقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب .

إذن : فإذا قال : «أفعل ذلك غداً مع فلان» ؛ يكون قد جازف وتكلم فى شىء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله» ، أى : أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطى الحق سبحانه فى كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل :

﴿ فَعَقَرُوهَا [1] فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله : ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً فى مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم فى أى مكان .

---

(١) العقر : أصل كل شىء . وعقرته - من باب نصر : أصبتم عقره كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ .. (٧٧) ﴾ [الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالعقم ، فهى لا تلد فهى عاقر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. (٥) ﴾ [مريم] .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»[1] ، وكان يحج إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه فى بيت الله ؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أَوْلى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام[2] ، وظل الحجر الذى سيُضرب به ، أو الصيحة التى كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه . . وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح ، وتتبع من فى الديار إلا هذا الرجل ، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب[3] .

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذى عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج ، وكانوا يُضيِّقون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ،فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام،ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال فى البيت الحرام ، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى : الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله بها مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله ، فقالوا : من هو يا رسول الله؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠، ٥٦٧) وصحح إسناده . قال الهيثمى (٧/ ٥٠) : رجال أحمد رجال الصحيح ، قلت : هم أيضاً رجال الإسناد الأول .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . (٩٧) ﴾ [آل عمران] أى : يكون آمناً مطمئناً لا يخاف على نفسه أو ماله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . . (٦٧) ﴾ [العنكبوت] .

(٣) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٩) «أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها : الذريعة . وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع من شىء ، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت» .

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضي زماناً، ويقتضي مكاناً.

وكان العرب دائمي الغارات على بعضهم البعض، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال؛ فكانت الأشهر الحرم؛ لأن الحرب قد تكون سجالاً[(١)] بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة[(٢)] والعزة.

وكل واحد منهم يحب في ذاته أن ينتهي من الحرب، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان، فحرم القتال في الأشهر الحرم.

وما إن تأتي الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء: لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمي الهزيمة الساحقة، وهو يقول ذلك ليداري كبرياءه؛ لأنه في أعماقه يتمنى انتهاء الحرب.

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام، هنا يقول مَنْ كان يحاربه: لو لم يدخل الحرم؛ لأذقته عذاب الهزيمة.

وبمضيِّ الزمان وبالمكث في المكان ينعم الناس بالأمن والسلام، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) الحرب بينهم سجال: أي: نصرتها بينهم متداولة، مرة لهم، وأخرى عليهم. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) الأنفة: العزة والحمية والكرامة. [المعجم الوسيط] بتصرف.

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود ، بعد مُضىّ المدة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجَّى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .

هذا الذل وتلك الفضيحة التى حاقت [1] بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شىء ، وفى هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ [2] ﴿٦٧﴾ ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذى نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه فى موضع آخر «الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة]

وسمّاه فى موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

---

(١) حاق به الشىء أو العذاب يحيق حيقاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود] كناية عن موتهم بحالتهم ، فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت]

وفى سورة الأعراف سمّاه «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة [1] تؤدى معنى الحدث الذى يَدْهَمُ [2] ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : «وأخذت الذين ظلموا الصيحة »؟ لماذا اختفت تاء التأنيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ ؟ [هود]

ونقول : إن الذى يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التأنيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود]

أى : مُلْقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) رجف يرجف رجفاً ورجفاناً : تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل] والرجفة : اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

(٢) دَهَمه أمر دهماً : فجاه وغشيه . ودهمه القوم : جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وأدهمه : ساءه وأرغمه . والدَّهْم : العدد الكثير . وجيش دَهْم : كثير . [المعجم الوسيط] .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا[1] أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ومادة «غَنِيَ»[2] .. «غنيَ» ، أو «غَنَاء» كلها متساوية ؛ لأن الغَنَاء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغْنِي عن شيء ، فالغِنَى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغَنَاء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[3] كَأَن لَّمْ تَغْنَ[4] بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

أي : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم في ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود] . [القاموس القويم] .

(٢) غني يغني غناء وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغني . والغني : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ .. ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٣) حصد الزرع يحصده حصداً وحصاداً : قطعه عند نضجه . ويستعمل الحصد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة . قال تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : جعلناهم كالزرع المحصود ، أي : أهلكناهم . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود] . أي : منها باق ، ومنها هالك . [القاموس القويم] .

(٤) غنيت الدار بأهلها : عمرت بهم ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أي : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم ٢/ ٦١] .

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ ، وهذه هى حيثية العذاب الذى نزل بهم.

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به.

وقول الحق سبحانه: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم.

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ [1] قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ [2] أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [3] (٦٩) ﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسَل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعثه إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسَلاً من الله.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي [4] مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج]

واصطفاء الملائكة كرسل لتيسير التلقِّى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه.

لذلك يأتى لنا الله جَلَّ عُلاَه بالرسل ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة.

---

(١) البُشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخبر السار . والبِشْر : مصدر بمعنى البشارة والبشرى ، ويطلق كل منها على الخبر السار . وبشَّره : أخبره بما يسره . قال تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) ﴾ [الحجر].

(٢) لبث : أقام واستقر . وما لبث أن فعل كذا : ما قعد وما توانى ، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان . وقوله تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود] أى : أسرع فأتى به ، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف . [القاموس القويم].

(٣) حنذ اللحم يحنذه حنذاً : شواه على الحجارة ، فهو حنيذ أى : مشوى . قال تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود] ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم].

(٤) اصطفاه : اختاره وآثره وفضَّله . قال تعالى : ﴿ .. يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] أى : اختارك وفضَّلك . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج] أى : يختار الأفضل منهم لرسالاته . [القاموس القويم] بتصرف.

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ، ولا كل البشر بقادرين على التلقى عن الله أو عن الملائكة.

وهذه الحلقات فى الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك فى حياتهم.

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم بمتاع البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصاب نحن إن اصطدمنا بما هو أقوى منا.

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوى .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتى بمصطفى من الملائكة ، يتلقى عن الحق سبحانه ويبلغ المَلَكُ من هؤلاء الرسولَ المصطفى من البشر.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً [1] أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ [2] أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً [3] فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) الوحى : يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به.
قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ .. (٤٥) ﴾ [الأنبياء] أى: بالقرآن الذى أوحاه الله إلىَّ. ويطلق الوحى على الملك الذى أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: إلهاماً من الله ، وقذفاً وإلقاء فى قلب الرسول فى سرعة وخفاء. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٢) ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله تعالى. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله ما أمر الله به [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. (٦٩) ﴾ [هود]

والبشرى هى الإخبار بشىء يسرٌ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار الذى يعنى الإخبار بشىء محزن قبل أوانه.

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من أجلها، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن، فمن أدب الدخول إلى أى مكان أن نسلّم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا[1] وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

ولذلك يأتى الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلامًا ..(٦٩) ﴾ [هود]

وجاء سبحانه بردّ إبراهيم عليه السلام:

﴿ قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم: ﴿سَلامًا﴾ دل على فعل بوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿سَلامٌ﴾ بالرفع ؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) استأنس : ذهب توحشه ، واستأنس به وإليه ، والهمزة والسين والتاء للطلب فى الغالب. فقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور] أى: حتى تطلبوا الأنس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأنس وتعلموه [القاموس القويم ١/ ٣٧].

﴿ .. فَمَا لَبِثَ [1] أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود]

والعجل هو ولد البقر.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام فى أكثر من موضع من مواضع القرآن، لا بقصد التكرار، ولكن لأن كل لقطة فى أى موضع هى لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها، فإذا جُمعَتْ اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام فى شمول متكاملٍ.

وعلى سبيل المثال: يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التى أرادها لإبراهيم، فيقول سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ [2] عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ [3] قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا [4] قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ [5] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا [6] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأنعام]

---

(١) ما لبث أن جاء: أى: أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيوفه، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذى اتصف به إبراهيم عليه السلام. [القاموس القويم] بتصرف.

(٢) جَنَّ الشيء، يجنّه جناً: ستره، ويتضمن الفعل معنى كلمة «أظلم» لأن الظلام يستر كل شيء. وجَنّ الليل: أظلم. [القاموس القويم].

(٣) أفل: غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن].

(٤) بازغاً: طالعاً من الأفق منتشر الضوء. [كلمات القرآن].

(٥) فطر الشيء: شقه. وفطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم فهو فاطر أى ابتدأ خلق السموات والأرض. [القاموس القويم ٢/ ٨٤].

(٦) حنيفاً: مائلاً عن الباطل، مستقيماً على الحق. [لسان العرب].

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه فى موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام فخاطب عمه باحترام لمكانته التى تساوى منزلة الأب.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعى مع جمال العرض .

فأصرَّ العَمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام:

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر.

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم فى ربه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة[2] فى القول ناتجة عن عجز فى التعبير ، فليس

---

(١) حاجه : نازعه الحجة ، فهي مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ؛ ليغلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ .. (٨٠) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم ١/ ١٤٣].

(٢) السفسطة : المغالطة والتضليل بغرض إفحام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف.

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ..(٢٥٨)﴾
[البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتي في موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾
[الشعراء]

وفي هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه في سورة الأنبياء :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء]

هذه هى التربية اليقينية [1] التى أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصَّل إلى عبادة مَنْ خلَقه وخلَق الكون ، وهو الصانع الذى يضع قانون صيانة ما يصنع سبحانه وتعالى .

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : «الذى خلقنى يهدينى» لأن هذه دعوى؛ ستُدَّعى ، وسيضع الناس قوانين لأنفسهم ، فبيَّن الحق سبحانه أن الذى خلَق هو الذى يَهْدى .

وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق خالقهم فيه ، لكن الأمر الذى لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخَلْق يأتى به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن فى الأمر الآخر يأتى بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فقد يقال : «إن الطبيب هو الذى يشفينى» ، ولكن ذلك غير حقيقى؛ لأن الله سبحانه هو الذى يضع العلم ، وهو الذى خلق الداء وخلق الدواء [2] .

---

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذى لا شك فيه ، ويقال خبر يقين لا شك فيه ، ويكنى به عن الموت ؛ لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر] أى : الموت وقال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل] وأيقن الأمر وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [القاموس القويم ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه فى سننه (٣٤٣٩) .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [1] مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتى لتأكيد معنى من معانى الإيمان تأتى معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام، وإذا جُمعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص، فذلك لتثبيت فؤاده ﷺ :

﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن النبى ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث، فيذكّره الله سبحانه بما حدث للرسل عليهم السلام ويأتى باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ .. قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ [2] (٥٢) ﴾ [الحجر]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿ فَأَوْجَسَ [3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) ﴾ [الذاريات]

---

(١) القواعد: جمع قاعدة، وقاعدة البناء: أساسه الذى يقوم عليه. [القاموس القويم ٢/ ١٢٧].

(٢) وجل يوجل: فزع وخاف. قال تعالى: ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. (٥٣) ﴾ [الحجر] أى: لا تفزع ولا تخف، وهو وجل، أى: خائف. وقال تعالى: ﴿ .. قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..(٢) ﴾ [الأنفال].

(٣) أوجس فى نفسه: أضمر الخوف فى نفسه. قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ..(٢٨) ﴾ [الذاريات] أى: أحس الفزع والخوف. [القاموس القويم].

أى: أحس فى نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجيد [١] ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس فى نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام.

والشرع لا يتدخل فى الإدراك أو المواجيد ، ولكنه يتدخل فى النزوع ، إلا فى أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال فى المرأة.

لذلك أمر الشرع بغض البصر [٢] ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفورى؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك.

وهنا بيَّن الحق مواجيد إبراهيم عليه السلام حين قال:

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ .. (٧٠) ﴾ [هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال:

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت.

وقال الحق سبحانه:

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن [٣] جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وهو: العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة.

---

(١) المواجيد: جمع موجدة ، وهى ما يحس به القلب ويجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها.

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور].

(٣) أن: بمعنى حتى. قاله كبراء النحويين. حكاه القاضى ابن العربى. والمعنى: أى: ما أبطأ عن مجيئه بعجل. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٢).

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمُّونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة : ﴿ .. بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود]

أي : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم .

ومن عادة الكرام أن يُعجِّلوا بإكرام الضيف [1] ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً؛ أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك .

ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ [2] وَأَوْجَسَ [3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم في صحيحه (٤٧) .

(٢) نكره : استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . [القاموس القويم] تقول : نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته . راجع القرطبي (٤/ ٣٣٨٤) .

(٣) وجس وأوجس : فزع . وأوجس في نفسه : أضمر الخوف في نفسه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] أي : أحس الفزع والخوف . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه] . أي : أضمر الخوف في نفسه حين رأى أعمال السحرة . [القاموس القويم] .

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدَّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بيَّن ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (١) (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) ﴾ [الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ .. (٨١) ﴾ [هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ .. لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن الملك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكَّل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

---

(١) القانطون : الذين انقطع أملهم فى الخير أو يئسوا منه . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معدوم الأمان . [القاموس القويم] .

ألم يَقُلْ رسول الله ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تفلَّت [1] البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

فرددته خاسئاً » [2] .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجنى هى التى تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) تفلت : أى : تعرض لى فلتة أى : بغتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة ﴿نكِرَهُمْ﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة فى القرآن[1].

والشاعر يقول:

وَأَنْكَرَتْنِى وَمَا كَانَ الَّذِى نَكِرَتْ[2] مِنَ الحَوَادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات ، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة ، فلاحظوا ذلك ، وقالوا:

﴿.. لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا ، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت له: ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك[3] هنا ؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من فراستها[4] ، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة.

---

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ..۝٧٠﴾ [هود]. وقال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. ۝٤١﴾ [النمل]. أما أنكر ، فقد قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ .. ۝٣٦﴾ [الرعد] ، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينيك وأنكرت لما تراه بقلبك. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٤).

(٣) الكنف والكنفة: ناحية الشىء. وكنف الرجلُ الرجلَ جعله فى كنفه أى: فى حفظه وإعانته. وكنفت الرجل: حطته وصنته. [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسة: الفطنة فى النظر والتثبت والتأمل للشىء والبصر به. والتفرس: أن تتوسم أمراً ما فى شخص ما فيكون كما توسمت ، وهذا يكون بأحد أمرين:
١- ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.
٢- ما يتعلم بالدلائل والتجارب فتعرف بها أحوال الناس.
[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً [1] عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَامْرَأَتُهُ [2] قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف [3]، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً، وبشَّرتها الملائكة بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب.

فبعد دفع العذاب، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين، تأتى البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان [4] إليه، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

---

(١) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] أي: عليها خواتيم بأسماء المعذبين. وسوَّم على القوم: أغار عليهم فعاث فيهم بالإفساد والإهلاك. قال تعالى: ﴿.. يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [آل عمران] أي: معلمى أنفسهم وخيلهم بعلامات، أو مغيرين على الكفار. وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ..(١٤)﴾[آل عمران] أى: المرسلة للرعى، أو المعلمة بعلامات. وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩)﴾ [الفتح] أي: علامة إيمانهم نور في وجوههم. [القاموس القويم].

(٢) هي: سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة، بعد أن ولدت هاجر- لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام.

(٣) عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدى أتى رسول الله ﷺ فدعاه فى عرسه فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهى العروس. قال: تدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت تمرات من الليلة فى تور. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٨) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢).

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً: مال وأحب. قال تعالى: ﴿.. وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف]. أصبو: أميل. وصبا إلى الشيء: حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم].

عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً [1] . وفي هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة [2] .. (٧٢) ﴾ [النحل]

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) ﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالت البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأي أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هي الغلام ، وكان ذلك حلماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة [3] .

---

(١) قال مجاهد : كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا . أما إبراهيم فقيل : كان ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة سنة . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٨٨) .

(٢) حفدة : أولاد الأولاد . والحافد : العون والخادم ، وولد الولد ، جمعه : حَفَدٌ ، وحُفَّدٌ ، وحَفَدةٌ . وحفد في عمله : خف ونشط وأسرع فيه فهو حافد ، وهو حفيد ، وسمي العون أو الخادم أو ولد الولد حافداً لنشاطه وخفته في العون والخدمة . [القاموس القويم ١/ ١٦١] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه عن ذلك في سورة الذاريات : ﴿ .. وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) ﴾ [الذاريات] . صك الوجه : اللطم تعجباً وهو كناية عن الدهشة والتعجب [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه:

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى[1] شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

والشيء العجيب هو الذي يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النواميس[2] وخالق النواميس، الذي هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر:

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت:

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

وأيضاً سُمِّي النخل بالبعل، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه، وإنما يكتفي النخل بما يمتصه من الأرض، وما ينزل له من مطر السماء[3].

---

(١) البعل: الزوج والزوجة، فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث، وجمع البعل: بعولة. قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أي: وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعي، وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد. [القاموس القويم ١/ ٧٦].

سمي زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها. والمباعلة: المباشرة. والبعال: النكاح. تبعلت المرأة: أطاعت بعلها. وتبعلت له: تزينت. وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له. [لسان العرب].

(٢) النواميس: القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون.

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (مادة: ب ع ل): استبعل الموضع والنخل: صار بعلاً راسخ العروق في الماء مستغنياً عن السقي وعن إجراء الماء في نهر أو عاثور إليه. (العاثور: هو البئر)

وكذلك سُمِّى نوع من الفول «بالفول البعلى»، وهو الذى لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذى يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره فى أى شىء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شىء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشرى، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يخرق الناموس.. ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

والقصة التى حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت فى قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذى أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿ أَنَّىٰ[1] لَكِ هَٰذَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

فقالت مريم:

---

(١) أنّى: اسم استفهام بمعنى: من أين. وتأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] أى: كيف شئتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] وجاءت فى بعض الآيات صالحة للمعنيين مثل قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم صـ ٤١ جـ ١].

﴿ ..هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق - سبحانه - وخَلْقه.

ولذلك يأتى قول الحق عز وجل:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ..﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم:

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

فمن حقه أن يدعو :

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ..﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فأوحى له الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

[مريم]

أى: أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماه له أيضاً باسمٍ لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل[1] الحسن فى أن يعيش الابن.

---

(١) الفأل: ضد الطيرة ، والجمع: فئول وأفؤل. ومنها: التفاؤل ، وهو الاستبشار بالخير. [مختار القاموس] بتصرف.

لكن الحق سبحانه حين يسمى اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ، ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتى الموت؛ لذلك قُتل [١] يحيى وصار شهيداً ، والشهيد حيٌ عند ربه لا يأتى إليه موتٌ أبداً [٢].

وهذا عكس تسمية البشر؛ لأن الإنسان قد يسمى ابنه «سعيد» ويعيش الابن حياته فى منتهى الشقاء.

والشاعر يقول عن الإنسان الذى سمى ابنه «يحيى»:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هى التى نبهت إلى قضية الرزق من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن [٣] وأن زوجه عاقر.

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شىء أزلاً [٤] ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتى قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا فى قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى . فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها».

(٢) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران].

(٣) قال زكريا: ﴿ .. رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] وقال بعد تبشيره بيحيى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] قال مجاهد: عتياً يعنى : نحول العظم . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبق فيه لقاح ولا جماع».

(٤) الأزل: القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور: ومنه قولهم: هذا شىء أزلى ، أى: قديم . [لسان العرب].

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ..(٩) ﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرَّر ، فلا رادَّ لما أراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ ..هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثَّل لها الملَك بشراً ، وبشَّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسسها بشر - فيذكِّرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأنتها ؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى آمنة ، غير مرتاب فيها ولا متهمة .

والآية التى نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدَّره الله تعالى وأراده ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد[1] .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٣٨٩/٤) : «من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة» . بتصرف

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٣) ﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

أي: أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده، فلا حد لخيره وإحسانه، ولله تعالى مُطْلَقُ صفات المجد.

وكلمة «حميد» - في اللغة - من «فَعيل» وتَرِدُ على معنيين: إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا: «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه. وإما أن تكون بمعنى مفعول؛ كقولنا: «قتيل» بمعنى «مقتول».

وكلمة «حميد» هنا تأتي بالمعنيين معاً: «حامدٌ» و«محمودٌ»، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور»؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته. والله سبحانه «حميدٌ»؛ لأنه حامدٌ لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان، والله سبحانه «محمودٌ» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة.

والله سبحانه هو المجيد الذي يعطي قبل أن يُسأل.

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل، فأخرج كيساً ووضعه في يده، ثم رجع إلى أهله يبكي، فقالت له امرأته: وما يبكيك وقد أديت له حق سؤاله؟ قال: أنا أبكي لأني تركته ليسأل، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل.

والحق سبحانه وتعالى أعطانا، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل، ومثال ذلك: هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين في بطن أمه، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال.

والحق سبحانه وتعالى فى كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذه من الدين ، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيذ للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال: لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فَلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه فى تناول الطعام.

ويروى بعض العارفين [1] أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة: لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام. فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام: ثمنه أن تُسمُّوا الله أوله ، وتحمدوه آخره [2].

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت فى أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت: «الحمد لله» ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر]

وهكذا بيَّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هى مكلفة بتعذيب قوم لوط.

---

(١) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسى الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ ووفاته بمكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً. قال شعبة: ما رأيت أثبت فى الحديث منه. الأعلام للزركلى (٥/ ٧٧).

(٢) ذكر هذا الأثر السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥٠) وفى آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا: «لهذا اتخذك الله خليلاً». وعزاه لابن المنذر عن عمرو بن دينار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ[1] وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا[2] فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّة من مقابل؛ وتعطيه حُجَّة؛ لتصل إلى حق. والجدل يختلف عن المراء[3] فالمراء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق.

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون الجدال بالتي هي أحسن.

وهنا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط:

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً[4] عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤) ﴾ [الذاريات]

---

(١) راعه الشيء يروعه، روعاً: أصاب روعه، أي: قلبه. والروع: القلب - بضم الراء. وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. (٧٤) ﴾ [هود] أي: ذهب عنه الخوف والفزع. [القاموس القويم].

(٢) الجدل: المنازعة في الرأي وشدة الخصومة. قال تعالى: ﴿ .. وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) ﴾ [الكهف] أي: أكثر مبالغة في الخصومة وتأييداً للباطل بغير حق. [القاموس القويم].

(٣) ماراه يماريه مماراة ومراء: ناظره وجادله. قال تعالى: ﴿ .. فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف] أي: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً. وقال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم] أي: تتشكك. [القاموس القويم].

(٤) مسومة: أي: عليها خواتيم بأسماء المعذبين. قال تعالى: ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران] أي: المعلمة بعلامات، أو المرسلة للرعي. وقال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩) ﴾ [الفتح]، أي: علامة إيمانهم نور في وجوههم. [القاموس القويم].

ومجادلة سيدنا إبراهيم فى عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام؛ قلب رحيم.

ولذلك يأتى الحق سبحانه بالعلة فى المجادلة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ[1] مُّنِيبٌ[2] ﴾ (٧٥)

إذن: فالعلة في الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ، وأوَّاه ؛ أى: يتأوه من القلب ، والتأوه رقة فى القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعنى الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة.

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوُّهُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم.

وقال الحق سبحانه فى صفات إبراهيم أنه «منيب» أى: يرجع إلى الحكم وإلى الحق فى قضاياه .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى موضع آخر من كتابه العزيز:

---

(١) أواه: صيغة مبالغة ، أى: كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله فى العبادة ، والندم على الذنوب. [القاموس القويم].

(٢) أناب العبد إلى ربه: رجع إليه ، وتاب ، وترك الذنوب . قال تعالى: ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود] أى: إليه أتوب وأرجع ، ومنيب: اسم فاعل. وقال تعالى: ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ [ق] أى: بقلب راجع إلى الله. وجاء جمع «منيب» فى قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. (٣١) ﴾ [الروم] أى: راجعين إلى الله تائبين إليه ، أى: كونوا تائبين وكونوا متقين. [القاموس القويم].

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ [1] وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤) ﴾

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها والتى أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - فى الجدال ما قاله الحق سبحانه فى سورة العنكبوت :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبى من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿ .. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [2] (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به .
والموعدة : مصدر ميمى ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة] أى : عن وعد واحد فى مرة واحدة . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣].

(٢) من الغابرين : أى : من الباقين المتخلفين فى القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الذاهبين أى : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات وهلك . [القاموس القويم].

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين فى قرية واحدة ، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا فى سورة هود فى الآية التالية :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ[1] عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

وقول الملائكة :

﴿ يا إبراهيمُ أعْرِضْ عنْ هذا .. (٧٦) ﴾ [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنْتهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهدِّدوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿ إنَّهُ قدْ جاءَ أمْرُ ربِّكَ .. (٧٦) ﴾ [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿مُّنِيبٌ﴾ يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذ ، فلا بد أن يَتقبَّل - أمرَ الحق سبحانه :

﴿ .. وإنَّهُمْ آتيهِمْ عذابٌ غيْرُ مرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود]

أى : لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله ، وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب[2] ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود[3] .

---

(١) أعرضْ : فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء . وأعرض عن الشىء : ولّى منصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى : ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ٢/ ١٦] .

(٢) جاء هذا فى حق قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وذلك أن الله توعدهم بالمكث والتمتع فى دارهم ثلاثة أيام بعدها يأتيهم عذاب الله بسبب عقرهم الناقة . يقول سبحانه : ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود] .

(٣) غير مردود : أى : غير مصروف عنهم ولا مدفوع . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٩٢] .

ويُروى[1] أن إبراهيم عليه السلام في جداله قال للملائكة: إذا كان في قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم واحد هو لوط؟ فردَّت الملائكة:

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ .. (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

وانتهى الجدال، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[2] وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ[3] (٧٧) ﴾

أي: أن لوطاً شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء، وأي شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تَطُله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعاً» أي: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل.

وما الذي يسيء لوطاً في مجيء الملائكة؟

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان.

(٢) يقال: ضاق بالأمر ذرعاً، وذراعاً: أي: لم يُطقه ولم يَقْوَ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق. قال تعالى: ﴿ .. وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧) ﴾ [هود] أي: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه. [القاموس القويم]، وضاق بهم ذرعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) يوم عصيب: شديد شره وبلاؤه. [كلمات القرآن].

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال، فحين يُقال: «فلان ملاك»، أى: أن شكله جميل[1].

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هى إتيان الذكور، وامرأته تعلم هذه الآفة، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط، فهى ترحب بتلك الآفة.

ويُقال: إنها تنبهت لمجيء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل، وصفقت لعل القوم يتنبهون لها، فلم يلتفت لها أحد، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال[2].

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿.. هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب»[3]، ومنه «العُصْبَة»[4] وهم جماعة يتكاتفون على شيء، ويقوى الفرد بمجموعهم، وقد صدق ظن لوط.

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك:

---

(١) وهذا هو ما قالته صويحبات يوسف عليه السلام، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿.. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام، أنها كانت تدل قومها على أضياف لوط ليفعلوا معهم المنكر، وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. (١٠)﴾ [التحريم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب، وعصبصب: شديد، وقيل: هو الشديد الحر. وقال أبو العلاء: يوم عصبصب بارد ذو سحاب كثير، لا يظهر فيه من السماء شيء. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين. قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (١٤)﴾ [يوسف] قال الأخفش: والعصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ[1] وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ[2] ﴿٧٨﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾

أي: يسرعون إليه في تدافق، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة، يكون متردداً خائفاً، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط.

وكلمة «يهرعون» هي من الألفاظ العجيبة في اللغة العربية، وألفاظ اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل، كقولنا: «يضربُ زيدٌ عَمْراً» أي: أن الضارب هو «زيد» والمضروب هو «عمرو»، ونقول: «يُضْرَبُ عمرو» أي: أننا بنينا الفعل للمجهول، وسُمِّي عمرو «نائب فاعل».

أما في الفعل «يُهْرَعُ» فلا تجد أحداً يقول: «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل وليس نائب فاعل، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتي لنفسه بالجنون، أم أن الجنون هو الذي جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؛ ولذلك بُنِيت الكلمة للمجهول، ولكن ما يأتي بعدها يكون فاعلاً. وهذا من إعجاز البيان القرآني.

---

(١) الهرع: المشي في اضطراب وسرعة، وأقبل يهرع، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع: يرعد من ضعف، أو خوف. والمهروع: المجنون يصرع. [مختار القاموس].

(٢) الرشيد: من أسماء الله الحسنى، ولم يوصف الله به في القرآن. ورشد يرشد رشداً ورشاداً: أصاب وجه الصواب والخير والحق. والرشد: ضد الغي والضلال. والرشد: ضد السفه وسوء التدبير، وبلغ رشده: بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور. قال تعالى: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء] أي: هديناه إلى الحق والخير والصواب. وقال تعالى -ما جاء على لسان الكفار- : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود] وتصدهم الاستهزاء بنبي الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الحليم الرشيد، وهم يعتقدون عكس ذلك. [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف.

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبنى الفعل للمجهول، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

يبيِّن أنهم أقبلوا باندفاع، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تَهيُّب، باندفاع من نفسه ودَفْع من غيره، مثلما تقول: «سنوزع تموينا بالمجان»؛ هنا تجد الناس يتدافعون، كل منهم من تلقاء نفسه، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على دُرْبة بتلك الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم، ولا حياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة، فلن يخجل أحد من الآخر [1].

---

(١) وليس أدل على حبهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حيائهم من إتيانهم إياها أنهم كانوا يأتون بها فى ناديهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور، قال الحق: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] ومما كانوا يأتونه أيضاً فى مجالسهم: الضراط، والصفير، ولعب الحمام، والسخرية من أبناء السبيل. [القاموس القويم]، والدر المنثور للسيوطى [٦/٤٦١].

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - فى هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفى كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكَّر لوط - عليه السلام - فى أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ..(٧٨) ﴾ [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العُرْف فى أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ إحدى بناته لعُتبة بن أبى لهب ، وأخرى لأبى العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صُلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفى هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾ [هود]

وكلمة «ضيف»[1] - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

---

(١) ضافه يضيفه ضيفاً : نزل عنده فهو ضائف ، واسم المفعول : مضيف . والضيف : مصدر يوصف به بلفظه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾ [الحجر] أى : هؤلاء ضيفى فلا تفضحونى بالتعدى عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظ المفرد وهو لعدد من الملائكة . [القاموس القويم] .

أيضاًعلى الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول: «هذا ضيفى» ، وإن جاء اثنان تقول: «هذان ضيفى» ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفى » ، وإن كانتا امرأتين تقول: «هاتان ضيفى» ، وإن جاءت جماعة تقول: «هؤلاء ضيفى»[1].

والحق سبحانه يقول:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك فى اللغة مثل : كلمة «طفل»[2] فهى مفرد؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة «طفل» وُجِد لها جمع هو «أطفال» .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ[3] أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾ [الحجر].

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شيء ، والطفل من الإنسان: الولد ما دام صغيراً. ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع فى قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى: الأطفال ، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .. (٥) ﴾ [الحج] أى: أطفالاً. وجمع الطفل: أطفال ، وجاء فى القرآن: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا .. (٥٩) ﴾ [النور] [القاموس القويم ١/ ٤٠٣] بتصرف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن.

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ [1] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه [2] في ضيفه، والخزى فضيحة أمام النفس وأمام الناس.

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيىء ما لم يره أحد، أما أن يراه الناس، ففى هذا فضح له؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس، والهوان أن يكون العمل السيىء بينه وبين نفسه.

ويتساءل لوط عليه السلام:

﴿ .. أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

أى: ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة [3]، يمنع هذه المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) الإرب: الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها وكذلك الأربة والمأرب. قال تعالى: ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى: غير ذوى الحاجة إلى النساء، أى: الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم. وقوله: ﴿ .. وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك.

(٢) أخزاه فلان: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. (١٩٢) ﴾ [آل عمران] ومن دعاء القرآن: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾ [هود] أى: لا تهينونى ولا تفضحونى بإهانة ضيفى، وحذفت ياء المتكلم من كلمة «تخزونى» رسماً ونطقاً وتخفيفاً. [القاموس القويم ١/ ١٩٢].

(٣) ومن معانى الرشد أيضاً أن يكون شديداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً مستقيماً مرشداً حكيماً. انظر تفسير القرطبى [٤/ ٣٣٩٦].

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ[1] مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ[2] ﴿٧٩﴾ ﴾

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا .

وكان هذا يعني الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال في الجمال .

ويأتي الحق سبحانه برد لوط عليه السلام :

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي[3] إِلَىٰ رُكْنٍ[4] شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

وساعة تقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمني ، أي : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : «لو أن زيداً عندك لجئت» ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : «لو أن لي بكم قوة لفعلت كذا وكذا» .

---

(١) اختلف العلماء في المقصود بالبنات : هل هن بنات لوط فعلاً من صلبه ؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه ، فالنبي أب لأمته نساء ورجالاً . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٣) والقرطبي (٤/ ٣٣٩٥) والدر المنثور للسيوطي (٤/ ٤٥٧) .

(٢) قال ابن كثير : «أي : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن [illegible] نشتهيهن [illegible] . [illegible] تفسيره (٤/ ٣٣٩٧) : «أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم ، وكا[illegible] سنتهم أن من رُدَّ في خطبة امرأة [illegible] تحل له أبداً» .

(٣) أوى المكان ، وأوى إليه يأوي أوياً : نزله والتجأ إليه . [illegible] تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] أي : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم]

(٤) ركن الشيء : جانبه الأقوى . وقوله تعالى : ﴿ .. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] أي : ألجأ إلى حصن قوي يحميني ، أو إلى رجل قوي يحميني وينصرني عليكم كأنه ركن ممتنع حصين . [القاموس القويم ١/ ٢٧٦] .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له: إن ركنك لشديد[1]؛ ولذلك قال:

﴿.. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود]

والشيء الشديد هو المتجمِّع تجمُّعاً يصعب فَصْلُه ، أو المختلط اختلاطاً بمزجٍ يصعب تحلُّله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء؛ فإما أن تجمع أشياء أجناسها منفصلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمَّى خلطاً ، وهناك ما يُسمَّى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء الممتزجة ببعضها .

ومثال ذلك: أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض؛ لأنك جمعتهما على استقلال. ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حَلُّه .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في مَنَعةٍ من قومه ، أهل «سدوم» ويقال : إنها خمس قرى قريبة من «حمص» .

وقد تعجَّب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخاري- :

«رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»[2] .

فلهوْل ما عاني لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبري عن وهب بن منبه . وركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٠٢٦) من حديث أبي هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام:

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ[1] مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم.

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ..﴿٨١﴾ ﴾ فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى : اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال[2] بقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

---

(١) القطع والقطعة : الجزء المقطوع. قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ..﴿٨١﴾ ﴾[هود] والقطع : جمع «قطعة». وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ..﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومظلماً : حال من الليل ، وقرىء «قطعاً» -بكسر القاف وسكون الطاء- أى : جزءاً ، وتعرب مظلماً - على هذه القراءة - نعتاً لقوله : «قطعاً» أو حالاً من الليل. [القاموس القويم ٢/ ١٢٥].

(٢) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النازعات] أى : عذبه الله عذاباً شديداً بعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة. وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة] أى : جعلها الله - بالعذاب الشديد - عبرة لأهل زمانها ، ولمن يأتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان. وقال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ..﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم].

لذلك قالوا :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. (٨١) ﴾ [هود]

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ[1] مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود]

والالتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل . فهل المقصود هو الالتفات الحسي أم الالتفات المعنوي ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوي ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسي .

وتوصي الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

---

(١) التفت الرجل : أمال وجهه ونظر يمنة أو يسرة ، أو انحرف ورجع عن وجهته . قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود] أي : لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا إلى الخلف ، فيرجع وينصرف عن السير معك . [القاموس القويم ٢/١٩٦] .

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت: سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت: وا قوماه ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حددته الملائكة وهو الصبح:

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ[1] أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[2] مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس: قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «ضعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم».

وقوله تعالى:

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. (٨٢) ﴾ [هود]

أى: انقلبت انقلاباً تاماً[3].

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠): «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع».

(٢) السجيل: الطين المتحجر. قال تعالى: ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود]. [القاموس القويم ١/ ٣٠٤].

(٣) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تتكفئ لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة».

ويقول القرآن في موضع آخر :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ [1] أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، أى: قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك [2] إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة.

كذلك المؤتفكة، أى: القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع.

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجَّر.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى [3] ﴿ ..حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . أى: يتتابع في نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

---

(١) المؤتفكة : القرى المنقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة] هى المخسوفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] أى: أسقطها وخسفها . [القاموس القويم].

(٢) الإفك: الكذب ، وأفَّاك : صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء]. وقال فى سحرة فرعون: ﴿ .. فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف] . أى: ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيُّل وإيهام ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فالحبل حبل والثعبان ثعبان ، ولكن الساحر يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم].

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وكلمة «مسوَّمة» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذاك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتَّبة ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ .. سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ[1] ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الفيل]

وينُهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تتابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) نضد الشىء ينضده : جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى: منظم . قال تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى : مرصوص بنظام . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى : ﴿ .. مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أى: متتابع منتظم السقوط عليهم . [القاموس القويم] .

وتحكى القصص المعارك التى قامت بين كل رسول مُؤيَّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسماء هى التى تتدخل لتأديب المخالفين.

والحق سبحانه يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ [1] ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [2] ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ [3] ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ [4] عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [5] ⑭ ﴾ [الفجر]

---

(١) إرم: اسم قبيلة منها «عاد» ، وقيل: هى مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندى فى كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية. وقوله تعالى: ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية. [القاموس القويم ١/ ١٨].

(٢) جابه يجوبه جوباً: قطعه. وقوله: ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ ﴾ [الفجر] أى: قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم، وحذفت ياء «الوادى» فى رسم المصحف. [القاموس القويم ١/ ١٣٥].

(٣) الأوتاد: جمع وتد. والوتد: قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت فى الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ؛ لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها. قال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ ﴾ [النبأ] وقال أيضاً: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ ﴾ [الفجر] قيل: هم الجنود الذين يثبتون ملكه. وقيل: إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون ، تشبه الجبال. [القاموس القويم ٢/ ٣١٨].

(٤) السوط: الجلد الذى يضرب به ، وسُمِّى سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم. وقوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صباً فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه. أو السوط: الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، فصبَّ عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعة. [القاموس القويم].

(٥) المرصد: اسم مكان الرصد ؛ كالمرصاد. قال تعالى: ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. ⑤ ﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ㉑ ﴾ [النبأ] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ ﴾ [الفجر] والمراد: أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها. [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف.

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل واحد من أمته ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبى الذى يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [2] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

---

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] . أى : أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] .

(٢) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم] .

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: فُوِّضَتْ فى نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذى يليه.

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع»[1].

وفُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ فى أن تقف من الكافرين موقف تأديب، لا لتفرض الدين ولكن لتحمى حق اختيار الدين، فلم يحدث أن رُفِع سيفٌ فى الإسلام ليفرض ديناً؛ بل رفع السيف ليحمى حرية اختيار الإنسان للدين.

يقول سبحانه:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان، وهذا تصعيب للدخول فى الإسلام، فمن أين يأتى ادعاء فرض الدين على المخالفين؟!

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام، والإيمان الثانى أن يبلغ الدعوة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[2].

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط؟ لا، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة، ويتساح

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (٢٩٣) وقال: لا أصل له. قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦): قال ابن حجر والزركشى: لا أصل له. وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٨٣).
ويؤخذ من الحديث أن نوقر من العلماء الصدق والأمانة فى البلاغ والذكاء فى العرض.

بالدعوة فى الأرض ليعلّم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين.

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين.

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة، فصرخ بالدعوة، لا فى آذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة، ولكن فى آذان سادة الجزيرة، حتى لا يقال: إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به، ولم يجرؤ على السادة، وهم قريش، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام.

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت.

إذن: فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدّعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بإلههم من الحجر؛ ليضعوه فى البيت؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت.

إذن: فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة، وسفّه[1] أحلامهم، ولم يبالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة.

---

(١) سفهت الرجل: أى: رميته بالسفه، ونسبته إلى الطيش والجهل، وسفه نفسه: حملها على الجهل والطيش فكأنه جعل نفسه سفيهًا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ.. (١٣٠)﴾ [البقرة]. وسفه أحلامهم: اتهمهم بالسفه والجهل. والأحلام -هنا- هى العقول [القاموس القويم ١/ ٣١٧].

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش فى مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد.

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة ؛ فكأن الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته.

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيَّن لهم أن المكان الذى قُلِبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم.

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجىء ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام[1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات].

إذن: نهى قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح.

بل هى طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطة وعبرة ؛حتى لا تقعوا فى ظلم آخر.

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ[3] جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى.

---

(١) الريع - بكسر الراء - : الجبل ، أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع . قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم].

(٢) ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] أى: أبنية عالية وقصوراً متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ، ولستم بخالدين . [القاموس القويم].

(٣) بطش به بطشاً: أخذه بعنف وشدة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج] . والجبر: القهر . وجبره: قهره وأكرهه على أمر . والجبار: صيغة مبالغة . والجبار من الناس: العاتى المتمرد المتسلط . وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى: ﴿ .. وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم] . [القاموس القويم ١ / ٧٢] بتصرف.

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[1] (٥) ﴾ [الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحوَّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

---

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل : تضييع وإبطال وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (آجر) . كعصف مأكول : كتبن أكلته الدواب فراثته . [كلمات القرآن - للشيخ حسنين مخلوف] .

﴿ لإِيلافِ [1] قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهى سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

أو: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذى نزل بهؤلاء القوم المشركين، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه فى مكانه الذى يكون فيه.

والسطحيُّون - فى اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة فى اللغة، ويقولون: كيف يقول الله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هى» مؤنثة، وتقتضى أن يقول: «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد»، أى: أن يكون القول: «وما هى من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة؛ لأن «فعيل» إن جاءت بمعنى «مفعول»، فهنا يستوى المذكر والمؤنث.

---

(١) لإيلاف قريش: اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[1] ④ ﴾ [التحريم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ[2] مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ⑤⑥ ﴾ [الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذى جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى هذه السورة لموكب الرسل ، فيأتى بقصة شعيب ﷺ ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ[3] أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ[4] وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ[5] ⑧④ ﴾

---

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ②② ﴾ [سبأ] وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ⑧⑧ ﴾ [الإسراء] أى : معيناً مساعداً . وقال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ⑤⑤ ﴾ [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله - وتعالى الله عما يفعلون . [القاموس القويم ١ / ٤١٨] .

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قرباً : دنا منه فهو قريب قرب مسافة ، فيستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ⑤⑥ ﴾ [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس القويم ٢ / ١٠٨] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٤٠٤) : «فى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقيل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .
الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا يتصرف مدين لأنه اسم مدينة» .

(٤) كال القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. ③⑤ ﴾ [الإسراء] والكيل : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال يستخدم لكيل الحبوب . وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فالله سبحانه وتعالى ينهى عن أن ينقص المؤمن شيئاً مما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم ٢ / ١٨٢] بتصرف . وجمع مكيال : مكاييل . وجمع كيل : أكيال . والكيلة : وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع : كيلات . [المعجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التى تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التى أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان.

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

والمقصود « أسأل أهل القرية »[1] .

إذن : فمرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين.

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك فى كل الرسالات.

والحق سبحانه يقول :

﴿ شَرَعَ[2] لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى[3] إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فقمة الدين هى قضية العقيدة الإيمانية ، وهى عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

---

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .

(٢) شرع الشيء : بينه وأوضحه . والشرعة والشريعة : ما شرعه الله وبيَّنه من العقائد والأحكام . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الاجتباء : الاختيار والاستخلاص والاصطفاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧] .

و «لا تفعل» فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذى لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم.

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفى فى القرآن مُصَدَّراً بقوله تعالى:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صياماً [1] ، أم قصاصاً [2] ، ففى كل تكليف يُصدَّر بهذا القول ، لا بد أن يأتى المعنى: يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع منى التكليف.

ولذلك أقول دائماً:

إن علة كل تكليف هى الإيمان بالمكلِّف ، ولا داعى للبحث عن علة أخرى.

فمثلاً حين يُقَال: إن علة الوضوء النظافة ، نقول: وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا فى التيمم [3].

إذن: فالمقصد هو أن نتهيأ للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى.

وإياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة].

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة].

(٣) التيمم لغة: القصد. وشرعاً: هو طهارة ترابية تقوم مقام المائية عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسعة أشخاص: فاقد الماء الكافى ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو زيادته ، وتأخر برء ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذى بال. الشرح الصغير للدرديرى جـ ١ يقول سبحانه: ﴿ .. وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ [النساء].

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبَّق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم فى القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى فى تكليفه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة فى الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هى الأركان الأساسية [1] التى يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف [2] ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلتْ صنعة من صانع فعلى ولى الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦) .

(٢) التكاليف تنحصر فى الأمر والنهى . والأمر نأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعبدياً أو اجتماعياً ، والنهى نأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهى يكون للمجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت] .

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب ﷺ:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤)﴾ [هود]

أى: إياك أن تأخذ حكماً تكليفياً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وإياك أن تستدرك[1] من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى، وتظلم نفسك وتقول: «لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم، ولنأتى لأنفسنا بحكم جديد»[2].

إياك أن تستدرك حكماً على الله. افهم الحكم أولاً، فإن جاء حكماً محكماً فخذه، وإنْ كان غير محكم بأن جاء مجملاً، أو غير مبيَّن، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ»[3].

وبعد أن دعا شعيب - ﷺ - آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده، وهذا هو الأمر المشترك بين جميع الرسل -عليهم السلام- تأتى الأحكام الأخرى،

---

(١) استدرك ما فات: تداركه. واستدرك الشىء بالشىء: تداركه به. واستدرك عليه القول: أصلح خطأه، أو أكمل نقصه، أو أزال عنه لبساً. [المعجم الوسيط].

(٢) يقول الحق: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) كتاب الأقضية من حديث معاذ بن جبل.

فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص فى الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر.

لأن العالم القديم كان عالم انعزال، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة فى مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة فى مكان آخر.

وكل رسول يأتى ليعالج عيباً محدداً فى المكان الذى أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيمانى ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث فى عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا فى نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل.

وكانت خيبة آل مدين هى عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيسة التطفيف [1] فى الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون [2] ، لأنه لو شاء لقال: «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

(١) طفف الكيل: طول أعلاه، وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين] فهم مطففون فى الحالتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً. [القاموس القويم ١/ ٤٠٣].

(٢) المكيل: اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شىء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره. واسم الفاعل: «كائل». والموزون: اسم مفعول من (وزن) وهو كل شىء يوزن بالميزان. واسم الفاعل: «وازن».

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذى حق حقه ، أن يأخذ المشترى حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه فى الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشترى معاً[1] .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شىء بشىء ، فإن كان فى الخفة والثقل ؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شىء بشىء فى الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور فى الكيل والميزان ، وأى تعديل شىء بشىء يحتاج إلى ما يناسبه ؛ فالقماش مثلاً - يتم تعديله بالمتر ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أى : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعنى قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم فى الآخر .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذى حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمرأ أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ لَزهِدَ من أُكلتْ حقوقهم فى العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطىء فى العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذى حق حقه يزيد من جودة الأداء فى العمل .

---

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعلينا أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكنزه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر في ذلك - فالذي يبني عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - وسينتفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء مما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل.

إذن: فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[1] .

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر[2] غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة[3] - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد آثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى[4] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيري في زوائده: إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان. وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٤٢) من حديث أبي هريرة. فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخاري عن أبي هريرة - كتاب البيوع.

(٢) آثره: اختاره وفضَّله. قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. (٩١)﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)﴾ [الأعلى] أي: تفضلونها على الآخرة. وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر] أي: يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماً ومروءة وتقوى. [القاموس القويم ١/ ٧].

(٣) الخصاصة: الفقر وسوء الحال والحاجة. وأصل ذلك من الفرجة أو الخلة لأن الشيء إذا انفرج وهَى واختل [لسان العرب: مادة خصص].

(٤) يقول رب العزة سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهى النفعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع فى المجتمع.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها عرفنا أن شعيباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ .. (٨٤) ﴾ [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشترى إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذى عندكم ، وليأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحياته.

وإن اشتغل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك فى كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب ﷺ: ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير؟

ثم يقول محذراً :

﴿ .. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ[1] يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشترى ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك.

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشترى ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشترى فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) : «اختُلف فى ذلك العذاب فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة. وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا. وقيل : غلاء السعر».

يحاول المشترى أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة فى البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأى شىء مهما كَثُر ، فهو موقوت بعمر الإنسان فى الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذى يغش ويخدع إنما يُعرِّض نفسه لعذاب الله سبحانه فى الآخرة [1] ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلِّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة فى الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهى فى آخرة غير زائلة .

والعذاب فى الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذَّب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت فى الدنيا بإمكانك أن تحتال فى النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك فى الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة [2] ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ [3] ﴿٨٥﴾ ﴾

---

(١) وهناك عذاب آخر فى الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : «ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء» .

(٢) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التي تخللت القلب، وجمعها : خلال . [القاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ .. مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل، بلا زيادة ولا نقصان .
لا تبخسوا : لا تنقصوا .
لا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد . [كلمات القرآن] . والعثو فى الأرض هو الإتلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشترى.

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾[1] [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك: أنت مأمون فزنْ أنت لنفسك أو كِلْ أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقك ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفى مثل هذا بؤس للاثنين.

وهنا يقول شعيب ﷺ :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

---

(١) ويل: عذاب أو هلاك أو واد فى جهنم. للمطففين: المنقصين فى الكيل أو الوزن.
اكتالوا: اشتروا بالكيل، ومثله الوزن. يستوفون: يأخذون حقهم كاملاً.
كالوهم: أعطوا غيرهم الوزن. وزنوهم: أعطوا غيرهم الوزن.
يخسرون: ينقصون الكيل والوزن. [كلمات القرآن] بتصرف.

وهذا كلام عام لا ينحصر فى مكيل أو موزون ، فقد يأتى مشترٍ ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطفَ ما ليس حقّاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى :أخذ غير حق بوسائل متعددة.

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختلسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هى حق لمن يطلبها.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ..(٨٥) ﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة.

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ.

وكلمة «أشياء» مفردها : «شيء» ، ويقولون عن الشيء: «جنس الأجناس» فالثمرة يقال لها: «شيء» ، وكل الثمر يقال له: «شيء».

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أى شيء مهما كان قليلاً.

ونحن نلحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة آحاداً. أى: لا تبخس الفرد شيئاً ، وإنْ قَلَّ.

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطيَّة [1] من خان [2] ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذى يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؟ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصلَ بها إلى مكان فى اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحَث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس فى ذلك الزمان يجففون الحبر الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوِّمه [3] فقال صاحب الجدار : والله لورَعِك [4] لا أقوِّم ، أى : أنه قد تسامح فى هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) ﴾ [هود]

---

(١) المطية من الدواب : ما يُمتطى أى : يُركَب [تذكر وتؤنث] فالبعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطيٌّ . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : المتجر ، أو الحانوت ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهى كلمة معربة . [المعجم الوسيط] .

(٣) التقويم هنا معناه : تقدير ثمنه ليشتريه منه . والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : كم قامت ناقتك؟ أى : كم بلغت؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : اتقاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بمن الله وإنفاق المال فى الحق ، وترك الكثير والمحافظة على التكاليف والاستقامة . الغنية للجيلانى صـ ١٣٤ بتصرف .

وكلمة عثا[1]، يَعْثى ، ويعثو ، وعثى. يعثى ؛ كلها تعنى: زاول فساداً ، أي: أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه.

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد ، ولو طبَّق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيرهُ غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ بَقِيَّتُ[2] اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ[3] ﴿٨٦﴾ ﴾

أى: ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه.

وأنت تسمع من يقول: «فلان هذا إنما يحيا فى بركة» ، أى: أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربى أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنياً من غير حلال ، لكنه يحيا فى ضنك[4] العيش.

---

(١) عثا يعثو ويعثى ، وعثى يعثى ، عثواً وعثياً: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعثوا. [القاموس القويم ٢/ ٧].

(٢) البقية: ما بقى من الشيء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس. وتطلق البقية على الشيء الباقى. قال تعالى: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود] أى: ما أبقاه الله وادخره لكم من الثواب خير. [القاموس القويم ١/ ٧٩].

(٣) حفيظ: رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم. [كلمات القرآن] بتصرف.

(٤) ضنك الشيء: ضاق. والضنك: الضيق من كل شيء وهو مصدر يوصف به؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى: ضيقة غير متسعة. [القاموس القويم ١/ ٣٩٥].

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرّ عليه مصارف سوء متعددة.

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً[1] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء.

وسبق أن قلنا قديماً : فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس فى غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء[2] .

ومن يُربُّون أولادهم من سُحت[3] أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً. فنجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه] .

(٣) السحت : المال الذى يكتسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالغش والخداع . قال تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ .. (٤٢) ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ .. (٦٢) ﴾ [المائدة] . [القاموس القويم] بتصرف.

الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح. أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شىء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيُّوم ؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن شعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين: أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال:

﴿ بَقِيَّتُ[1] اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة.

وهذه هى فائدة الإيمان: ما يأمر به وما ينهى عنه.

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية.

---

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤١٣»: «مدت تاؤه، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك».

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة فى المجتمع كله ، والمجتمع إن لم تُصَنْ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس ليشفيهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ[1] (٨٧) ﴾

---

(١) الحليم : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٧٠] .

أى: أيأمرك إلهك ودينك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول: لأن الإسلام بُنِىَ على خمس [1]: أولها شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكّى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين» [2] ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله.

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛ [3] فله أن يصلى برموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فَلْيُجْرِ الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسايفة [4]

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦).

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/ ١٤٧) : «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر». وقال الملا على القارى فى «الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨)» : «قال ابن الصلاح فى «مشكل الوسيط»: إنه غير معروف. وقال النووى فى التنقيح: إنه منكر باطل. لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩).

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الفرض يجوز له أن يصلى قاعداً، فإن لم يستطع القعود صلّى على جنبه يومىء بالركوع والسجود. راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤).

(٤) إذا اشتد الخوف والتحمت الصفوف صلّى كل واحد حسب استطاعته راجلاً أو راكباً مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها يومىء بالركوع والسجود كيفما أمكن، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه. [فقه السنة - ١ / ٢١٠].

فالإنسان المسلم يصلى صلاة الخوف [1] .

إذن : فالصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً ، ويُكرَّر فى اليوم خمس مرات ، وقد أعطاها الحق سبحانه فى التشريع ما يناسبها من الأهمية .

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحى من الله سبحانه وتعالى ، فجبريل عليه السلام يحمل الوحى إلى الرسول ﷺ ؛ ويبلغنا الرسول ﷺ إياه ، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبى ﷺ فى أثناء وجوده فى الملأ الأعلى ؛ عند سدرة المنتهى [2] ، وذلك لفرط أهميتها .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل ؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقترح بخصوصه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قادماً من أعلى المستويات ؛ فهو يستدعى الموظف المختص ؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها ؛ وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية ، فما بالنا بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول ؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة ؛ لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد ؛ ولا مناص [3] منه .

---

(١) ثبتت صلاة الخوف بكتاب الله ، فقال : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. (١٠٢) ﴾ [النساء] قال الإمام أحمد : «ثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز» . وذكر الشيخ السيد سابق ست كيفيات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/ ٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٢ - ٣٣٢) .

(٢) فرضت الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها ، ولأنها جماع العبادات ، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والحج ، لذلك لم تسقط عن المكلف . من مفهوم خواطر الشيخ .

(٣) لا مناص : لا بد ولا مهرب . وناصَ ، ينوص : فرَّ هارباً . وناص عن المكروه : نجا منه وخلص .
قال تعالى : ﴿ .. وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) ﴾ [ص] أى : ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم ، أو ليس الحين حين نجاة وخلوص من العذاب . [القاموس القويم] بتصرف .

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها فى كل صلاة.

وفى الزكاة تضحّى ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت فى بطن أمك ؛ ولابد أن تزكّى من مالك ؛ والمال لا يأتى إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت فى الصلاة تضحّى بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة.

وفى الصيام أنت تمتنع عن شهوتى البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما فى الصلاة فأنت تصوم عن شهوتى الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك فى الصيام.

وفى الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت فى كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام.

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام فى الصلاة.

وأهل مدين هنا - فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ.

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام:

﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧)﴾ [هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - ككفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ[1] وَالْمُنكَرِ ..(٤٥)﴾ [العنكبوت]

إذن: فللصلاة[2] أمر، وللصلاة نهى، وما دام قد ثبت لشىء حكم؛ يثبت له مقابله، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فأنا أثق فى أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة؟[3]

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل فى الجهات إنما يحل مشاكل متعددة؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى.

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير[4].

ومثال آخر: نجده فى قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩)﴾ [الدخان]

---

(١) الفحشاء: الفحش هو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ..(٢٦٨)﴾ [البقرة] أى: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل. والفاحشة: الفعلة القبيحة. والفواحش: الأمور القبيحة. وقد فَحَشَ وفَحُشَ فُحْشاً فهو فاحش: أى: جاوز الحد، وفعل القبيح. [القاموس القويم ٢/ ٧٣].

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الآمر، وهى تشتمل على آيات القرآن الكريم، والآيات إما آيات آمرة، وإما آيات ناهية، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب فى استجابة خاشعة، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً أو نهياً؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٥٤) وعزاه ابن كثير لابن أبى حاتم فى تفسيره، وذكره الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨) وقال: فيه ليث بن أبى سليم ثقة مدلس».

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن فلاناً يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «إنه سينهاه ما تقول». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤٧) والبزار (١/ ٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح».

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففى المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين [1] ؛ لأن السموات والأرض من المسخّرات للتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبِّحة، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن [3] مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..(٤٤)﴾ [الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبكِ على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلَّ لنا الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض، وموضع

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩)﴾ [الدخان] - وذكر - أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم » .

(٢) الأمانة : مصدر أمنَ فهو أمين ، وتطلق الأمانة على الوديعة نفسها . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا .. (٥٨)﴾ [النساء] أى : الودائع . وقال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواه وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١/ ٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى « ما » أو « ليس » . أى : ما من شىء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض ؛ فمصلاه، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله »[1].

لأن موضعه الذي كان يصلي فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلي فيه، وأما موضعه الذي كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح.

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهي رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين، وهي الأمر بالإيمان الحق، لأن الإيمان المقلد لا نفع له.

إذن: فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا:

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألا يبخسوا[2] الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم، وألا يعثوا[3] في الأرض مفسدين.

وقالوا: أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبي حاتم أن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً رضي الله عنه: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصلَّى في الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان].

(٢) بخسه حقه بخساً: نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]. [القاموس القويم ١/ ٥٦].

(٣) عثا يعثو: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة]، فكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسرونه، ويبخسون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد في الأرض.

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ وستصطدم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم: ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود]

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ..﴿٨٧﴾ ﴾ [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافقي المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ [1] عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا [2] ..﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا: ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛ فقالوا تهكماً منه وممن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [3] ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول: «لا تستعن بفلان لأنه حنبلي» .

---

(١) المقصود بهم: المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان زعيم هذه المقالة هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من مُقتضَى هذه المؤاخاة أن يشارك المهاجر الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المهاجري . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٠) .

(٢) أي: حتى ينفضّوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال: انفضّ الناس: تفرقوا وانصرفوا . [راجع القاموس القويم ٢/ ٨٤] .

(٣) قال مجاهد: أي: إنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة: عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم . انظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٩٦) .

هم - إذن - قد قالوا:

﴿.. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾ [هود]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم.

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حقٌّ ؛ ويقوله من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزْء والسخرية.

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة:

﴿ذُقْ [1] إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ [2] .. (٢٩)﴾ [الكهف]

---

(١) ذاق الشيء يذوقه ذوقاً وذواقاً: أدرك طعمه في فمه وتستعمل مجازاً في الإحساس العام، كقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ .. (٢٢)﴾ [الأعراف]. القاموس القويم صـ ٢٤٧ جـ ١.

(٢) استغاث: طلب الغوث والمساعدة؛ واستغاث فلاناً واستغاث به: استنصره واستعان به. قال تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥)﴾ [القصص] أي: استنصره. وغاثه الله يغوثه غوثاً: نصره وأعانه. وأغاثه، وغاثه: نصره وأعانه. والمهل (بضم الميم): المعدن المذاب، والقطران، وعكر الزيت المغلي، والقيح. قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف]. [القاموس القويم ٢/ ٦٢].

وفى كُلٍّ من القولين تهكم وسخرية، وكذلك قولهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم:

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ[1] الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

يعنى التساؤل: كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تتورط وتقول لنا:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف فى المال، والعلة التى برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد ؛ فكيف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جلَّ شأنه :

---

(١) الحلم : الأناة وضبط النفس والعقل ، فهو حليم أى : متأنٍّ عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق والطيش .

والحليم : من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى: ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾ [هود] أما قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٦٩ ، ١٧٠]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ[1] مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ[2] أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[3] ﴿٨٨﴾ ﴾

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذى لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمور حياته ميسورة[4] .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود]

أى : أننى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه ؛ لأنى لا أعبد غير الله .

---

(١) بينة : حجة وبرهان . وبان الشىء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن ، وهى بينة ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر قوله تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها . أو هى مبينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى «ما» أو «لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا الإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٤٠٨/٤) .

وكلمة «أخالف»[1] تدل على اتجاهين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا.

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة.

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً ؛ فليس في نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه.

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم[2] الفساد ، ويأتي النبي المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبي المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنَجْوة[3] ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه.

---

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود] المعنى : لست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم ارتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ .. (٨٨) ﴾ [هود] في موضع المفعول لأريد ، أي : ما أريد مخالفتكم ، أي أكون خلفاً منكم ، ويكون خالف بمعنى خلف نحو جاوز وجاز وتتعلق إلى ما خالفتكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه (تفسير البحر المحيط ٦/ ١٩٨ باختصار) .

(٢) طم الشيء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر . وجاء السيل فطم كل شيء أي : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد وينتشر ويصبح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد . وانظر [لسان العرب - مادة : طمم].

(٣) النجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل . أي : أنه مكان مرتفع . والمقصود : أنك بعيد عما تأمر به . [وانظر اللسان مادة : نجو].

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أيَّ خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله [1] .

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ .. (٥٦) ﴾ [هود]

---

(١) عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٤) وأبو داود في سننه (٤٩٨٠) والحاكم في مستدركه (٣/ ٤٦٢) . قال النووي في الأذكار (ص ٣١٨) : «هذا إرشاد إلى الأدب ، وذلك أن الواو للجمع والتشريك ، وثم للعطف والتراخي ، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه» .

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين [١] : «اللهم إنى أستغفرك من كل عملٍ قصدتُ به وجهك فخالفني فيه ما ليس لك» .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب ﷺ : ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ [٢] شِقَاقِىٓ [٣] أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول لهم شعيب ﷺ : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لى على أن تجرموا جُرْماً ؛ يكون سبباً فى أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

---

(١) هو : مطرف بن عبد الله بن الشخير ، كان يلبس الصوف و يجلس مع المساكين . وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر فى حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم (ص٢٧) . وقد أورداه تاماً والعطف فيه من تمام الدعاء ، وليس عطفاً مغايراً .

(٢) جرم الشيء جرماً : قطعه ، وغلب على فعل الشر . يقال : جَرَمَ : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وَجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً ، فالعدل أقرب للتقوى .
وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الجرم والشر . وقرىء (ولا يُجْرِمَنَّكُم) - بضم الياء من الرباعى المزيد بالهمزة - أى : لا يحملنكم على فعل الجرم والظلم . [القاموس القويم] .

(٣) شاقه مشاقة وشقاقاً : خالفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ .. ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة] أى : فى خلاف ونزاع . [القاموس القويم ١/ ٣٥٣] .

الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالغرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة [1] ؛ فاحذروا ذلك.

وشعيب ﷺ ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكنون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التى عبدها آباؤهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم؛ وسبق أن عذَّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - ﷺ - بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط.

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ [2] ﴿٩٠﴾ ﴾

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصى - حتى المُصِرِّ على شيء من المعصية - باب التوبة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط [3] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة [4]» [5].

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

(٢) الودود : من أسماء الله الحسنى، وهو صيغة مبالغة أى : كثير الود. [القاموس القويم ٢/٣٢٦] والود : الحب، قال تعالى : ﴿ .. سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] أى : محبة منه تعالى ومحبة فى قلوب الناس.

(٣) سقط على بعيره : أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به، ومنه قولهم : على الخبير سقطت. قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١١/ ١٠٨).

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس. وهى : القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أو فطمت وعزلت. [لسان العرب].

(٥) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعود . واللفظ للبخارى .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله ؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا .

لابد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٩٠) ﴾ [هود]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعانى : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفته «الودود» ؛ وهى من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضى العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى : نرى الأم ولها ولدان : أولهما قادر ثرى يأتى لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحنّن قلب القوىّ القادر على الفقير الضعيف .

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على من سألها : أى أبنائك أحب إليك؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضى العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

«يا بن آدم ؛ لا تخافنَّ من ذى سلطان ؛ ما دام سلطانى باقياً ؛ وسلطانى لا ينفد [1] أبداً . يا بن آدم لا تَخْشَ من ضيق رزق ؛ وخزائنى ملآنة ، وخزائنى

(١) لا ينفد : لا ينتهى . ونفد ينفد نفداً ونفاداً : فنى وانقطع ولم يبْقَ منه شيء . قال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾ [ص] . أى : أنه رزق دائم لا انقطاع له . [القاموس القويم] .

لا تنفد أبداً . يا بن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فوعزّتى وجلالى إن رضيت بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك ؛ وكنتَ عندى محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمتُه لك ؛ فوعزتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض [1] الوحوش فى البرية [2] ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا بن آدم خلقت السموات والأرض ولم أَعْىَ [3] بخلقهنّ ؛ أيعييني رغيف عيش أسوقه لك؟ يا بن آدم لا تسألنى رزق غد كما أطلب منك عمل غد . يا بن آدم أنا لك مُحبٌّ ؛ فبحقى عليك كنْ لى مُحبّاً » .

وهذا الحديث الكريم يبيِّن مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التى لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ [4] كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ [5] لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾

---

(١) الركض : الجرى والعَدْو . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يجرون ويفرون كناية عن الفزع والخوف الشديد . والركض : الضرب بالرجل ، قال تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية : الصحراء . والجمع : البرارى . والبر : ضد البحر . [راجع : مختار الصحاح - مادة : برر] .

(٣) لم أعى بخلقهن : لم أعجز عنه ولم أطق إحكامه . والإعياء : الكلال والتعب . [من لسان العرب] .

(٤) الفقه : الفهم . وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لا تفهمونه . وقال تعالى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم ٢/ ٨٦] .

(٥) الرهط : جماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] من إضافة الشىء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٨] .

وهذا يُضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا:

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ⑤ ﴾ [فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان.

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعيباً وقالوا:

﴿ .. وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ⑨١ ﴾ [هود]

وهذا التهديد يحمل تحدِّياً، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم يبغضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه - أي: قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعيباً ؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعيباً - عليه السلام - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان.

ومثال ذلك: هو بقاء عم النبي ﷺ أبي طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد ﷺ في ظاهر الأسباب.

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك بردِّ شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا[1] إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[2] ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار: أوضعتم رهطى فى كفة ؛ ومعزّة الله تعالى فى كفة ؟ وغلَّبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ؟! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً.

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم:

﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود]

أى: لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله.

ولم يقل: (ظِهْرِيًّا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول: يمنيّ . ونقول: يمانيّ ، فالنسب هنا إلى الظهرى ، وهى المنسى والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن: فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب[3] .

---

(١) الظهرىّ : المنسى المتروك وراء الظهر ، يقال: جعله ظهريّاً ، أى: جعله نسياً منسيّاً. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾[هود] أى: نسيتم الله وحقوقه عليكم. [القاموس القويم١/ ٤١٩].

(٢) المحيط: من أسماء الله الحسنى ، أى: المسيطر على كل شىء. وقال تعالى: ﴿ .. وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة]. أى: مسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً. [القاموس القويم١/ ١٧٨].

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكِّرهم شعيب عليه السلام بقوله:

﴿.. إنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾ [هود]

أى: أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال.

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه.

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[1] إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾

إذن: فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم: افعلوا ما فى وُسْعكم ، وما فى مُكْنتكم هو ما فى مُكْنة البشر ، وسأعمل ما فى مُكْنتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة.

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

---

(١) المكانة : رفعة الشأن والرزانة والتؤدة ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٣٥)﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر . وقرىء: «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس القويم ٢/ ٢٣٢].

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر [1] ، وبالقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح.

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ [2] لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٩٣) ﴾ [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدى ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ [هود]

أى : أن المستقبل سوف يبيِّن مَنْ منَّا على الحق ومَنْ منَّا على الضلال ، ولمن سيكون النصر والغلبة ، ومَن الذى يأتيه الخزى ؛ أى : أنْ يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومَنْ منَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق.

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

---

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان].

(٢) الرهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. (٤٨) ﴾ [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٨].

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[2] ﴿٩٤﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد أورد فى هذه السورة : أسلوبين منطوقين أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ ، فى قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثانى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود]

فى قصة اثنين من الرسل[3] .

وقصة شعيب هى إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية ؛ وتسمى فى اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ[4] ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس]

---

(١) الصيحة : اسم مرة من الصياح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود] كناية عن موتهم بحالتهم فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبى الله صالح ، ونبى الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] .

أما (ولما جاء أمرنا) فقد جاءت فى نبى الله هود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [هود] ، وكذلك نبى الله شعيب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود] .

(٤) قبره وأقبره : دفنه فى قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانفطار] . [القاموس القويم ٢/ ٩٥] بتصرف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ[1] ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[2] مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

وكل أمر يقتضى آمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس] أى : بعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بماء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى : مرصوص بنظام . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ، ولا يجرؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه .

إذن : فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء ؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجرؤ العذاب على المخالفة لأنه مُسخَّر ، لا اختيار له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ يُطبِّقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لهذا في قصة أم موسى . . يقول جَلَّ شأنه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[1] .. (٧) ﴾ [القصص]

فمنطق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خفْت على ابنك ألقيه في البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظنون إلى موت محقَّق ؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتي لها معارض في الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها في اليم ، فقال :

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. (٣٩) ﴾ [طه] النهر العذب [القاموس القويم صـ ٣٧٢ حـ ٢] .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه]

كذلك أمر الحق - سبحانه وتعالى - اليمَّ بإلقاء التابوت - وفى داخله موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى فى أن أوامر الله لا تتخلف ، جعلها تسارع فى تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُربِّبَ الإيمان ، أى : يزيده فى قلوب عباده ، فَهَبْ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غُلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلَّف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فى البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن : فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتقى القضيتان : القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمَّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿ ..وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

وسمَّى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم : «الرجفة» ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [الأعراف]

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة]

وسمَّاه بالخسف في عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان يتقي القوم الكافرين فقط ؛ ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أي : أن يوجد بنجوة ؛ وهي المكان العالي ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون في اليمن ثم بعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ [2] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

---

(١) الصر ، والصرصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ .. (١١٧) ﴾ [آل عمران] . والريح : الهواء المتحرك في الجو ، وأصلها «روح» قلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] أي : شديدة مدمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغٍ عات . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل يجمع عدة قبائل نشأت في اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ .. وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] . [القاموس القويم ١ / ٢٩٩] .

الْعَرِمِ[١] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[٢] وَأَثْلٍ[٣] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[٤] قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا فى الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضَّلوا التعب فى البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة «نجا» أى: صعد إلى مكان مرتفع.

واستخدمت كلمة «نجا» فى كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم[٥] ، فيقال: «نجا من النار» ؛ «ونجا من العدو» ؛ «ونجا من الحيوان المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أى: المكان المرتفع. ويقال فى الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب.

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى مَنْ يُنجيه ، ويُقال: «أنجاه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليتحقق الفوز.

---

(١) السيل: الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض. وسيل العرم: أى: سيلان العرم، وهى سدود اليمن، أو سيل المطر الشديد. [القاموس القويم ١/ ٣٤٠].

(٢) الخمط: كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء، وذلك كناية عن شدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٢١١].

(٣) الأثل: شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان، أوراقه دقيقة، وثمره حَبٌّ أحمر مُرٌّ لا يؤكل. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] كناية عن ضيق العيش وشدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٧].

(٤) السدر: شجر النبق، وهو شجر شائك له ثمر، فيه حلاوة قليلة، واحدته سدرة، وهو كناية عن ضيق العيش، فقد ضيَّق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم. [القاموس القويم ١/ ٣٠٧].

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك. ويقال: يدهمهم أى: يفجؤهم. راجع لسان العرب.

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [1] ﴿١﴾ ﴾ [القدر]

فكل شيء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إنَّا .

أما إذا كان الشيء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الإفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود]

وكان عمل شعيب ﷺ فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجَّه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . . والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى :

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملأ خير منه» [2] .

---

(١) أنزلناه : ابتدأنا إنزال القرآن العظيم . ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلىّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » من حديث أبى هريرة .

إذن: فالمفتاح فى يد العبد.

والحق سبحانه هو القائل:

«ومن تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً».

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى، فإنه سبحانه يتقرَّب إلى العبد أكثر وأكثر.

ثم يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى:

«ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة»[1] لأن المشى قد يُتعب العبد، لكن لا شىء يُتعب الحق سبحانه أبداً؛ لأنه مُنزَّهٌ عن ذلك.

إذن: فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية فى الالتحام بمعية الله تعالى، ليضفى علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله[2].

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى الغار.. يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة]

أى: أن رسول الله ﷺ ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معية الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه، بل من قانون كونى، حين قال لرسول الله ﷺ: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا» لكنّ رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صفات الجمال هى الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل: الرحيم، الغفور، السلام، المؤمن. أما صفات الجلال فهى الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل: القهار، الجبار، الضار، المميت.

الكونى ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1].

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار[2].

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شىء.

ومثال ذلك: إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء.

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين: شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله ؛ فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية.

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعْلى قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهى تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعنى أن نطمس بقية القبائل.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام].

ولذلك جاء فى القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة فى الإسلام كما كان لها سيادة فى الجاهلية ، لذلك يأتى بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتى بتاء التأنيث ومرة لا يأتى بها.

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً [1] أو مجازياً [2] . والتأنيث الحقيقى هو المقابل للمذكر ، مثل: المرأة. والتأنيث المجازى مثل : «الصيحة» و«الحجرة ». وكانت القبائل العربية تتجاوز فى المؤنث المجازى ؛ فمرة تأتى «التاء» ومرة لا تأتى [3] .

وإن كان هناك فَصْل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

---

(١) المؤنث الحقيقى هو الذى يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ. ولابُدَّ فى لفظ المؤنث الحقيقى من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلى ، هند ، عصفورة ، بقرة. . . إلخ. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي .. (٣٥) ﴾ [آل عمران] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل : ١٨].

(٢) المؤنث المجازى هو الذى لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تأنيث ظاهرة ؛ مثل : ورقة ، وسفينة. . . ، أم مقدرة ، مثل: دار ، وشمس. ولا سبيل لمعرفة المؤنث المجازى إلا من طريق السماع الوارد عن العرب.

(٣) يجوز التأنيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقى التأنيث ولم يتصل بالعامل - أى : فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. (٢٥) ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٨) ﴾ [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ .. (٣٠) ﴾ [يوسف]. وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظرها فى [« النحو الوافى» لعباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) ، و«النحو المصفى» للدكتور محمد عيد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦)].

فكأن الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ونلحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذى لم يغادره النوم بعد[1] ، مثل زُوَّار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود]

ولم يقل سبحانه : «فأصبحوا فى دارهم جاثمين» ؛ لأن بعضهم قد لا يكون فى بيته ، بل فى مكان آخر لزيارة أو تجارة.

ومثال ذلك : قصة أبى رغال ، وكان فى مكة ، لكن الحجر الذى قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه فى البقاع ولم يتزل عليه الحجر فى مكة ؛ لأن

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القمر] والبكرة أول النهار . ويستعا للإسراع إلى الأمر فى أى وقت . [القاموس القويم].

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الآمن ، وكأن الحجر قد تتّبعه ، مثلما تتبعت الصيحة الكفار من أهل مدين [(١)] .

ونلحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي «جاثمين» أن حرفي «الجيم» و«الثاء» حين يجتمعان معاً -بصرف النظر عن الحرف الثالث- ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الفنائية . ومعنى «جاثمين» أي : مُلقَون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً [(٢)] .. (٢٨) ﴾ [الجاثية]

أي : يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثة» .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أي «ميت» عظيماً كان أم وضيعاً [(٣)] ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى : الأرض .

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . فقالوا : من هو يا رسول الله؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢٠ ، ٥٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) جثا يجثو جثواً ، وجثي يجثي جثياً : جلس على ركبتيه فهو جاث وهي جاثية . قال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .. (٢٨) ﴾ [الجاثية] كناية عن العجز والتخوف والترقّب كالسجين ينتظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿ .. ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم] تصويراً لحالهم في ذل ومهانة ينتظرون العذاب الشديد . [القاموس القويم : مادة (جثى)] .

(٣) الوضيع : الدنيء من الناس ، وهو ضد الشريف . والضَّعة : الذل والهوان والدناءة . [لسان العرب - مادة : وضع] .

ومن يرغب فى تهدئة إنسان ملتاع[1] وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : «لا» .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذى به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ[2] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا[3] فِيهَآ أَلَا بُعْدًا[4] لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا ..﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

---

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقة الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالى من كل شىء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم مادة (غنى)] .

(٤) بعد بَعداً وبُعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهى غير الجنة التى ينال فيها الإنسان ما يشتهى بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء -بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدى إلى الشىء الذى يغنيك عن شىء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما فى أيدى الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذى يعجبه ، والملحّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذى يغنيك عن غيره .

والغَناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا [1] فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [2] (١٠٠) ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمُرَتْ بهم . قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزرع ، ومنها ما هلك فصار كالزرع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى : أن الأطلال [1] قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم [2] ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر مُلْقىً على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر [3] .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلتفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة «بُعْداً» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد ؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة «بُعْداً» هى : «الباء» و«العين» و«الدال» ونستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق ؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ .. كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

---

(١) الأطلال : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة . وقيل : طلل كل شىء شخصه . [انظر : لسان العرب] .

(٢) الرسوم : جمع الرسم . وهو بقية الأثر . وقيل : هو ما لصق بالأرض منها . ورسم الدار : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض .

(٣) الدثور : الدروس وامّحاء الذكر ، وكل شىء امحى وذهب أثره فقد دثر . [اللسان بتصرف] .

والشاعر [1] يقول:

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَنى وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانِيَا

فهذا هو البعد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود [2].

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين: «ألا بعداً»؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود [3] ، وبذلك اتفقوا فى طريقة العذاب.

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلحظ أن لها مساساً برسل مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أى: أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين. ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم ؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة.

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام. وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون.

---

(١) الشاعر هو: مالك بن الريب المازنى ، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتَّاك ، اشتهر فى أوائل العصر الأموى ، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرض فى مرو وأحس بالموت فقال قصيدته التى منها هذا البيت وعدتها ٥٨ بيتاً أوردها أبو على القالى كاملة في أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفى عام ٦٠ هجرية. انظر الأعلام للزركلى (٥/ ٢٦١).

(٢) البعد: الهلاك. بعد: هلك. فقوله تعالى: ﴿.. أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود] أى: هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود. والبعد: خلاف القرب ، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .. (٣٨)﴾ [الزخرف] أى: مقدار بعد أحدهما من الآخر. [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥)﴾ [الحاقة] أى: أهلكوا بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. والطغيان: تجاوز الحد ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد. [القاموس القويم ١/ ٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن فى الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش فى موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن فى أى مكان فى العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية فى ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ؛ لأن الأصل فى القصص القرآنى أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحى لتناسب الموقف الذى يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد[1] .

ويبيِّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم فى النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس فى القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها فى تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهى إلا بأن تأتى فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر ضد تزلزل واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبات معنوى . [راجع : القاموس القويم ١/ ١٠٥] .

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين:

اللقطة الأولى: هي الإرسال بالآيات إلى فرعون.

واللقطة الثانية: هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة، يقول تعالى:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله:

﴿ .. نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبَّته وهيَّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثماني حجج أو أن يتمها عشر حجج [1]، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي [2] ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

---

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً، وجمعها: حجج. قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أي: ثماني سنوات كاملة. [القاموس القويم].

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً: أثابه على عمل أو صار أجيراً له، وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّي المهر أجراً مجازاً. وقال تعالى: ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٢٤) ﴾ [النساء] أي: مهورهن. وقال تعالى: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أي: ثواب عمله. [القاموس القويم ١/٨].

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة فى قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق فى الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة.

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل فى القرآن قانون السماء الذى يقى الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذى أنزل القرآن سبحانه هو الذى خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى فى كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه.

وفى قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له [1] ، رغم أن فرعون كان يُقتِّل أطفال تلك الطائفة [2].

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه [3].

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص].

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص].

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

إذا لَمْ تُصادفْ فى بَنِيكَ عنَايةً
مِنَ الله فقدْ كَذَبَ الرَّاجِى وخَابَ المُؤملُ

فَمُوسَى[1] الذى ربَّاهُ جبريلُ كافرٌ
ومُوسَى الذى ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة، فى البداية وفى النهاية؛ ليبيِّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام.

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث -هو ماء مدين، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهى رأس الحربة التى تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة فى مفاتنها، لإغواء الشباب فى أعز أوقات شراسة المراهقة.

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة فى رحلة بسيطة، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى:

﴿ولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ[2] .. (٢٣)﴾ [القصص]

أى: تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام، وكان من الطبيعى أن يتساءل: ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية؟! وقال القرآن السؤال الطبيعى:

---

(١) موسى السامرى الذى رباه جبريل خالف أمر ربه بفتنة، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب، بخلاف موسى الرسول عليه السلام.

(٢) ورد يرد ورداً وورودا: حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله. وورد الماء: قصده وبلغه ووصل إليه. واسم الفاعل منه: وارد. واسم المفعول: مورود. [القاموس القويم].
أمة من الناس: جماعة كثيرة منهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].
تذودان: تمنعان أغنامهما عن الماء. [كلمات القرآن].

﴿ما خَطْبُكُمَا [1] .. (٢٣)﴾ [القصص]

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ [2] وَأَبُونَا شَيْخٌ [3] كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظلَّتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص]

وهذه خصوصية المجتمع الإيمانى العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قربى ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيمانى العام.

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها.

وأذكر حين ذهبت إلى مكة فى عام ١٩٥٠م أن نزل صديقى من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التى لَم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما: ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟. [كلمات القرآن].

(٢) يصدر الرعاء: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء. [كلمات القرآن].
والصدور: الرجوع والانصراف. يقال: ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى: رجع. وصدر دوابه: أرجعها بعد ورودها. [القاموس القويم].

(٣) شاخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره. وله جموع كثيرة منها: أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها فى القرآن جمع واحد هو: شيوخ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر]. [القاموس القويم ١/ ٣٦٣].

نفس الباب. وقال لى: إن هذه هى عادة أهل مكة، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب.

وهذا كله مأخوذ من كلمة:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ..(٢٤)﴾ [القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم.

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء[1] ذلك، بل تأخذها على قدر الضرورة، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب:

﴿.. يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً، فيقول لموسى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلقى بابنته هكذا دون مهر[2]،

---

(١) استمرأ الطعام: وجده مريئاً أى: جيداً مستساغاً. واستمرأ الشىء: أحبه واستزاد منه. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) المهر: الصداق، والجمع: مهور. وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً .. (٤)﴾ [النساء]. قال فى فقه السنة (٢/ ٢١٨): «لم تجعل الشريعة حداً لقلته، ولا لكثرته، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر، ويتفاوتون فى السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة، بقطع النظر عن القلة والكثرة، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم».

لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه [(١)].

وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التى يتشدق بها خصوم الإسلام.

وها نحن نجد فى الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء فى المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة فى أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهى تربية الأبناء.

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى كل الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم.

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ [(٢)] ﴿٩٦﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت فى القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء:

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

---

(١) الجمع بين الأختين من المحرمات تحريماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً بائناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هى وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ .. وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء]. وانظر فقه السنة (٢/ ١٦٩).

(٢) سلطان مبين: برهان بيِّن على صدق رسالته. [كلمات القرآن].

والسلطان: الملك والقوة والقهر والحجة والبرهان. يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل] أى: قهر الشيطان وغلبته وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة] أى: قوتى زالت وغلبتى وقهرى فلا أستطيع الدفاع عن نفسى. [القاموس القويم].

وربت [١] ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر فى أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتى لبيان صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات مثل: ناقة ثمود المبصرة [٢] ، وشفاء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص [٣] بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التى تبيِّن مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٤] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ ..وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]. «أى : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت أى : ارتفعت ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٠٨).

(٢) قال تعالى :﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩) ﴾ [الإسراء].

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] . والكمه : أن يرتد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه [القاموس القويم] .

(٤) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . قال تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ١/ ٥٦] بتصرف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتى إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ[1] عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون:

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ[2] (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ[3] لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية فى موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بدليل الاحتياط فى قوله تعالى:

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ[4] .. (٢٢) ﴾ [طه]

أما العصا فهى الحجة التى دفعت فرعون إلى أن يأتى بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون[5] .

---

(١) حقيق على أن: حريص على أن ، أو خليق بأن . . [كلمات القرآن].
(٢) مبين : أى : ظاهر أمره لا يشك فيه . [كلمات القرآن].
(٣) ونزع يده : أخرجها من طوق قميصه . بيضاء : غلب شعاعها شعاع الشمس . [كلمات القرآن].
(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت العضد الأيسر . [كلمات القرآن].
(٥) قال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه].

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى عليه السلام بتسع آيات هى : العصا التى تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص فى الأنفس والثمرات ، لأن الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هى الآيات التسع [1] التى أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم إيمانهم برسالة موسى عليه السلام .

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى عليه السلام ؛ هى نتق الجبل [2] ، وضرب البحر بالعصا [3] ، ثم ضرب الحجر بالعصا لتتفجر اثنتا عشرة [4] عيناً ، وكذلك نزول التوراة فى ألواح [5] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء]. وقال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢) ﴾ [النمل]. وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف] . ونتقه : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم].

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء] . والطود : الجبل الثابت العالى [القاموس القويم ١ / ٤٠٨].

(٤) قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠) ﴾ [البقرة].

(٥) قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً .. (١٤٥) ﴾ [الأعراف]. والألواح : جمع لوح ، وهو الصفحة العريضة من خشب أو غيره يكتب عليه . [القاموس القويم ٢ / ٢٠٦].

إذن: فالكلام فى الآيات التسع المقصود بها الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .

ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا فى آخر السورة بالخلاف بين موسى عليه السلام وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

إذن: فقصته مع بنى إسرائيل تأتى بعد إيتائه الكتاب ، أى :التوراة .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى عليه السلام مع فرعون فيقول:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

أى : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاكاً [1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [2] (٩٧) ﴾

والملأ: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس . ويقال: «فلان ملء العين» أى: لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

(١) الفكاك: فكاك الرهن والأسير : ما فُكَّ به . والمراد به هنا : الهروب [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الرشد : ضد الغي والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير . ورشد فلان: أصاب وجه الصواب والخير والحق . ونفى الرشد نفى للحق والخير والصواب . [القاموس القويم ١/ ٢٦٥] بتصرف .

فالملأ - إذن - هم أشراف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملأ والقوم ، نجده يبيِّن ويفصل بين الملأ من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملأ من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبيِّن لنا الله سبحانه أن الملأ قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغيُّ ، وهذا القول يدلنا على أن الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبيِّن الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[2] (٩٨) ﴾

---

(١) خف الحمل : قل ولم يكن ثقيلاً . ومن المجاز : خف عقله : طاش وحمق . ومنه : استخفه : أي : استضعف عقله وسخره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحمق . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف] [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] .

(٢) يقدم قومه : يتقدمهم كما يتقدم الوارد . فأوردهم النار : أدخلهم فيها بكفره وكفرهم . الورد المورود : المدخل المدخول فيه ، وهو النار . [كلمات القرآن] .

وكلمة «يقدم» هى من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة فى التعبير قولاً أو كتابة، فهى تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشىء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد، ومن يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون، وما داموا قد اتَّبعوه فى الأولى؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويُبيِّنها، مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[1] (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾ [مريم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة، ويلقيه فى النار، لأنه أعلم بمن يجب أن يَصْلَى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا[2] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا[3] (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم]

---

(١) جثياً: باركين على ركبهم لشدة الهول. عتياً: عصياناً، أو جراءة أو فجوراً. صلياً: دخولاً أو مقاساة لحرها. [كلمات القرآن].

(٢) واردها: أى: بالغٌ النار، وواصل إليها، فمنهم من يردها ليدخلها، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠]، وورد فى [كلمات القرآن]: واردها، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٣) حتم الله الأمر حتماً: أوجبه، وهذا أمر حتم: أى: لازم لا بد منه ولا فكاك عنه. والحتم: القضاء النافذ. قال تعالى: ﴿.. كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ [مريم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفروغاً منه، لا راد له، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

ولم يقل الحق سبحانه: « وإنْ منهم إلاّ واردُها ».

وإنما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

وبذلك عمَّم الخطاب للكل، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل.

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون:

﴿ .. فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[1] (٩٨) ﴾ [هود]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود»، وهو الكتاب الذى نزل بلسان عربى مبين، نجد أن الورود يأتى بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء، قلت: «وردَ يَردُ وروداً»، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود، فقل: «وردَ يردُ وِرْداً» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه.

إذن: فكلمة «الوِرْد» تطلق على عملية الشرب من الماء، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله:

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[2] (٨٦) ﴾ [مريم]

---

(١) بئس الورد المورود: أى: بئس الموضع الذى يرده الإنسان فيلاقى فيه العذاب الأليم. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

(٢) الورد: الماء أو موضعه، أو الإبل الواردة على سبيل المجاز. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] أى: جماعة يردونها ويدخلونها كما ترد الإبل الماء. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى [(١)] في معلقته :

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ [(٢)]

والشاعر هنا يصف الرَّكْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يُكدِّرها ، فوضع القوم عصا الترحال.

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ [(٣)] (١٨)﴾ [طه]

ويقول الشاعر [(٤)] :

فألقتْ عصَاها واستقرَّ بها النَّوَى [(٥)] كمَا قَرَّ عيناً بالإيابِ [(٦)] المُسَافرُ

---

(١) حكيم الشعراء في الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد في بلاد «مزينة» بنواحي المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء . توفي عام (١٣ ق هـ) . [انظر : الأعلام لخير الدين الزركلي] .

(٢) الجمام : ما اجتمع منه في البئر والحوض وغيرها . ووضع العصى : كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم . والتخيم : ابتناء الخيمة . [راجع : شرح المعلقات السبع للزوزني - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هش الشجر يهشه هشاً : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. (١٨)﴾ [طه] أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها .
ومآرب أخرى : أي : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١ / ١٧] بتصرف .

(٤) هو : معقِّر بن حمار . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة : نوى] .

(٥) النية والنوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً : البعد . والنوى : الدار . والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت في اللسان مادة : نوى .

(٦) الإياب : الرجوع والعودة . آب يؤوب : يرجع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)﴾ [الغاشية] أي : رجوعهم . والمآب : المرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس القويم ١ / ٤٢] .

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكدَّرة .

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتنعكس عليها صورة السماء الزرقاء .

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا فى المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم - قوم فرعون - ساعة يرون الماء يشعرون بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس ما يشربون ، فهو يُطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .

كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ [1] .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يغاثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوى الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت قد تجد من يدعوك لأطايب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلح عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك

---

(١) كالمهل : مثل دردى الزيت أو كالمذاب من المعادن . [كلمات القرآن] . والمهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلى ، والقيح . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٢] .

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك ؛ أليس فى هذا تهكم شديد ؟!

والحق سبحانه يبيِّن لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذى يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ[1] (٣٦) ﴾ [الحاقة]

وهكذا تصير النكبة نكبتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

بمعنى أنهم جميعاً سوف يَرِدون جهنم .

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾ [مريم]

إذن : فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون النار وتسعُّرها[2] ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) الغسلين : غسالة أبدان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح وغيره مما تعافه النفس وتكرهه . قال تعالى : ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) ﴾ [الحاقة] . [القاموس القويم ٢/ ٥٤] .

(٢) سعرت النار : اشتعلت ، وأسعرها : أوقدها وهيجها . وسعرها - بالتشديد - : هيجها . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) ﴾ [التكوير] أى : أوقدت بشدة . [القاموس القويم ١/ ٣١٣] .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[1] ﴿٩٩﴾ ﴾

أى: أن اللعنة قد بقيت لهم، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى، وهى لعنة يوم القيامة: ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ والرفد: هو العطاء، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاءً؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً، مثلها مثل قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ[2] ﴿١٠٠﴾ ﴾

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب؛ لأنها كذَّبت أنبياءها. والخطاب موجَّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده، والحق سبحانه إنما يبيِّن له أن الكافرين لن يكونوا بمنجًى من العذاب؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم السابقة الكافرة بالعذاب.

وقول الحق سبحانه:

---

(١) رفده يرفده رفداً: أعطاه وأعانه. والرفد: العطاء والمعونة. قال تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود] أى: العطاء المعطى لهم، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة، وسمَّى اللعنة رفداً تهكماً وسخرية. [القاموس القويم ١/ ٢٧٠].

(٢) قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود] أى: منها باق، ومنها هالك. وقال تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى: جعلناهم كالزرع المحصود، أى: أهلكناهم. [القاموس القويم ١/ ١٥٦].

يتطلب أن نفرِّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقى لها ، فبعض الناس يقول: إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحبكة.

ولهؤلاء نقول: أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة»[1] فى اللغة العربية ، لأنها تعنى - فى لغتنا - الالتزام الحرفى بما كان فيها من أحداث ، فهى مأخوذة من كلمة: «قصّ[2] الأثر» ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشىء المراد.

إذن: فقصص[3] القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه فى عرف العامة أنه قصص ، بما فى تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمَّى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً.

وقصص الإهلاك للأمم التى كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التى اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر.

---

(١) قص الكلام أو الأخبار ، يقصها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. وقال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء] أى: ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٢) قص الأثر قصصاً: تتبعه. ومنه قوله: ﴿ .. فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] أى: يتتبعان آثارهما تتبعاً. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٣) القصص: مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]. وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف]. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

ونحن نجد فى آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾
[الصافات]

أى : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم.

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١) (١٠١) ﴾

ويبيِّن الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسانٍ الحق ، فتسلبه هذا الحق.

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى التى ظلمت نفسها بالشرك ، وكذَّبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة.

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم أحداً.

---

(١) التتبيب : الإهلاك والتخسير. والتباب : الهلاك. قال تعالى : ﴿ .. وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر]. وتبَّبه تتبيباً : أهلكه. قال تعالى : ﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) ﴾ [هود]. [القاموس القويم ٩٦/١].

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمى مَنْ آمنوا بها ؟!

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التى عبدوها تلعنهم ، وهم فى النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار.

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [1] .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنَّوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذى عبدوه أو تلك الأحجار التى صلَّوا لها أو قدَّسوها.

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار - فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحى على الرسول ﷺ ، وغار ثور حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر فى أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حينَ يَرى الرُّوحَ أميناً يَغْزُوكَ بالأنْوَارِ

فَحِرَاءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَوَاءً بِهِما تَشْفَعْ لأُمَّةِ الأحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول فى الهجرة.

---

(١) الوقود : ما تشتعل به النار من حطب وغيره . قال تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) ﴾ [البروج] أى : ذات الحطب الذى يلقى فيها ليزيدها اشتعالاً ؛ وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث فى قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار فى الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا : الكفار والعصاة الذين يكون مصيرهم إلى النار . قال تعالى : ﴿ .. وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ٢/٣٤٨] بتصرف .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار:

عَبَدُونا ونَحْنُ أَعْبَدُ للهِ ... مِنَ القائمينَ بالأَسْحَارِ[1]

قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوا ... على ابنِ مَرْيَمَ والحَوارِى[2]

للمُغَالِى جَزَاؤهُ والمُغَالَى فيهِ ... تُنجيهِ رَحْمَةُ الغَفَّارِ

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ، لم تُغْن عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا وسعيراً فى الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا ، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [هود]

أى: أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من دون الله . . هذا التخلى يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبيب هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[3] ﴿١﴾ ﴾ [المسد]

---

(١) الأسحار: جمع السحر ، بفتح السين والحاء . وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى: ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات] . [القاموس القويم ١/ ٣٠٥].

(٢) الحوارى: هم الحواريون ، وهم الخلصاء والأصفياء للأنبياء . قال تعالى: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران] والحوارى : الخالص النقى من كل شىء . [القاموس القويم ١/ ١٧٧].

(٣) تب يتب تباً وتباباً: خسر وهلك . قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد] وهو دعاء عليه بالخسران والهلاك . ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه لأنهما آلة البطش والإيذاء . [القاموس القويم ١/ ٩٦].

كذلك الأخذ الذى أخذ الله به القرى التى كذّبت أنبياءها.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ[1] شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أى: أن الأخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة، إنما هو مثل حى لكل من يكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ[2] ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر]

أى: أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقل يستوعب ضرورة الإيمان، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب، فيقول سبحانه:

---

(١) الأليم: المؤلم شديد الإيلام والوجع. قال تعالى: ﴿ .. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]. والألم: الوجع الشديد. [القاموس القويم ١/ ٢٦] بتصرف.

(٢) والفجر: قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر).

وليال عشر: العشر الأول من ذى الحجة.

والشفع والوتر: يوم النحر، ويوم عرفة.

والليل إذا يسر: إذا يمضى ويذهب أو يُسار فيه.

هل فى ذلك: أى: فى المذكور الذى أقسمنا به.

قسم لذى حجر؟: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لنعذبن الكافرين. [كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾[1] [الفجر]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ وَكَذَلِكَ .. (١٠٢) ﴾ [هود]

أي: مثل الأخذ الذي أخذتُ به القرى التي كذَّبت رسلها، فظلمت نفسها.

والأخذ هنا عقاب على العمل، بدليل أنه أنجى شعيباً عليه السلام وأخذ قومه بسبب ظلمهم، فالذات الإنسانية بريئة، ولكن الفعل هو الذي يستحق العقاب.

ومثال ذلك: نجده في قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فالذي وضع ابن نوح في هذا الموضع هو أن عمله غير صالح؛ لذلك فلا يقولن نوح: إنه ابني.

---

(١) بعاد: قوم هود، سُمُّوا باسم أبيهم.
إرم: هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة.
ذات العماد: الشدة، أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعَمَد.
جابوا الصخر: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.
ذي الأوتاد: الجيوش الكثيرة التي تشد ملكه.
سوط عذاب: عذاباً شديداً مؤلماً دائماً.
إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

فليس الإهلاك بعلّة الذات والدم والقرابة ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البنوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال.

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرّم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال:

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [1] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي [2] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه:

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنوّة للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال.

---

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أي: قدوة يقتدي بك الناس. ويقول تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١) ﴾ [الإسراء] أي: برسولهم فيقال: يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ، ويا أمة محمد - أو بكتابهم ، فيقال: يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن. [القاموس القويم ١/ ٣٣].

(٢) الذرية: للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾ [الحديد] وقال تعالى: ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ .. (٨٧) ﴾ [الأنعام] بالجمع ، ورسمت بغير ألف في المصحف. وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ١/ ٢٤٢] بتصرف.

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ، وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُم .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية [1] وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوتَ برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعى الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية فى التكليف ، وعطاء الربوبية فى الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتّعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر.

إذن : فأخْذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الآخذ ، فإذا كان الآخذ هو الله سبحانه ، فهو أخْذ عزيز مقتدر.

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرِّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك.

---

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لأهل التكليف عن الإيمان السخى واليقين النقى . من حكم الشيخ.

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ .. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

أى : أن أخذه موجع على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهَبْ أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم[1] بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[2] .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أى : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعى ، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهى أن تعفو ؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو[3] .

---

(١) عاقبه عقاباً : جازاه سوءاً بما فعل . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل] .
والعقاب والمعاقبة : إيقاع الجزاء على المذنب . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت] . [القاموس القويم ٢ / ٢٩] .

(٢) الكاظمين الغيظ : الحابسين غيظهم فى قلوبهم . [كلمات القرآن] . وكظم الغيظ : إمساكه وحبسه فى النفس والصبر عليه . [القاموس القويم ٢/ ١٦٣] .

(٣) يقول الله سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران] .
ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] .

ولذلك حين سألوا الحسن البصرى : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب: إذا أساء إليك عبد ، ألاَ يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم. قال: وحين يغضب الله من الذى أساء إليك : ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحْسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين [(١)] أنه سمع أن شخصاً اغتابه ؛ فأهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير [(٢)] الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً: لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟

قال العارف بالله: بلِّغْهُ شكرى وامتنانى لأنه تصدَّق علىَّ بحسناته عندما اغتابنى ، وحسناته - بلا شك - أنفَسُ من هذا الرطب.

ولذلك يقال: إن الذى يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذى يعاقب إنما يعاقب بقوته ؛ والذى يعفو فهو الذى يترك العقاب لقوة الله تعالى، وهى قوة لا متناهية.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ [(٣)] وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾

[هود]

---

(١) هو الحسن البصرى ، روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك هديت إلىَّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام . أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤).

(٢) البواكير : جمع باكور أو باكورة، وهى أول ما يُدرك من الثمر. وهى أيضاً المعجَّل من كل شىء. [المعجم الوسيط : مادة (ب ك ر)] بتصرف.

(٣) القرى: جمع قرية وهى البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (١٠٢) ﴾ [هود] أى: أخذ أهلها وهم ظالمون. [القاموس القويم : مادة (ق ر ى)].

أى: أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذ شديد ؛ لأن الشدة تعنى: جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل اى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ[1] لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ[2] ﴿١٠٣﴾ ﴾

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للأمم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

---

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع. والأمر الجامع: الأمر العظيم الذى يجتمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور] [القاموس القويم: مادة (ج م ع)].

(٢) مشهود : اسم مفعول، قال تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا هوله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] أى: إن قرآن الفجر تشهده الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر ميمى، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مريم] [القاموس القويم : بتصرف ص ٣٥٩ جـ١]

﴿ وَكَأَيِّن (١) مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢) (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الألباب(٣) ؛ فلا ندخل فى دائرة من لا يخافون العذاب ؛ أولئك الذين يتلقون العذاب خزياً فى الدنيا وجحيماً فى الآخرة ؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له ؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ .. ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن الفضيحة فى هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر ؛ من لدن آدم إلى آخر البشر ؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان ؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ .. (١٠٣) ﴾ [هود]

وكلمة «مجموع» تقتضى وجود «جامع» ؛ و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجامع» ؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة ؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه ؛ فالحق سبحانه يقول:

---

(١) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف]: أى: كم من آية، أو كثير من الآيات. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٢) معرضون: اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشىء: ولّى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم: مادة: (ع ر ض)].

(٣) الألباب: جمع لب. وهو العقل. وقد وردت فى القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد].

﴿ .. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزى لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى ميعاد هذا اليوم:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ[1] (١٠٤) ﴾

وهكذا نعلم أن تأخر مجىء يوم القيامة ؛ لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ .. (١٠٤) ﴾ [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الأجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

---

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عدَّ). قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً .. (٨٠) ﴾ [البقرة] أى: محسوبة قليلة، هي أيام شهر رمضان. وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ [مريم]. والأجل: مدة الشيء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدَّين أو وقت الموت. والمراد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم: (مادة ع د د) ، و(مادة أ ج ل)] بتصرف.

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[1] (٣٨) ﴾ [الرعد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ[2] (٣٤) ﴾ [الأعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛ لذلك فَلْنَقُلْ أن كل معدود قليل، ما دُمْنَا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ[3] وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾

---

(١) الكتاب: له عدة معانٍ، منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] . وقال تعالى: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] أي: في حكمه وتقديره أو في القرآن الكريم في آيات المواريث. وقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ .. (٦٨) ﴾ [الأنفال] أي: ولولا قضاء من الله من قبل سجله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إباحة الفداء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد] أي: موعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] أي: فرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] بتصرف.

(٢) تأخر واستأخر: ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أي: لا تتأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تتقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم : مادة (أ خ ر)].

(٣) شقي شقاً وشقاءً وشقاوة: ساءت حالته المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقي: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿ .. وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم] . أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ى)].

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لا تكلم نفس .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعني: لا تتكلم أي نفس[1] إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم.

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذي لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذي لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذي لا يبصر ، وغير ذلك.

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبين لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا ، فهي ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح.

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ﴾ [النبأ]

---

(١) النفس: الروح وذات الشيء وحقيقته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف] هي نفس آدم عليه السلام، وقوله : ﴿ تعلم ما في نفسي .. (١١٦) ﴾ [المائدة] أي: ما أستره في ضميري، وقوله : ﴿ وما أبرئ نفسي .. (٥٣) ﴾ [يوسف] أي: ذاتي وقوله : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها .. (٧٢) ﴾ [البقرة] أي: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون أمارة، وتكون لوامة، وتكون مطمئنة وراضية، وترتفع درجتها لتكون مرضية قد رضي الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] أي: غضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ جـ ٢]

ويقول الحق عز وجل فى آية أخرى:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ [1] عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول سبحانه:

﴿ وَقِفُوهُمْ [2] إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع [3] ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن فى قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا [4] مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

---

(١) جادل: خاصم بالحق، وبالباطل، واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٩) ﴾ [النساء] ، واستعمل فى الحق فى قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله حجاج بيته عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم. قال تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٩٧) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفوهم: احبسوهم فى موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) أى: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشىء، وما نطقت بشىء، فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. قاله القرطبى فى تفسيره (٣٤١٧/٤).

(٤) أضل فلان غيره: أوقعه فى الضلال. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ [يونس] أى: غاب عنهم ما عبدوه.وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أى: ضاع عملهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجدوا ثواباً يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] بتصرف.

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم[1].

ويقسِّم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿.. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ[2] وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد[3].

ثم يبيِّن لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شقُوا ، ومنازل مَنْ سُعِدوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ[4] (١٠٦)﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور] وقد أورد السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ١٦٥) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله فجحد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا . فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار» عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.

(٢) شقى - من باب فرح - شقا وشقاءً وشقاوة: ساءت حاله العادية أو المعنوية فهو شقى، واسم التفضيل: أشقى.. وسَعِدَ: كفرح وسَعُدَ [ككرم] يسعَد ويسعُد سَعْداً وسُعُوداً وسعادة نال الخير: ﴿.. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود] [القاموس القويم: (١/ ٣٥٣)، (١/ ٣١٢) بتصرف مختصر.

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿.. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبى الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شىء قد فرغ وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل مُيسَّر لما خُلق له» أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٧٤) وأحمد فى مسنده (١/ ٦) قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) زفير: إخراج شديد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله ؛ يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَراً.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا [1] .. (٧١) ﴾ [الزمر]

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ [2] أُخْتَهَا .. (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن الكافرين - في الوصف الثابت - أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي ؛ ويعاني كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون في الشقاء ويختلفون في نوع وكمية العذاب ؛ كلٌّ حسب ذنوبه، ولا يظلم ربك أحداً.

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل «شقوا» ليبيِّن لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛ وأعان - من اختار الإيمان - على الطاعة.

ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم:

---

(١) الزمر: جمع زمرة، وهي الفوج والجماعة. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا .. (٧١) ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا .. (٧٣) ﴾ [الزمر]. [القاموس القويم: مادة (ز م ر)] بتصرف.

(٢) اللعنة: السخط والإبعاد عن الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس القويم. مادة : لعن].

﴿.. فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦)﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الذى يتنفس فى النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصْفَ ما يتلقاه أهل الشقاء فى النار ، فيقول سبحانه:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ[1] لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له ؛ وإذا أبِّد فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (١٠٥)﴾ [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين.

وأما عذاب المسلم العاصى على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهى فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك[2] .

---

(١) فعل يفعل فهو فاعل. وفاعل. اسم فاعل من فعل. وفعَّال: صيغة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾ [هود]. [القاموس القويم : مادة (ف ع ل)] بتصرف.

(٢) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم فى الشفاعة فيجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل». أخرجه مسلم فى صحيحه حديث (١٨٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٥ ، ١١).

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لأنصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ولا يحكمه أى شيء.

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعله ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عمَّا يفعل ، لأن ذات الله هى الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص فى النار ؛ فالنقص يكون فى النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده فى الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يغلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يُسوِّى بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رأيه بالآية الكريمة التى جاءت فى سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربِّب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصى حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود فى العذاب لم

يرد إلا فى آيتين [١]، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عفوه سبحانه.

ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة «العالمين» جمع «عالَم» والعالَم هو ما سوى الله تعالى.

ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هى عطاء الله له فى الدنيا.

وهكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذى يملك نواميس الكون ، ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغيِّر فيه كما يشاء.

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، ومادام هو رب كل شىء فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظللهما ، ولا بد أن يوجدا فوق أرض ما.

وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر فى القرآن أن السماء سوف تمور [٢] وتنفطر [٣].

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب] وكذلك فى سورة الجن: ﴿ .. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٢٣)﴾ [الجن].

(٢) مار الشىء يمور موراً: تحرك وذهب وجاء فى سرعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)﴾ [الطور] [القاموس القويم : مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشىء وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١)﴾ [الانفطار] أى: انشقت يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. (٩٠)﴾ [مريم] أى: يتشققن من هول كفرهم وادعائهم أن لله ولداً - كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾ [مريم]. [القاموس القويم: مادة (فطر)] بتصرف.

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة [1] مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ [2] .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ [3] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤) ﴾ [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدوم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخَّرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

---

(١) الضميم: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتماثلة وفهمها فهماً شاملاً.

(٢) بدَّل الشيء: غيَّره. وبدل الكلام : غيره أو حرَّفه بحيث يؤدي معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ .. (٥٩) ﴾ [البقرة] أي: غيروه بكلام آخر، أو حرفوه ليؤدي معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] أي: عمل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) ﴾ [الإنسان] أي: جعلناهم بدلاً منهم، كقوله تعالى: ﴿ .. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾ [إبراهيم] [القاموس القويم : مادة (بدل)].

(٣) بوَّأه: أسكنه. وبوّاه في الأرض: مكَّن له فيها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦) ﴾ [الحج] أي: هيأناه له ومكناه منه. وقال تعالى في قصة يوسف ﷺ: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف] أي: ينزل في أي مكان يريده من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جاهه. [القاموس القويم: مادة (ب و أ)] بتصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان فى الآخرة ؛ فكأنه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وإذا علَّق الله سبحانه شيئاً على شىء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى:

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ [1] .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

فهل سيلج الجمل فى سَمِّ الخِياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات فى نطاق أنه سبحانه:

﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

وقد جاء فى الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه:وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة

(١) السَّم - مثلثة السين - : الثقب الضيق، قال تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف] أى: ثقب الإبرة. [القاموس القويم : مادة (س م م)].

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم فى أى أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة.

لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التى تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففى تعذيب الكافرين قال سبحانه: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾.

وفى الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[1] (١٠٨) ﴾

فالحق سبحانه يعطى المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم فى الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ[2] مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ[3] (١٠٩) ﴾

---

(١) جذ الشىء، يجذه جذاً: قطعه أو كسره ، أو فتته. والجذاذ: القطع المكسرة المفتتة والحطام. قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] والمجذوذ: المقطوع. قال تعالى: ﴿ .. عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود] أى: أنه عطاء دائم غير مقطوع. [القاموس القويم: مادة (جذذ)].

(٢) المرية - بكسر الميم، وبضمها - : الجدل والشك. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (١٧) ﴾ [هود] وقرىء مرية - بضم الميم. [القاموس القويم : مادة (م ر ى)].

(٣) النقص: مصدر نقص. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]. ومنقوص: اسم مفعول منه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود] أى: كاملاً ، لا ننقص منه شيئاً. [القاموس القويم: مادة (نقص)].

فهل كان الرسول ﷺ فى مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكنه قول الأمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلما قال الحق سبحانه للنبى ﷺ :

﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ ..(٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبى ﷺ:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودى عليهم بهذه الصفة فهى علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفى الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة[1] ؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[2] .. (٣) ﴾ [الزمر]

---

(١) عَبَدَ الله يعبده، عبادة وعُبودة: أطاعه فهو عابد اسم فاعل. وعبَّده بالتضعيف: سخَّره وأذلَّه، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عِباد، وعبيد وعَبَد - وعُبَّد، والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق. فكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته، وعُبَّاد الأصنام هم عباد لأفكار هى تخريف وتحريف عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/٢ ، ٤ - بتصرف].

(٢) الزلفى: القرب ، والمنزلة، والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى .. (٣٧) ﴾ [سبأ] أى: قربا، مفعول مطلق مرادف، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. [القاموس القويم: مادة (ز ل ف)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فإيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النِّسَب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية [1].

﴿ ما يَعْبُدُونَ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

أي: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للآباء ؛ ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [2] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ [3] نَصِيبَهُمْ [4] غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

---

(١) فالكون فيه ألفاظ مفردة نعرف معانيها مثل: السماء، والأرض. ونفهم تصور الشيء. أما عندما نذكر لهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبة. مثل قولنا: الأرض كروية. [مستنبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) ألفى الشيء: وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] أي: وجداه. [القاموس القويم: مادة (ل ف ى)].

(٣) وفَّى إليه حقَّه: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى لمفعولين فيقال: وفَّاه حقَّه. واسم الفاعل مُوَفٍّ: اسم منقوص. [القاموس القويم: ٢/ ٣٤٧].

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٢٣):
«فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: نصيبهم من الرزق. قاله أبو العالية.
الثاني: نصيبهم من العذاب. قاله ابن زيد.
الثالث: ما وُعدوا به من خير أو شر. قاله ابن عباس».

أي: سنعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون في الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار في أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعي يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذي يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا في طريق إفساد الكون ؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب [1]» أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفي هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ [2] مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ [3] ﴿١١٠﴾ ﴾

---

(١) النصيب: القسم والحصة من الشيء. قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة] أي: لهم حظ وقسم وحصة هي حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق، يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال] أي: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ١/٣٠١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق في اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود] أي: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)، (ك ل م)] بتصرف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] ورابه الأمر، يريبه ريباً وريبة: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجيء. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور] أي: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [التوبة] أي: مصدر شك ونفاق. وأرابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود] على سبيل التوكيد أي: في شك موصل إلى شك. وأراب الرجل، فهو مريب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ق] [القاموس القويم : مادة (ر ي ب)].

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد [1]، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

أي: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار.

ثم يأتي الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام في البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بني إسرائيل [2] ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعيٍّ ، لأن

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف].

رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبنى إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بنى إسرائيل منهجاً ، أما فى الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم – عليهم جميعاً السلام – وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين: مرة فى علاقته بفرعون ، ومرة فى علاقته ببنى إسرائيل.

وفى كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهى للناس عموماً ، من أول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتى باللقطة التى تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقَدْر المشترك فى دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم [1] مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد فى كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات [2] تلك

---

(١) ما – هنا – نافية بمعنى: ليس. أى: ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: فلان ميت الداء: لا يحقد على من يسىء إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء الظبى: الصحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الذئب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و أ)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات، وهى الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية[1].

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر[2] ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذي أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

---

(١) يقول الحق: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن: جُمعت قيم الأديان في الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم منذ بعثة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

واحد ؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله[1] ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال.

وهو سبحانه مُنزَّه فى ذاته عن أى تشبيه ، ولله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلىٌّ لا يتعدم ، وأنت موجود طارئ يتعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..(١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ..(١١٠) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى ﷺ قد أوتى الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

---

(١)توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله، يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام] وللذات عطاءات كلما ذكرته مُوحداً فأنت في رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات - فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبتْ له عطاءات الصفات، وفى أسمائه الحسنى الزاد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجـوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبـحانه قد جعل عذابهم آجلاً [1]، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه فى الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فـاصلاً ، كما حكم على الأمم السـابقة التى كانت مهمة رسلهم هى البلاغ ، ولم تكن مـهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هى التى تتدخل بالأمر النهائى.

لكن اختلف الأمـر فى رسالة موسى ﷺ ، فقد سبـق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود]

كأنهم فى شك من يوم القيامة ، وفى شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه فى أول الآية عن الاختلاف فى الكتاب وموسى ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [2] ﴿١١١﴾ ﴾

---

(١) وهذه هى الكلمة التى ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٢٢) : «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام]. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان] [القاموس القويم : مادة (خ ب ر)].

إذن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى ﷺ فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

ويبيِّن الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفَّى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت - لا محالة [1] - وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفراً أو إيماناً ، صلاحاً أو فساداً ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقفة في أسلوب النص القرآني، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملَكة [2] ، كما فهمها العرب الأقدمون.

ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة [3] على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع.

فاللغة - كما نعلم - ليست جنساً ، وليست دماً ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

---

(١) المحال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد. والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده. والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحَالة: الحيلة. والجمع: مَحال، ومَحاول - بفتح الميم فيهما - ويقال: لا محالة من ذلك، أي: لا بد منه. [المعجم الوسيط : مادة (ح و ل)] بتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط:مادة (ملك)].

(٣) فطر الشيء، فطراً: شقَّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] أي: خلقته التي خلق الناس عليها. وقوله تعالى: ﴿ .. هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك] أي: من صدوع، أي: هل ترى من خلل أو فساد في الخلق ، والاستفهام هنا للنفي، أي: لا ترى أي خلل. [القاموس القويم : مادة (فطر)].

والطفل الذى يوجد فى مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هى ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية فى الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربى الذى عاش فى حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرِّبْ هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك فى حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها فى المنازل والشوارع ونتخاطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها فى المدارس، وهى اللغة المصقولة [1] المميزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة[2]، وكانت اللغة الفصيحة هى «العامية» فى البادية ، ولم يكن الطفل فى

---

(١) المصقول: اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشيء صقلاً وصقالاً: جلاه . يقال: صقل السيف والمرآة ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذبه ونمقه. وصقل الدابة: تعهدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجادة شيء مثل اللغة ، والموهبة ، فيقال: صقل لغته ، أي: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أي: تدرب على استخدامها حتى اجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] بتصرف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية فى الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حُكي، أن سقَّاء أمر ابنه أن يمسك بفم قِرْبة الماء، فقال الغلام لأبيه :«يا أبَتِ إن القربة غلبتني فُوها أدرك فاها لا طاقة لي بفيها» وفى هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمس أو الست فهي تُعربُ بالواو رفعاً، وبالألف نصباً، وبالياء جراً، والأمثلة لا حصر لها وفى المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن اللغة التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالنا بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كِبَر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن في القرآن لحناً [1]، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا في القرآن لحناً ، ولو أنهم أخذوا لحناً على القرآن في زمن نزوله ؛ لأعلنوا هذا اللحن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولأمرٍ ما أبقى الله سبحانه صناديد[2] قريش وصناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً في القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

---

(١) لحن لفلان يلحن لحناً: كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية، أو تعريض، أو إشارة خفية. قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أي: إنك ستعرف المنافقين في أسلوبهم في القول بإخفائه وتحريفه، أي: ستعرفهم في خطأ القول وزلات اللسان. ولحن في كلامه: أخطأ. وفي « المعجم الوسيط » : لحنُ القول: فحواه، وما يفهمه السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً. والمراد باللحن في اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها. [القاموس القويم : مادة (لحن) بتصرف].

(٢) الصنديد: الشديد. والجمع: صناديد. ويقال: يوم حامي الصناديد: شديد الحر. ويقال: برد صنديد، وريح صنديد، ومطر صنديد، أي: شديد. وصناديد القدر: دواهيه. [المعجم الوسيط : مادة (صند)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَـهْمَزٌ لما منعـه كفره أن يبـين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المسـتشرقين الذين عاشوا في القـرن العشرين أن يجدوا لحناً في القـرآن ، وهم لم يمـتلكوا ناصـية اللغـة ملكة ، بل تعلمـوها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ[1] رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾

[هـود]

أي: أن كل واحد من الذين صـدَّقوا أو من الذين كذَّبوا ، له توفـية في الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصي العقوبة.

وكلمة «إنَّ» - كمـا نعلم - هي في اللغة «حرف توكيـد» في مقابلة مَنْ ينكر ما يجيء بعدها.

والإنكار - كـمـا نعـلم - مـراحل ، فـإذا أردت أن تخـبـر واحداً بخـبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً: «زارني فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر»، فأنت تقول له: «إن فلاناً زارني بالأمس».

---

(١) وفَى الشيء يفي وَفْياً: تم ولم يذهب منه شيء. ووفَّى الرجل بالعـهد وفاء: قـام به ونفذه، فـهو وافٍ. واسم التفضيل: أوفى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ..(١١١)﴾ [التوبة] أي: أن الله أعظم وفـاء ممن سـواه. وقال تعـالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] أي: الجـزاء الأتم الأكمل. ووفَّى إليه حقه: أوصله إليـه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمـفعولين فيقال: وفَّـاه حقه. واسم الفاعل: موفٍ «اسم منقـوص». قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾ [هود] [القاموس القويم : مادة (وفى)].

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تتحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فأنت تأتى بالتوكيد على حَسْب درجة الإنكار[1].

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ،قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذِّب أحداً.

ولذلك بيَّن الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدِّق ، والعاصى المكذِّب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ .. (١١١) ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتنوين فى كلمة «كلاً» ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين[2] يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) إن التوكيد للمنكر من فنون البلاغة، يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (٣/١٩٣): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس] ، فأكد بإن واسمية الجملة . وفى المرة الثانية : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾ [يس] ، فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥)﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة : هو نون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً وتفارقه خطاً، وهو أنواع منها تنوين التمكين والتنكير والعوض والترنم . [راجع : شرح الأشمونى على الألفية (١ / ١٨)].

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [1] (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

و«كلاً» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصى الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿ لَّمَّا ﴾ فى نفس الآية، فنحن نعلم أن «لما» تستعمل فى اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا [2] وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ [3] الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ [4] يُوسُفَ .. (٩٤) ﴾ [يوسف]

أى: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤) ﴾ .

---

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: هو تجويف خلف تجويف الفم، وفيه ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة؛ ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء، أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أى: بلغت الروح الحلقوم وهى خارجة من الجسد. [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف] أى: تم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) ﴾ [الدخان]. أى: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجمع: مواقيت. [القاموس القويم : مادة (وقت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ .. (٩٤) ﴾ [يوسف] أى: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم . مادة (فصل)].

(٤) قوله : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤) ﴾ [يوسف] أى: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أى : رائحته. [القاموس القويم ١ / ٢٨٠].

و«لما» تأتى أيضاً للنفى مثل قوله سبحانه:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» فى النفى تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[1] (١١١) ﴾ [هود]

أى: أن كلاً من الطائع والعاصى سيوفَّى حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتى أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التى كانت تأتى فى الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرأ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ تجد اللام ، وهى لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

---

(١) الخبير : من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) ﴾ [الأنعام]. وخبر الأمر، وخبر بالأمر، كعلمه، وعلم به - وزناً ومعنًى - فهو به خبير. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) ﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم : مادة (خبر)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسَى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالِم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرَّب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا: أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلِّي رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتى بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتى لنا العذاب[1]؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك - يا رسول الله - فى شىء،

---

(١) إن وعد الله له توقيته المراد له مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٢) ﴾ [إبراهيم] وقوله :﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (٤٤) وأملي لهم إن كيدي متين (٤٥) ﴾ [القلم]

أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة [1].

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل:

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ ﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة، وهي العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي، لا يمكن المساومة فيه، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي، ولكنه أمر ربَّاني ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

وقول الحق سبحانه:

﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ ﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على

---

(١) ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١) «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ①﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك».

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[1] (٣)﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ[2] كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا[3] إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

---

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : إذا جاءك نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة. ورأيت الناس: من صنوف العرب وقبائلها يدخلون في دين الله أفواجاً: أي: في دين الله الذي ابتعثك به. أفواجاً : يعني: زمراً (جماعات) ، فوجاً فوجاً . فسبح بحمد ربك: أي : فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، واستغفره : وسله أن يغفر ذنوبك. إنه كان تواباً : أي: ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب. [مختصر تفسير الطبري - بتصرف].

(٢) استقام الشيء : خلا من العوج. واستقام المؤمن : سلك الطريق القويم. قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ .. (٧)﴾ [التوبة] أي: حافظوا على الوفاء لهم بعهدكم ما داموا هم يحافظون على عهودكم، ولم ينكثوا العهد معكم. [القاموس القويم : مادة (قوم)].

(٣) طغا يطغو طغواناً وطغوى: فعل واوي، بمعنى: تجاوز الحد في الجور والتعدي. وطغى يطغى وطغى طغياناً : فعل يائي، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر]. أي: ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان. [القاموس القويم : مادة (طغى)].

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبتني هود وأخواتها»[1].

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ[2] .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ[3] .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

---

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/٣٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح» وأخوات سورة هود التي شيبت رسول الله هي سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أوتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء، وأدغمت في تاء الافتعال. واتقى الله: تجنب ما يغضبه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (و ق ى)].

(٣) التقاة: الاتقاء والتقوى، وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، والياء ألفاً، وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] . أي: إلا أن تخافوا منهم شراً، وتحذروا منهم مكروهاً لا تريدونه لأنفسكم. [القاموس القويم : مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك .. (١١٢) ﴾ [هود]

وهذا إيذان بالاً ييأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير (١١٢) ﴾ [هود]

يعني ألا نتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها [1] .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها [2] .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] أي: فعاقبوه على اعتدائه. وسمّى عقاب المعتدي اعتداءً؛ للمشاكلة. وعدا يعدو، عدواً: جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه. والمراد بعدم الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التي نهى سبحانه عن اقترافها. [القاموس القويم : مادة (عدا) بتصرف]

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً: فعلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الزنى .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أي: لا تأتياها ولا تلمساها ولا تأكلا منها والنهي من باب أولى عن الشيء. وكذلك: ﴿ ولا تقربوا الزنى .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] فإنه نهي عن القرب منه، وهو نهي عن المس وعن القبلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم : مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبتعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعي يرعى حول الحمى [(١)] يوشك أن يرتع [(٢)] فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» [(٣)].

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط ، وهي قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أي: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتي لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا [(٤)] .. (١٤١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال النووى في شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه» (٣/ ١٢٢٠) ط. فؤاد عبد الباقي.

(٢) الرتع: الأكل بشره، والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: وقعوا فى خصب ورعوا. [اللسان : مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف : جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون فى المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين : لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم : مادة (سرف)].

والنهى عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود [١] فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتى له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتنى لم أعطِ». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدِّدوا [٢] وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [٣] ؛ لأن الدين قوى متين [٤] ، و« لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » [٥].

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحِلِّ أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنَة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى فى ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ فى مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

---

(١) الأود : اى ما يكون قوتاً ضرورياً له، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشيء سداداً وسدوداً : استقام. يقال: سد السهم. وسد فلان: أصاب قوله وفعله. وسد قوله وفعله: استقام وأصاب، فهو سديد. والسداد: الاستقامة والقصد، والصواب من القول والفعل. [المعجم الوسيط : مادة (سدد) بتصرف].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩٩).

(٥) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أخرجه النسائى فى سننه (٨/١٢٢).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بيِّن[1] ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[2] لدينه وعرضه»[3].

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»[4] وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه[5].

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

---

(١) بيِّن: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدَّين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشىء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهرى: الذى فيه الميزاب، وإنما سمى حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) ومسلم فى صحيحه (١٣٣٣ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك: هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ [هود]

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾ [هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟[1] إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

---

(١) ركن يركن ركناً وركوناً: مال إليه وسكن. وركن الشيء: جانبه الأقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود] أي: ألجأ إلى حصن قوى يحميني، أو إلى رجل قوى يحميني وينصرني عليكم، كأنه ركن ممتنع حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. (١١٣) ﴾ [هود] أي: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) ﴾ [الإسراء] أي: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع وفصل في هذا الأمر.

ويأتي هنا توكيد هذا الأمر ؛ فيقول سبحانه:

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا[1] .. (١١٣) ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت للظالم ؛ أدخلت في نفسه أن لقوته شأناً في دعوتك.

والركون أيضاً يعني: المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وآفة الدنيا هي الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله لوجدت أن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرِض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل في نفسه ؛ حاسباً حساب القوة التي تركن إليها ؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفي هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم : مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو هضمه وانتقاصه، وهو ضد العدل. قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥) ﴾ [الكهف]. والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وظلام صيغة مبالغة يقول الحق : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول الحق : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً .. (٣٣) ﴾[الإسراء] [القاموس القويم ٩/٤١٦ ، ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ[1] النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود]

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداء مع منهج الله ؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا وليٌّ ولا ناصر إلا الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[2] مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ .

ونحن نلحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛ الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهي عن الشر دائماً.

ونلحظ أن الحق سبحانه قال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

---

(١) مسَّه يمسُّه مساً : أجرى يده عليه من غير حائل.
ومسته النار: أصابته، وباشرت جلده؛ فآذته.
ومسه المرض – على المجاز – : أصابه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء].
[القاموس القويم : مادة (مس)].

(٢) زلف إليه يزلف زلفة وزلفى: قَرُبَ ودنا. قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أى : قريباً . وهو وصف بالمصدر بلفظه، ويعرب حالاً، أى: ذا قرب، أي: قريباً قرباً شديداً.
والزلفى: القرب والمنزلة والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ .. (٣٧) ﴾ [سبأ] أي: قرباً، مفعول مطلق مرادف ، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. والزلفة: الطائفة من الليل، وجمعها: زلف. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أي: أوقاتاً وساعات من الليل. قيل: في أوله. وقيل: في أي وقت فيه. [القاموس القويم : مادة (زلف)].

ثم وَجَّه النهى للأمة كلها: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا .. (١١٢) ﴾ [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لأن الأمر بالخير يأتى للنبى ﷺ وأمته معه ؛ وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبى ﷺ .

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (١١٣) ﴾ [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ولأمته:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشىء» أى: جعله قائماً على الأمر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ [1] النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

أى: نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى ؛ لأن طرف الشىء هو نهايته.

---

(١) الطرف - بفتح الراء - : الجانب، ومنتهى الشىء. قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٢٧) ﴾ [آل عمران] أى: يهلك جانباً منهم، أى: طائفة منهم. وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أى: صباحاً ومساءً، والمراد: جميع الأوقات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ .. وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه] أى: جميع الأوقات [القاموس القويم، مادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين والتي على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ..(١١٤) ﴾ [هود]

يقتضي أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال [1] حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر [2].

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضي منا أن نفهم أن كلمة ﴿زُلَفًا﴾ هي جمع: زلفة، وهي مأخوذة من: أزلفه ، إذا قرّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

---

(١) الزوال: الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء. [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني العصر وحده، وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٢٨).

العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً [(١)]، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب [(٢)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [(٣)] .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر » [(٤)].

---

(١) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٣/ ٣٠) : «ذهب الجمهور إلى أن الوتر غير واجب بل سنة، وخالفهم أبو حنيفة فقال: إنه واجب، وروى عنه أنه فرض. قال ابن المنذر: ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة في هذا. ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشيخان من حديث طلحة ابن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والليلة. قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع».

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه ويكفر جاحده ويُعذب تاركه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين ما يلزم كل واحد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض كالإيمان ونحوه، وفرض الكفاية ما يلزم جميع المسلمين إقامته، ويسقط بإقامة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب: فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخبر الواحد والقياس والعام المخصوص والآية المؤولة كصدقة الفطر والأضحية. [التعريفات للجرجاني - صفحات ١٤٤ ، ٢٣٢].

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٣٠) أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقْضِ في ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٣) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن ماجه في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة.

واختلف العلماء فى معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هى ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هى ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات فى الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر : لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذى ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟.

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوى بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله.

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتساءل بعض العلماء: هل الفرائض هى الحسنات التى تذهب السيئات؟

وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات فى غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات [١].

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذى يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذى رزقنيه من غير حولٍ [٢] منى ولا قوة ، والحمد لله الذى

---

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة بعده».

(٢) الحول: الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

كسانى من غير حولٍ منى ولا قوة [1]. وهذا القول يكفّر السيئات.

ألم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم [2] ؛ فهذا القول كفارة [3]؟

إذن: فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرضٍ ، وهى تذهب السيئات . والسيئة هى عمل توعد الله - سبحانه - من يفعلهُ بالعقوبة.

وتساءل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجَّل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

---

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٢٣) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٢) عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهى من كنوز الجنة».

قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٤٨) : «رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواته محتج بهم فى الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد فى المتابعات ورواه ابن ماجه من طريق عمر أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحو الذنوب وغفرانها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ .. (٨٩)﴾ [المائدة] [القاموس القويم : مادة (كفر)]. وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة فى الحديث، وهى عبارة عن الفعلة والخصلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة أى : تمحوها وتسترها».

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١) (١٨) ﴾ [ق]

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ (٢) إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢) ﴾ [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ (٣) .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) لفظ النواة يلفظها لفظاً : رماها. ولفظ الكلمة: قالها. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق] أي: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أي: حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم : مادة (لفظ ، عتد)].

(٢) اللمم: صغائر الذنوب. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢) ﴾ [النجم]. [القاموس القويم : مادة (لمم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] : «كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخّر عقوبته إلى الآخرة» ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٥٦).

(٣) الفحشاء : الفحش، وهو العمل القبيح المنكر . قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة] أي: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل. والفواحش هي الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم : مادة (نكر)].

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلَّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدةٍ ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحسَّ بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمَّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة [1].

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

أي: أن إقامة الصلاة طرفي النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفي ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء غُفِل عنه ، أي: أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لِتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثاني يذكِّرك

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت» أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان.

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التى تمر به من المرائى والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التى فى بؤرة [1] الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار فى حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكِّر بما غاب فى حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً فى بحر ، فهذا الحجر يستقر فى بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفى من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة فى حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ فى تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هى قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التى تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعى ما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التى تتبع المعصية ، وهى العقاب.

---

(١) بؤرة الشيء: مركزه، أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) فى المخ. والبؤرة فى اللغة: الحفرة، وهى مأخوذة من البئر. أما البؤرة فى «علم الطبيعة» فهى نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شيء. [المعجم الوسيط : مادة (بأر) بتصرف وإضافة].

ولذلك يقال: «لا خير في خيرٍ بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّي ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقي لك من وقت ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلَكَ أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلَكَ أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي[1].

وهكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولأهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

---

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ فقال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٢٦) والبخاري في صحيحه (٢/ ٥٨٤ ، ٥٨٦ - الفتح). قال الشيخ سيد سابق في فقه السنة (١/ ١٠١) ، «من عجز عن القيام في الفرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة [1] وهى تحية لأمة محمد ﷺ؛ نظراً لأنها شرعت فى قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى.

لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة فى القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهى الباقية.

ويُحكَى أن الإمام علياً - كرم الله وجهه ورضى عنه - أقبل على قوم وقال لهم: أى آية فى كتاب الله أَرْجَى عندكم ؟

أى: ما هى الآية التى تعطى الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هي قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦) ﴾ [النساء]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التى يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠) ﴾ [النساء]

فكرر الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هى قول الحق سبحانه:

---

(١) وذلك فى ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، ذكره البخارى فى أول كتاب الصلاة (١/ ٤٥٨) فيه: قال النبى ﷺ : «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعنى فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربى» حديث ٣٤٩.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا [١] عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا [٢] مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. (٥٣)﴾ [الزمر]

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

فقال بعضهم: هي قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً [٣] أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ..(١٣٥)﴾ [آل عمران]

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا، فقال الإمام على كرَّم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم؟.. فقالوا: لا شيء.

---

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر] أي: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده. ومن حكم الصالحين: «لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف». [القاموس القويم: مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط يقنط قنوطاً: انقطع أمله في الخير، أو يئس منه، فهو قانط. وقرأ حفص بفتح النون في الماضي في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. (٢٨)﴾ [الشورى] وفي قوله تعالى: ﴿..فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾ [الحجر]، وقرئ: «من القنطين» - بكسر النون - كما قرئ بالحركات الثلاث في النون في قوله تعالى: ﴿.. وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر]. وقنوط: صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿.. وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت] أي: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم: مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فَحُشَ، وفَحَشَ، فحشاً، فهو فاحش: أي: جاوز الحد، وفعل القبيح. والفاحشة: الفعلة القبيحة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. (٢٨)﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ .. (١٥)﴾ [النساء] أي: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] أي: لا تقربوا الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم: واشرأبت [١] أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال لهم الإمام على: سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول: أرْجَى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه:

﴿ وأقم الصلاةَ طَرَفي النهارِ وزُلَفًا منَ الليلِ إنَّ الحسناتِ يُذهِبنَ السيئاتِ ذلكَ ذِكرَىٰ للذاكرينَ (١١٤) ﴾ [هود]

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل [٢]- أى: لا يلتفت - إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا على إنما الصلوات الخمس لأمتى كنهر جارٍ بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن [٣] ثم اغتسلَ فى البحر ، أيبقى على جسده شىء من الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمتى » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله فى عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

---

(١) اشرأب إليه، أو اشرأب له ، اشرئباباً، وشرئبيبة: مد عنقه، أو ارتفع لينظر. [المعجم الوسيط : مادة (شرأ)].

(٢) انفتل: التوى، وانصرف. ويقال: انفتل عن رأيه، وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم. [المعجم الوسيط : مادة (فتل)].

(٣) درن الشىء درناً ، وسخ وتلطخ. يقال: درن الثوب. ودرنت يداه بكذا. فهو درن، وأدرن، وهى درناء. وأم درن: الدنيا. [المعجم الوسيط : مادة (درن)].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ [1] عَلَيْهَا ..(١٣٢) ﴾ [طه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفى الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلى الفجر ، وفى اتقاء المعاصى يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب فى الأمرين: فى الإيجاب للطاعة ، وفى السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ [2] بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها [3].

وافرض أن واحداً يرغب فى أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

---

(١) اصطبر: على وزن افتعل، ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ..(١٣٢) ﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ..(٦٥) ﴾ [مريم]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ [القمر]. [القاموس القويم : مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حف القوم بالبيت، أو من حوله: أطافوا به وأحدقوا حوله. قال تعالى: ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ..(٣٢) ﴾ [الكهف] أي: جعلنا النخل يحيط بالجنتين. [القاموس القويم: مادة (حفف)].

وحف الشيء حفاً وحفافاً: استدار حوله وأحدق به. ويقال: حف الشيء بالشيء، وحوله، ومن حوله. [المعجم الوسيط : مادة (حفف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) قال النووى فى شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يقسي القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء عليّ تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاصْبِرْ[1] عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألاّ تدخل في مقام الإحسان نذراً[2]؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودّ إحساني ثم تفتر عنه ، وكأنك - والعياذ بالله -

---

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وهي الطاعة. وإما صبر على المحذورات، وهي النواهي. وإما صبر على المقدورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً لقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل». أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٠). والترمذي في سننه (١٥٣٨) وكذا النسائي (٧/ ١٧). قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القربة تطوعاً محضاً مبتدأ وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

قد جرَّبت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك.

وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه ، وبين من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فَرَضَ الله.

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ، وقم لتصلي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ، وحين يجئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ، وامتلأتَ بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر على مَنْ يرتاض [1] هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدَّعي ما ليس له ، والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن يضعها موضع التباهي والمراءاة.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاه عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

---

(١) راضه روضاً ورياضاً ورياضة: ذلَّله. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالتقوى، وراض القوافي الصعبة. وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القوافي: ذللت. والرياضة - عند الصوفية - : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلي عن الشهوات. [المعجم الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

﴿ .. عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا [1] عِلْماً (٦٥) ﴾ [الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى ﷺ:

﴿ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) ﴾ [الكهف]

وبيَّن العبد الصالح لموسى- بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً [2] (٦٨) ﴾ [الكهف]

وردَّ موسى ﷺ:

﴿ .. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) ﴾ [الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿ .. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً [3] (٧٠) ﴾ [الكهف]

---

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقاية وأدغمت في نونها مثل قوله تعالى: ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً (٧٦) ﴾ [الكهف] ، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] ، وإلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله تعالى: ﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً (٦٥) ﴾ [الكهف] ، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. (٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم : مادة (لدن)].

(٢) خبر الأمر، وخبر بالأمر، مثل: علمه، وعلم به - وزناً ومعنى - فهو به خبير. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) ﴾ [الفرقان] . وقال تعالى: ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٧) ﴾ [النمل] أي: بنبأ. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) ﴾ [الكهف] أي : علماً. [القاموس القويم : مادة (خبر)].

(٣) الذكر : القرآن، والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾ [مريم] أي: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم : مادة (ذكر)].

وجاء في [مختصر تفسير الطبري : ص ٣٣٧] في تفسير هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ..(٧٠) ﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر أنا لك ما ترى من الأفعال التي أفعلها وتستنكرها أنت، وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها».

ولكن الأحداث توالت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ..(٧٨)﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلي بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقي مع غير المرتاض على ذلك، وليلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلتزم المرتاض الأدب، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه.

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تأدب مع المرتاض لاستقرَّ ميزان الكون.

والحق سبحانه يبيِّن لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين، في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ويبيِّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [1] (١٧)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلي العشاء ، وينام إلى الفجر.

وتستمر مدارج الإحسان، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) هجع يهجع هجوعاً : نام ليلاً. قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [الذاريات] .
[القاموس القويم : مادة (هجع)].

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ [1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلِّف المسلم بذلك ، ولكن الذى يرغب فى الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [2] (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب فى مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم.

وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل فى ودٍّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) السَّحر - بفتح السين والحاء - : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه: أسحار. قال تعالى: ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير، أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين : السائل الذى يطلب الصدقة، والسائل المستفهم عن شيء. وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ [الأعراف] أى: لنحاسبن الناس والرسل يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة] أى: حُرمنا ثمر الحديقة وحُرمنا الخير كله. والحرمان: المنع. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ[1] يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[2] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه، تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. (٩٨) ﴾ [يونس]

وذكَّرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ، فهي إن دخلت على جملة اسمية ، فهي تدل على امتناع لوجود ، كقول إنسان لآخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت» وتسمى «لولا» في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهي أداة تحضيض ، وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجِّع طالباً على المذاكرة ، فتقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد في العام الماضي لما نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية».

---

(١) أولو البقية : أصحاب التمييز والعقل والنظر في العواقب وأصحاب الفضل الباقي والخير الثابت. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .. (١١٦) ﴾ [هود] . والبقية : الباقية والشيء الباقي. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

(٢) ترف ترفاً : تنعمٌ . وأترفه الله : نعَّمه وأعطاه ما يشتهي . قال تعالى: ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣) ﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦) ﴾ [هود] أي: جروا وراء شهواتهم وتمادوا في الترف فأبطرهم وأطغاهم. [القاموس القويم : مادة (ترف)].

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب: «لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ، وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛ لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ [(١)].

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هى التى ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتى لتطوح بالشىء التافه أولاً ، ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشىء القوى ؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بيَّن لنا أنه قد أهلك الأمم التى سبقت ؛ لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً، وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل مثل: ﴿ .. لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقترن باللام إذا كانت مثبتة في الغالب، وتتجرد منها إذا كانت منفية. قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. (٢١) ﴾ [النور] تجرد الجواب من اللام لأنه منفي بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب : «لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحته الآية التى بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتحضيض مثل (هلاّ) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. (٤٦) ﴾ [النمل] ، وتدخل على ماضٍ فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى -- وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى، كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. (١٣) ﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا .. (١٦) ﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام] ولولا هنا بمعنى (هلاّ) للتوبيخ، ويؤيده قراءة : «هلاّ إذ جاءهم بأسنا».

[القاموس القويم : مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ [1] وَلَا تَبْخَسُوا [2] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

فأنت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً.

ولنا المثل في موقف رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

---

(١) القسط : عدل، وأزال الظلم أو الجور. قال تعالى: ﴿ .. وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] أي: بالعدل.
وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ .. (٩) ﴾ [الرحمن] أي: بالعدل.
وقال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ..(٨٥) ﴾ [هود] أي: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها [١]، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمَّا سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي ؛ بأن الباقى من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقى الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفتة إيمان ويقين ، ويقول لها: «بقى كلها إلا كتفها» [٢].

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقى من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » [٣].

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ [٤] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

---

(١) أخرج أبو الشيخ فى «أخلاق النبى» (ﷺ) (ص٢٠١) عن ابن عباس «كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف». وأخرج البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) عن أبى هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : « حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وباق: اسم فاعل، مؤنثه: باقية. قال تعالى:﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] وقال تعالى:﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ..(٩٦) ﴾ [النحل].
والبقية: الباقية، والشىء الباقى. وجمع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات. قال تعالى:﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التى يبقى خيرها فى الناس هى خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

﴿.. ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً [1] (٤٦)﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا [2] (٧٦)﴾ [مريم]

إذن: لا بد أن تنظر إلى الباقيات فى الأشياء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .. (٦٠)﴾ [القصص]

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وإذا عضَّت الإنسان الأحداث فى أى شىء ، نجد أن سطحى الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقى.

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

---

(١) أمل يأمل أمْلاً وإملاً وأملاً : رجا يرجو. والأمل: الرجاء. قال تعالى: ﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه. [القاموس القويم : مادة (أمل)].

(٢) مردّ: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمى. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ .. (٤٣)﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ .. (١١)﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتماً. [القاموس القويم : مادة (ردد)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف] أن كلمة (خير مرداً)، أى: مرجعاً وعاقبة.

جُرحت ساقه جرحاً شديداً، وهو فى الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

وكان هذا القول يعنى أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمَّا قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ؛ فقد عافيت[1] فى أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ..(٤٠) ﴾ [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ..(١٥٧) ﴾ [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد فى كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) عفا النبت: كثر وطال، وعفا القوم كثروا، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ..(٩٥) ﴾ [الأعراف] أى: كثروا وعزوا واغتنوا، والعفو فى المال مازاد عن النفقة، يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ..(٢١٩) ﴾ [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً: تجاوز عنه، وعَفُوٌّ: صيغة مبالغة أى: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾ [الحج]، ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ..(١٩٩) ﴾ [الأعراف] أى: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] القاموس القويم (١/ ٢٧، ٢٨).

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ [1] مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ [2] فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ .. (١١٦) ﴾ [هود]

أى: لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ،وبقية من اليقين، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها.

والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار ، والاختبار ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ [3] فَيَذْهَبُ جُفَاءً [4] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ [5] فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) القرن من الناس: أهل زمان واحد. قال تعالى: ﴿ .. فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾ [الأنعام]، وجمعه: قرون. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. (١٣) ﴾ [يونس]. [القاموس القويم : مادة (قرن)].

(٢) فسد فساداً، والفساد: ضد الصلاح. وأفسده غيره: جعله فاسداً. قال تعالى: ﴿ .. وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿ .. وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل «تعثوا» أي: لا تفسدوا في الارض فساداً. [القاموس القويم : مادة (فسد)].

(٣) زبد الماء: ما يعلوه – عند جيشانه واضطرابه – من الرغوة وحطام الأشياء. وزبد المعادن: خبثها ونفايتها. قال تعالى: ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] شبه الله – سبحانه – الباطل بالزبد الذى يلقى ويرمى؛ لأنه لا ينفع الناس. [القاموس القويم : مادة (زبد)].

(٤) جفأت القدر: رمت زبدها عند الغليان. وجفأ السيل غثاءه: رماه وقذفه. ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: لا ينتفع به، ويلقى بعيداً، او يذهب ضياعاً كالجفاء. [القاموس القويم : مادة (جفا)].

(٥) مكث مَكْثًا ومُكْثًا : أقام في مكانه، وتفيد التأنى وعدم العجلة. قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى: استمر الهدهد في غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها؛ فيزيدها خصباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه] أى: أقيموا في مكانكم منتظرين. وقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة في أزمنة متطاولة. [القاموس القويم : مادة (مكث)].

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يُصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كوَّن الكون بكماله.

واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا [1] فِي الْمِيزَانِ ۞ ﴾ [الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلكم أن تعدلوا فى الكون فى الأمورالاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح ، ويرى الناس العاطل ، وهو يحيا فى ترفٍ من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

---

(١) طغى يطغو طغواناً وطغوى: بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدى وطغى يطغى طغياناً: تجاوز الحد . و«طغوى» من الواوى، و«طغيان» من اليائى. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۞ ﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى:﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ ﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القاموس القويم : مادة (طغى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف]: ﴿ .. وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ ﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا .. ۞ ﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

وينزوى أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهى غير مصونة بالعدالة.

وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ [1] وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ [2] .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتى بعد أن يتقلص الخير فى المجتمعات ، وفى النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق فى النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية فى الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

---

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذى تعارف الناس عليه وعرفوا انه حسن. قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ .. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم: مادة (عرف)] بتصرف.

(٢) المنكر: ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤) ﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم : مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوّامة» ، ويستسلم للنفس الأمّارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوّمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمّنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهى عن المنكر [1]؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» [2].

والعَالِم: هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضَّر الله وجه امرئ سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع» [3].

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾ [هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد فى الأرض.

---

(١) عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال : «قال السيوطي في الدرر: لا أصل له.» وكذا قال ابن حجر والدميرى والزركشي.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

ونرى أمثلة على ذلك فى القرية التى كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم شُرعاً [1] يوم السبت الذى حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ [2] قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً [3] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ [4] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [5] (١٦٥) ﴾

[الأعراف]

---

(١) شرع: ظهر وأشرف فهو شارع أى: بارز ظاهر، وجمعه شُرَّع: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] بارزة واضحة فى الماء. [القاموس القويم: ١/٣٤٦].

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عناد الكافرين: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكفرهم يستوى عندهم الأمران: الوعظ، وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿ .. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمى، واسم للعذر، وللحجة. وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ .. (١٦٤) ﴾ [الأعراف] أى: اعتذاراً له ببذل الجهد فى السعى لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ [القيامة] . [القاموس القويم : مادة عذر].

(٤) بؤس يبؤس بأساً: شجع واشتد، فهو بئيس، أى: شديد. ويقال: فارس بئيس، أى: قوى شجاع. قال تعالى: ﴿ .. وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ [الأعراف] أى: عذاب شديد. [القاموس القويم : مادة (بؤس)].

(٥) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقاً: خرجت من قشرتها. ومن هذا المعنى المادى أخذ المعنى المعنوى، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً. والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً؛ كالمسلم العاصى. قال تعالى : ﴿ .. إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨) ﴾ [السجدة] أى: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا – فى الآية الأخيرة – بمعنى: الكفر. [القاموس القويم : مادة (فسق)] بتصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهـوا عن السوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصرين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثاني: أن ينفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفي انفتـاح باب الترف علـى مصراعـيه مـذلّة للبشـر ؛ لأنك قد تـجـد إنـساناً لا تترفه إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنمـا ينشـأ لأن الإنسان يرى مـتـرفـين يتنعمـون بنعـيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [1] .. ⦗١٦⦘ ﴾[الإسراء]

وبعض الناس يفـهمون هذه الآية الكريمـة على غيـر وجهها ؛ فهم يفـهمون الفـسق على أنه نتـيجـة لأمر من الله - سبـحانه وتعـالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ [2] لَهُ الدِّينَ .. ⦗٥⦘ ﴾ [البينة]

أي: أن الحق سـبحانه أمـر المتـرفين أن يتبعـوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

---

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متنعميها بطاعة الله. فـفسقوا: فتمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله: طهّره وصفّاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ⦗٢⦘ ﴾ [الزمـر] ، وقـال تعـالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ⦗٤٦⦘ ﴾ [سـورة ص] أي: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خـاصة هي ذكرى الدار الآخرة، فذكراها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل، وهي فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم:مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكادحين.

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان. ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطغته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه. وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ [1] كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً [2] .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظنن ظان أنه يدلله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من علٍ ، فيزداد ويعظم ألمه . وكأن الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطغوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس منشرحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

---

(١) الباب: مدخل المكان، وجمعه: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره . قال تعالى: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.
وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧) ﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مغلق فلتح وتدفق العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه، وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغته بغتاً وبغتة: فاجأه على غرة وغفلة. قال تعالى: ﴿ .. فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إن فُتح عليك ؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فُتح لك ، فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا (١) لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ؛ لأنهم غفلوا عنه.

وينُهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل ؛ وهو اتباع منهج السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» (٢) وتعنى: «قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء ؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ، وأخذ نتيجة عرق وجهد الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

---

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق. ويسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ۝ ﴾ [الأعراف] أى: انصرنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم. وقال تعالى: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .. ۝ ﴾ [الأعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا ينالون رحمته كان السماء مغلقة أمامهم كما تغلق أبواب الملوك في وجه الذين لا يرغبون فى لقائهم. [القاموس القويم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشىء جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على عمل الشر. يقال: جرم: أذنب، وجنى جناية. وجرم المال: كسبه من أى وجه. وجرمه: حمله على فعل شر أو ذنب وجرم. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ۝ ﴾ [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم. أى: اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى. [القاموس القويم - مادة : جرم].

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ[1] الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

وساعة تقرأ أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذهنك: ما كان ينبغى[2].

ومثال ذلك: هو قولنا: «ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا» . وقولنا هذا يعنى أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغى أن يصدر منه.

وهناك فرق بين نفى الوجود ؛ ونفى انبغاء الوجود.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس]

وهذا لا يعنى أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ الله - أن يتذوق المعانى الجميلة ؛ لأنه ﷺ جُبل[3] على الرحمة ؛ وقد قال فيه الحق سبحانه:

---

(١) هلك، يهلك هلكاً وهلوكاً وهلاكاً، ومهلكاً - بفتح اللام وبكسرها - وتهلكة : مات وفنى، فهو هالك. قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ .. (٤٩) ﴾ [النمل]. وقوله تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] أى: ذهب وضاع ولم يبق لى عز ولا سلطان. وقوله تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ .. (١٧٦) ﴾ [النساء] أى: مات وليس له ولد يرثه. وأهلكه: أماته وأفسده، أو كان سبباً فى هلاكه. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) ﴾ [النجم] أى: أفناهم وأبادهم. [القاموس القويم : مادة هلك] بتصرف.

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى «فتح الرحمن» (ص ١٩٥) : «نفى الله الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل فى النفى، لأن اللام فيه لام الجحود، والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه: ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله فى الحال، ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى».

(٣) جبل الله الخلق جبلاً : خلقهم. ويقال: جبله على كذا: طبعه. وفى الأثر: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها». وجبل الشىء: شده وأوثقه. وجبل فلاناً على الشىء والأمر: جبره. [المعجم الوسيط: مادة (جبل)].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

ولهذا نفهم قوله الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩)﴾ [يس]

أى : أن الحق سبحانه لم يشأ له أن يكون شاعراً.

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نفى الوجود» وبين «نفى انبغاء الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧)﴾ [هود]

أى: لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم ؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه واهب كل شىء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق فى العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر.

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن - فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ (١) الْبَحْرِ ..(١٦٣)﴾ [الأعراف]

وقوله الحق أيضاً:

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ (٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا ..(٨٢)﴾ [يوسف]

---

(١) حاضرة البحر، أى: مشرفة عليه، مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس القويم ١/١٥٩] بتصرف.

(٢) القرية: البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ .. (٥٨)﴾ [البقرة] ، ثم قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. [القاموس القويم ٢/١١٥].

والحق سبحانه فى مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التى نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين.

والله سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧) ﴾ [هود]

أى: أنه مُنَزَّه عن أن يهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل؛ لأن العدل ميزان، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفى مجالنا البشرى ؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ؛ فنحن نتعبه فعلاً ؛ لكننا نريح كل المظلومين ؛ وهذه هى العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى ؛ فقد تحدث الجريمة اليوم ؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنينات الوضعية ؛ ففى هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضى ؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامى على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوَّة[1] وجود الأثر النفسى عند المجتمع ؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب

(١) حموة الألم: سورته، وشدته، سواء أكان الألم مادياً أم معنوياً. [المعجم الوسيط : مادة: (حمو)] بتصرف.

المجرم، ويذكّر الجميع ببشاعة ما ارتكب ؛ ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها.

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [1] (١١٧) ﴾ [هود]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [2] (١٣١) ﴾ [الأنعام]

إذن: لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا

---

(١) أصلح الأمر إصلاحاً: أزال إفساده. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]. وأصلح بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف وخصام. قال تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .. (١٠) ﴾ [الحجرات] . ومصلحون: جمع مصلح. والمصلح: اسم فاعل، من الفعل «أصلح». قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ .. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود] . وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (صلح)] بتصرف.

(٢) غفل عن الأمر، يغفل غفولاً: تركه عمداً، أو عن غير عمد. وأغفله - متعد بالهمزة -: تركه عن عمد. وأغفل غيره عن الأمر: جعله يغفل عنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى: جعلناه غافلاً عن ذكرنا. والغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] أى: غافلاً عن إدراك القيامة، وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. وقال تعالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] أى تسهون عنها وتتركون حراستها فينقضون عليكم. وقال تعالى: ﴿ .. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ [البقرة] أى: أن الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهو عن شيء منه. وقال تعالى: ﴿ .. أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] أى: الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون إليه فيعرضون عنه. [القاموس القويم : مادة (غفل)] بتصرف.

بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر ؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها [1].

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود]

والإصلاح فى الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا فى الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف فى الحياة.

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة فى الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى فى الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا.

وسبق أن قلنا: إن المصلح هو الذى يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدى إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود فى أقل وقت.

والقرى التى يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاضد، ويتواجد المجتمع المنشود.

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء].

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتدوا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الأمم الملحدة التى اهتدت إلى شىء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشرى أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعضهم الأحداث.

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، لكنهم يصلحون أنفسهم.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فإن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

وَلذلك نجد - في البلاد التي فتحها الإسلام - أناساً بَقَوْا على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أي بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمي حق الإنسان في اختيار عقيدته.

يقول الله جَلَّ علاه :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصْلحة ؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

---

(١) حرث الأرض، يحرثها حرثاً: أثارها وهيأها للزرع، أو ألقى فيها الحب للزرع. وحرث الأرض: زرعها. قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] . ويطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة] أي: يهلك المزروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزرع فهن يلدن لكم الذرية. ومن المجاز قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] أي: في ثواب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [القلم] أي: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة. [القاموس القويم : مادة (حرث)].

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - في هذا الكون كل مقومات الحياة ؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة في الأرض ؛ ولم تتأبَّ [1] تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق - سبحانه - هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو - سبحانه - لن يضن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله - سبحانه - لكل البشر: مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني: «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة [2] .

إذن: فقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدي مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام أراده الله - سبحانه وتعالى [3] - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أي من الكائنات الأخرى المسخَّرة عن إرادته.

---

(١) أبى إباءً وإباءة، وتأبَّى عليه: استعصى. وأبَى الشيء: كرهه ولم يرْضه. وفي التنزيل العزيز: ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره .. (٣٢) ﴾ [التوبة] . وفي المثل: «رضي الخصمان وأبى القاضي» يضرب لمن يطالب بحق نزل أصحابه عنه. [المعجم الوسيط : مادة (أبى)] بتصرف.

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢) ﴾ [فصلت] .

(٣) يقول تعالى: ﴿ .. ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) ﴾ [النحل]. ويقول: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. (٤٨) ﴾ [المائدة]. ويقول أيضاً: ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته .. (٨) ﴾ [الشورى].

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير أجناس لمراده ؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه - القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

أما الذي يثبت له المحبوبية فهو أن يخلق خَلْقاً ؛ ويعطيهم في تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كلُّ واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن يعصي ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبية الله - تعالى.

وهكذا نعلم أن الكون المسخَّر المقهور قد كشف لنا سيَّال [1] القدرة، والجنس الذي وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبية.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..(٢٩)﴾ [الكهف]

ولكن أيُترك الإنسان حتى يأتي له الغرور في أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا .. فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن في طيِّك قهراً [2] ، وما دام في طيك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهَّم أنك مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك [3] في القهريات التي تحفظ لك

(١) سال يسيل سيلاً، وسيلاناً، ومسيلاً، ومسالاً، فهو سائل، وسيَّال: جرى وطغى. ويقال: سالت الأرض ونحوها، وسالت بما فيها، وسالت عليه الخيل وغيرها: جرت من كل وجه وتدفقت. وسال بهم السيل، وجاش بنا البحر: وقعوا في أمر شديد، ووقعنا نحن في أشد منه. وسالت الغرُة: استطالت وعرضت في الجبهة وقصبة الأنف.

وسيَّال القدرة الإلهية: ظهور آثارها في جميع المخلوقات، وانتشارها وشمولها لكل شيء في الكون، ما علمنا منه وما لم نعلم. [المعجم الوسيط : مادة (سيل)] بتصرف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع البديل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله ، إذن : للاختيار حدود مقرونة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية.

(٣) الزمام: الخيط الذي يشد في البُرَة أو في الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود. ويقال: «هو زمام قومه» : قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم. وهو زمام الأمر: ملاكه. وألقى في يده زمام أمره: فوَّضه إليه. ويملك الله زمامك: أي: يملك أمورك كلها. [المعجم الوسيط : مادة (زمم)] بتصرف.

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه- ميِّزك بالعقل.

وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ، فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»[1] وتعني : «ربط» ؛ فلا تجمح[2] بعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك. وتذكر دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفي زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه.

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ، أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع.

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية في الإنسان لما عَصَتْه ، وهذا دليل على أنها أمور موهوبة من الله ، وإنْ شاء أخذها، فهو - سبحانه - يأخذها ليؤدِّب صاحبها.

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقُل لنفسه: إياك أن تَغترَّ بأن الله

---

(١) عَقَل يعقلُ عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقلَ البعير: ضمَّ رُسْغ يده إلى عَضُده وربطهما معاً بالعقال؛ ليبقى باركاً. والعقل: ما يكون به التفكير وتصوُّر الأشياء على حقيقتها، كقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ .. ۝٧٥﴾ [البقرة] أى: أدركوه على حقيقته وعلموه علماً ثابتاً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك] أى: لو كنا ندرك الأمر على حقيقته. وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم، وحث على استعمال العقل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة] .[القاموس القويم : مادة (عقل)] بتصرف.

(٢) جمح: أسرع. والجموح: الرجل يركب هواه فلا يمكن ردُّه. [مختار القاموس - مادة جمح].

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكَّر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقَّى التكليف من الله بـ «افعل»[1]، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا»: أنك صالحٌ ألاّ تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا»: أنك صالحٌ أنْ تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْر وتسخير، فتأدَّبْ في منطقة الاختيار، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ[2] (٦)﴾ [العاديات]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية فيَّ مقهورة، ومادامت الجمادية فيَّ مقهورة؛ فلأكُنْ مؤدباً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إنْ أردتَ أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يَرِدْ فيه تكليف بـ «افعل» و«لا تفعل» لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إنْ جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك.

---

(١) وكلمة افعل ولاتفعل تدور حول مطلوبات المنهج أمراً ونهياً، فالفرض والواجب والسنة والمستحب مأمور بهم. والحرام والمكروه منهيٌّ عنهما، وللأمر عطاؤه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)﴾ [فصلت] وللنهي عقابه أو المغفرة من الله.

(٢) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها، فهو كاند، وصيغة المبالغة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾ [العاديات] أي : كَفُور شديد الجحود . [القاموس القويم: مادة (كند)].

فساعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكّى عن مالك، فلابد لك من أن تقدِّر المقابل، لأنك إن افتقرتَ واحتجْتَ ؛ سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبِّى احتياجاتك، فمن «افعل» التى تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتى الثمرة التى تسدُّ عجز أى ضعف فى المجتمع الإيمانى بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف: لا تعتد على حُرمات الغير، فهو يقيِّد حريتك فى ظاهر الأمر ، لكنه يحمى حُرماتك من أن يعتدى عليها الغير ، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (١١٨) ﴾ [هود]

و «لو » تفيد الامتناع[1] . أى : أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

---

(١) لو : حرف شرط غير جازم، ومعناه: امتناع الشرط لامتناع الجواب. قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة]. ويقترن جوابها باللام للتوكيد ، وقد لا يقترن باللام ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة] ويقل اقتران جوابها باللام إذا كان منفياً كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ثم قال: ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] . وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ .. (٣١) ﴾ [الرعد] الجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن العظيم يفعل ذلك ، ولكن الله لم يجعل قرآناً بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢/٢٠٦].

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «أن» ويكثر ذلك بعد كلمة «ودَّ»، وكلمة «أحبَّ»، وما يشبههما، كقوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] أى : يود التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يودّ».

وقد تستعمل «لو» للتمنى، مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا .. (١٦٧) ﴾ [البقرة] وهى على لسان بعض أهل النار يوم القيامة الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليتبرءوا من الكبراء الذين كانوا يتبعونهم فى الدنيا ثم تنكّروا لهم فى الآخرة . [القاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألاّ تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ..(٢١٣)﴾ [البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج.

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قُوتهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ[1] فَلا يَضِلُّ[2] وَلا يَشْقَى[3] .. (١٢٣)﴾ [طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الأمر، وهي ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ..(١١٨)﴾ [هود]

---

(١) هداه الطريق يهديه هدياً وهداية وهُدًى: أعلمه إيَّاه، وعرّفه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ. ومن المجاز المعنوي: هداه الحقَّ، أو هداه إلى الحق: دلَّهُ عليه وأرشده إليه.

والهُدَى : مصدر الفعل «هدى»، ويأتي بمعنى الرشاد، ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] أي : هادٍ للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] فالكتاب هُدًى للمتقين، أي : هادٍ لهم. وأما إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ .. (٢)﴾ [البقرة] فيكون هُدًى مصدراً بمعنى هداية، أي في الكتاب هداية للمتقين لا ريب في ذلك. [القاموس القويم: مادة (هدى)] بتصرف.

(٢) ضلَّ الكافر: غاب عن الحجة المقنعة وعدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ..(٥٠)﴾ [سبأ] . [القاموس القويم : مادة (ضلل)].

(٣) شقي شقاً شقاءً وشقاوة : ساءت حاله المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. قال تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ..(١٠٦)﴾ [المؤمنون] أي : حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. وقال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)﴾ [طه] أي : لتحزن وتتألم أسفاً على عصيانهم [القاموس القويم: مادة (شقي)] بتصرف.

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول - سبحانه :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم - عليه السلام - ثم طرأتْ الغفلة[1] ؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (١١٨)﴾ [هود]

يعنى أنه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .. (١١٨)﴾ [هود]

أى : أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، يقول الحق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. (٢٢)﴾ [ق] وتأتى بمعنى عدم الإدراك للحق ، وعدم الاهتداء إليه يقول الحق: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩)﴾ [الأعراف].

وغفل عن الأمر غُفولاً تركه عمداً أو عن غير عمد، وأغفله متعدٍّ بالهمزة: تركه عن عمد . وأغفل غيره عن الأمر : جعله يغفل عنه ، يقول الحق: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٨)﴾ [الكهف] أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصرف وترتيب ص ٥٧ جـ ٢].

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾

أى : أن الحق - سبحانه - قد خَلَقَ الخَلْق للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضميراً» عائداً على كلام متقدِّم، فنحن ننظر ماذا تقدم. والمتقدم هنا : ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

ومعنى العبادة[1] هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية تحكَّمتْ فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدُّد الأهواء.

فلو أن هوانا كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكنَّا نختلف نتيجة لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يمينى ؛ وذاك هواه يسارى ؛ وثالث هواه شيوعيٌّ؛ ورابع هواه رأسمالىٌ؛ وخامس هواه وجودىٌ، وكل واحد له هوى[2] .

---

(١) عبدالله يعبده عبادة وعُبودة: أطاعه، فهو عابد. قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة]. [القاموس القويم: مادة (عبد)] بتصرف.

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] .

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ[1] لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرتْ حركته الاختيارية عن هوًى واحد؛ ولذلك قال النبي ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[2] .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة في كل مناحي الحياة ؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكاملٍ وضرورة ؛ لا ارتباط تفضُّل.

---

(١) هَوِيَهُ يهواه هوًى : أحبه. وأكثر ما يستعمل في الباطل وفي الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ .. (١٣٥)﴾ [النساء] أي : ما تهواه أنفسكم وما تشتهيه فيضلكم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا .. (٧٧)﴾ [المائدة] [القاموس القويم ٢/ ٣٦٠ ، ٣٦١].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١/ ١٢) من حديث عبدالله بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعَّفه.

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ [1] لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء[3]، والتى تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم[4]، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرىء ما يُحسنه.

---

(١) الدرجة : المرقاة يرقى عليها الصاعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السُّلَّم، تستعار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والجاه، وفى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ .. (١٦٣)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وفى الثواب كُلٌّ بحسب عمله. قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ..(١٥)﴾ [غافر] أى: أن الله عنده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله عالٍ متعالٍ فوق أعلى الدرجات عليُّ القَدْر، جلَّ شأنه. [القاموس القويم ١/ ٢٢٥].

(٢) سَخَرَهُ يَسْخَرُه : أذلَّه وقهره وأخضعه. قال تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] وسخَّره بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يُريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..(١٦٤)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: ١/ ٣٠٦]

(٣) الرعونة : الحمق. والأرعن: الأهوج فى منطقه. [لسان العرب. مادة : رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذى يرتدى ملابس رثة[1] ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندى لإصلاح سيارتك ؛ فيلحّ صاحب السيارة الفارهة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك فى أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قُلْ لنفسك : لابد أن هذا الإنسان متفوق فى مجال ما.

ونحن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف[2] فى المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولِّد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان ، ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخِّص الداء ، ويصفَ الدواء الشافى بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وأنت إن دقَّقت النظر فى الاختلاف لوجدته عين الوفاق.

---

(١) الرث: القديم البالى من كل شىء. وأرث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف فى المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشىء وضده.

ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابناً يفضِّل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الوِرك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر، ولكن باطنه وِفَاق ، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض ؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل : هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول : إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنفكّة.

ثم يقول - سبحانه - في نفس الآية : ﴿.. وَتَمَّتْ[1] كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ[2] وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أزلاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزليّ لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال - سبحانه : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي : علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عباده سيختار أن يعمل في الدنيا عملَ أهل النار، ومن سيختار أن يعمل عملَ أهل الجنة ؛ لسبْق علمه الأزليّ بمرادات عباده واختياراتهم.

وسبق أن ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذي

---

(١) تَمَّ الأمر يتمُّ تمّاً وتماماً: كَمُلَ وتحقق وهو تامٌّ وتميم، ويكون حسياً ومعنوياً. قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. (١١٥)﴾ [الأنعام]أي: كَمُلَتْ وتحققت. وتمّ الشيء: كَمُلَتْ أجزاؤه. قال تعالى :﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الأعراف] أي: كَمُل العدد المحدد لمناجاة موسى عليه السلام. وأتمَّ الشيء: أكمله على أحسن وجه. قال تعالى: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٣)﴾ [المائدة] أي :على أكمل وجه، ليس فيها نقص. [القاموس القويم: ١/١٠١ ، ١٠٢] بتصرف.

(٢) الجِنَّة - بكسر الجيم - : الجنّ . قال تعالى : ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١/١٣٢].

يعلن للأساتذة ضـرورة ترشيح المـتفوقيـن فى كل قسم ؛ لأن هناك جوائز فى انتظارهم، فيـرشح كل أستاذ أسماء المتـفوقين الذين لمسَ فيهم النبـوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفـاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجأ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قـد تحـدث مفـاجأة : أن يـتخلف واحد من هؤلاء الطلبـة لمرض أصابه أو طارئ يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختلّ تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزَّه عن الخطأ، وما علمـه أزلاً فهو مُحقَّق لا مـحالة؛ لذلك بيَّن لنا أنه علْم أزلىّ، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ[1] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد]

وسمعها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان - ولو نفاقاً.

وقول الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبيَّن لنا أن الحق - سبحانه -

---

(١) تَبَّ يَتُبُّ تبّاً وتبـاباً : خسرَ وهلك. قـال تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسـد] دعاء عليه بالخسران أو بالهلاك - ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه؛ لأنهما آلة البطش والإيذاء.

والتباب : الهـلاك . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ(٣٧) ﴾ [غافر] وتبَّبه تـتبيباً أهلكه. قال تعالى : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود] أى: إهلاك وتخسيـر. [القاموس القويم: ١/ ٩٦]

إنْ قال شيئاً فهو قد تَمَّ بالفعل ؛ فلا رادَّ لمشيئته ، أما نحن فعلينا أن نسبق كل وعد بعمل سنقوم به بقول: ﴿ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾

[الكهف]

لأن الحق يقول لنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ[1] لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وفي هذا احترامٌ لوضعنا البشرى، وإيمانٌ بغلبة القهر، ومعرفة لحقيقة أننا من الأغيار ؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً ؛ ومفعولاً يقع عليه الفعل ؛ ومكاناً ؛ وزماناً ؛ وسبباً ؛ ولا أحدَ مِنَّا يملك أيَّ واحد من تلك العناصر.

فإن قُلْتَ: ﴿ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تكون قد عصمتَ نفسك من أن تكون كاذباً، أو أن تَعدَ بما لا تستطيع، لكن إذا كان مَنْ يقول هو مالك كل شيء، ولا قوة تخرجه عَمَّا قال، فهو وحده القادر على أن ينفِّذ ما يقول.

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله - تعالى - يتجرد عن

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١) عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من قريش سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور وذلك بعد مشورة اليهود: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يقل : «إن شاء الله» ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله له في ذلك وَحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، فنزلت هذه الآية وهذه السورة (الكهف) فيها خبر ما سألوا عنه.

الزمن: فلا نقـول: «فعل ماضٍ» أو «فـعل سيحـدث في المستـقبل» أو «فعل مـضارع»؛ لأن تلك الأمـور إنما تُقَـاسُ بها أفـعال البشـر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقـياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ [1] فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [2] .. (١) ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ أَتَىٰ ﴾ بمعنى : تَقرَّر الأمر ولم يُنفَّذ - بعد - فلا تتعجلُـوه؛ وهذا هو تحدِّي القيومية القـاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقـوع أمر شاءه الله - سـبحـانه وتعالى - فهـو يحكم فيما يملك، ولا مُنَازِع له سبحانه.

وقوله الحق : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان [3] المكلَّفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

---

(١) أمر الله : عقابه لمن أقام على الشـرك وتكذيب رسوله. [قاله القرطبي ٥/ ٣٧٨٩] وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦١): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عـاجلاً سريعاً. قال تعالى : ﴿ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . [القاموس القويم: ٢/ ٩].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحـمْلين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَـلَانِ (٣١) ﴾ [الرحـمن]. وهو خـبـر المقـصـود منه التـهـديد والوعـيد. [القـامـوس القويم١/ ١٠٨].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ[1] بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ[2] ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿ وكلا ﴾ فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا أنْ ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله- تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ[3] ..(٧٠) ﴾ [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى، فإياك أنْ تشتقّ من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ[4] ..(١٢٠) ﴾ [هود]

والذي يقصُّ هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد في إمكانه أن

---

(١) ثبّتهُ : جعله ثابتاً مُتمكّناً . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء] أي : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف. [القاموس القويم: ١/١٠٥].

(٢) قوله تعالى : ﴿ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود] : «أي هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا . والصحيح : في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون» قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل]

(٤) قصَّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً وقصصا تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص]. وقصَّ الأمر قصاً تتبعه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا.. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] . والقصص مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]. [القاموس القويم بتصرف جـ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصَّاص، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماكر، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[1] (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول: الله المخادع، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ[2] .. (١٤٢) ﴾ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال؛ وأن نكتفي بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة[3] ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

---

(١) مَكَرَ يمكر مكراً: دبَّر الشر لغيره في خفية واحتيال. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. (٢١) ﴾ [يونس] أي: تدبير سيِّئ بقصد صرفها عن وجهها وصدِّ الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون. كقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾ [النمل]. [القاموس القويم: ٢/٢٣١، ٢٣٢].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخْفيه ليوقعه في مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال] وخادَعَه: خدعه أو حاول ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء] أي: يُظهرون الإيمان نفاقاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطلٌ خداعهم، وكاشف أمرهم، ومعاقبهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١/١٨٨].

(٣) المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. فالأول: كقوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .. (٥٤) ﴾ [آل عمران]، فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الباريء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه. ومثال التقديري قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ .. (١٣٨) ﴾ [البقرة] أي: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، فعبر عن الإيمان بـ «صبغة الله» للمشاكلة بهذه القرينة. الإتقان للسيوطي (٢/٢٨٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

و « أنباء » جمع «نبأ» ، وهو الخبر العظيم الذى له أهمية ، والذى يختلف به الحال عند العلم به، وأخبار الرسل - عليهم السلام - تتناثر لقطات مختلفة عبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحةً ما جاء به كل رسول معالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق - سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا[1] حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ[2] وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوراً حال المؤمنين[3] :

---

(١) زلزل الشيء: حركه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]. وقوله تعالى : ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب] أى: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطرابا شديداً - على التشبيه بالشيء المادي. [القاموس القويم: ١/٢٨٨].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شَعْيا فى قول مقاتل ، وهو اليسع. وقال الكلبى: هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحاك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك فى غزوة الأحزاب، فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بنى النضير وبنى قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون مُحاصرين داخل المدينة قريباً من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٣/٤٧٠)].

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ[2] وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا[3] (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيمانى بربٍّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً . وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التى تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التى يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه: «القلب»، وهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشُم، ومن فَمٍ يستطعم، ومن كفٍّ تلمس -

---

(١) زاغ يزيغ زيغاً وزيغاناً : مال عن القصد . وزاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئاً. قال تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] أى: ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠)﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع. [القاموس القويم: ١/٢٩٤] بتصرف.

(٢) الحنجرة - فى اللغة - : الحلقوم والحلق ، وهى علمياً تسمى القصبة الهوائية ، ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ..(١٠)﴾ [الأحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن أمارة فهو شك راجح، وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر - والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون، وقرىء : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب] الظنونا - بالف فى الوصل، وفى الوقف - وبغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ١/٤١٧].

فتتولد المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ في الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» - من العقدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها[1] تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التي استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرِقة، ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسي بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته.

لابد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

---

(١) مَحَصَ الشيءَ ومحَّصه : خلَّصه من عيوبه . يقال : محص المعدن بالنار : خلَّصه مما يشوبه . ومحص السيف : جلاه . ومحَّص الله التائب من الذنوب : طهَّره منها . ومحَّص فلاناً : ابتلاه واختبره . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولابد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلِّف قبل أن يُقبِلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتي الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى - قبل أن تأتى الموعظة[1] ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يَعظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعظ به ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فلْتعظْ نفسك أولاً.

---

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] . ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/ ٣٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿ كَبُرَ مَقْتًا[1] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذى يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطى الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : « لو كان فى هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه ».

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كمُثَبِّت ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكَّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التى سيعانى منها مَنْ لايأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلَّفين - مثلاً - أن الأمر بغَضِّ الطَّرْف[2]

---

(١) مَقَتَهُ يمقته مقتاً : أبغضه بغضاً شديداً؛ لأمر قبيح فعله.

ومَقْتُ الله : غضبه وانتقامه وعذابه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٠) ﴾ [غافر] أى : أن غضب الله عليكم أكبر من بغض بعضكم بعضاً، وانتقام بعضكم من بعض. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾ [النساء] أى: أن زواج من سبق أن تزوجها الأب يعتبر فعلة فاحشة شديدة القبح، وتكون سبباً فى مقت الناس وبغضهم الشديد لمرتكبها، وسبباً فى مقت الله وغضبه وانتقامه من فاعلها؛ لأنها عقوق بالآباء وخَلْط للأنساب.[القاموس القويم: ٢/٢٢١].

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على العين وعلى البصر. قال تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ..(٤٥) ﴾ [الشورى] أى: من جانب العين فى خفاء. وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) ﴾ [الصافات] أى: غاضات البصر من العفة، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..(٤٠) ﴾ [النمل] أى: بصرك، أى مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غور[1] الفهم بأن في غَضِّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في الزكاة أنها أَخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن في الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيماني التأمين الاجتماعي الذي يحميه وعياله من مَغَبَّة السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ[2] الْقُرْآنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]

لأنك حين تتدبر المعاني ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلفني الله إلا لخير نفسي ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

---

(١) سَبَرَهُ سَبْراً : حَزَرَهُ ، أو خَبَرَهُ . يقال: سَبَرَ الجرح: قاس غَوْرَهُ بالمسبار. وسَبَّرَ فلاناً: خَبَره ليعرف ما عنده. والغَوْر: كل منخفض من الأرض، والغور من كل شيء: قعره وعمقه. يقال: سَبَرَ غوره: تبيَّن حقيقته وسرَّه. ويقال: فلان بعيد الغَوْر: داهية. وماء غَوْر: غائر. وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]. [المعجم الوسيط: مادة (سبر)، (غور)].

(٢) دَبَّر الأمر: نظر في عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ..﴿٣﴾﴾ [يونس] أي: يقضيه ويقدِّره وينفذه على حسب حكمته وإرادته. وقوله تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبَّر : تأمل في أدبار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] أي: هل عجزوا وعَمُوا فلا يتأملون معاني القرآن، ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً فسَّرناه هنا بقولنا: أَعَجَزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون] أي : أعجزوا فلم يدبروا، والأصل: يتدبروا، قُلبت التاء دالاً، وأدغمت في الدال. [القاموس القويم: ١/٢٢١].

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد فى الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاوِمٍ له.

إذن : فموقف خصوم النبى ﷺ موقف طبيعى لصالحهم، ولكنهم - لحمقهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآنية[1] فى الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة نعيماً أو عذاباً[2].

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقَوِّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شراً يوجد لهم فى الآخرة.

ولو أنهم فَطِنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكان

---

(١) المصالح الآنية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال، وهو ظرف للوقت الحاضر معرف بأل دائماً، ومبنى على الفتح. قال تعالى : ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ .. (٧١) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١ / ٤٥].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكذبين فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد ؛ وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد ؛ أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق - سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل[1]، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها[2]، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذى جئتَ به لن يأتى بعده دين آخر ؛ لذلك لابد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذى سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكِّرك والمؤمنين معك.

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول ﷺ كمثبَّت ؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأنصار حين بايعوه في العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف] أى: ما كنت مبتدعاً من تلقاء نفسى ما أدعو إليه، إن أتبع إلا ما يُوحى إلىَّ.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »[(١)].

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذى يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات.

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه.

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثانى ؛ الطرف المكذِّب للرسول؟

كان ولابد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذِّبين للرسول؛ لأن استدعاء المعانى يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر.

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

---

(١) كان ذلك في بيعة العقبة الثانية وهى الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصارى: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه علي حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزْى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. [سيرة النبي لابن هشام ٢/٥٥].

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور[1] منهم العزائم ، فلا بُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكذِّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيَّب.

يقول الحق - سبحانه:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[2] إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)﴾

أى : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويّ من الإيمان بإله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدَدهم وعُددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذى يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن أى قائد فى معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذى

---

(١) الخَوَر : الضعف. خار الرجل: ضعف وانكسر. والخوَّار: الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة. [لسان العرب - مادة : خور].

(٢) المكانة: رفعة الشأن والرزانة والتؤدة. قال تعالى :﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٣٥)﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر، وقُرىء: «على مكاناتكم» بالجمع. [القاموس القويم ٢/٢٣٢].

والمكانة: الحالة التى يكون عليها المرء من قدرة أو عجز أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٢١)﴾ [هود] أى: على الحالة التى أنتم عليها، وقوله تعالى: ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ .. (٦٧)﴾ [يس] أى : على الحالة التى هم عليها حين عنادهم وكفرهم. [القاموس القويم: ٢/١٧٩ ، ١٨٠].

يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالنا بالمدد الذى يأتى ممن لا ينفد ما عنده[1]؛ وممن لا يُجير عليه أحدٌ ؛ فهو يُجير ولا يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، فموسى - عليه السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أنْ لا نجاة لهم؛ فالبحر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ[2] .. (٦١) ﴾ [الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

فموسى -عليه السلام- يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه، وأمدَّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..(٦٣) ﴾ [الشعراء]

فينفلق البحر ؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة ؛ وسار موسى عليه السلام وقومه ، وفكر موسى فى قطع السبيل على عدوه حتى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾ [الفتح] ، ويقول تعالى فى شأن غزوة حنين : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٢٦) ﴾ [التوبة]

(٢) أدركه : لحقه. قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ..(٩٠) ﴾ [يونس] على المجاز، كأن الغرق عدو مطارد لحق فرعون فأهلكه.

والدرك - بفتح الراء ، وبسكونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى : ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه] أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده. [القاموس القويم : ١/٢٢٦].

لا يسير فى نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أى : اتركه على ما هو عليه ؛ لينخدع فرعون ويسير فى الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنْجَى الحق - سبحانه - وأهْلَكَ بالشيء الواحد[2]؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين. والإيمان كله معركة من التحدى ؛ تحدٍّ فى صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدٍّ فى نصرة الرسول ومَنْ معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا يشيع التحدى فى معارك الإيمان.

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهى دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ ليبشِّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

---

(١) رها البحر يرهو رهواً : سكن فهو راه. ورَهْوٌ : مصدر يوصف به بلفظه ، قال تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ..(٢٤) ﴾ [الدخان] ساكن الأمواج: ليغتروا، فينزلوا فيه ، أو ساكن النفس، فهى حال من المفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر «أنت» وهو موسى عليه السلام أى: يكون هادئاً مطمئناً إلى النجاة [القاموس القويم: ١/ ٢٧٩].

(٢) فالله سبحانه وتعالى أنجى موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده بالشيء الواحد ، وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميَّز بمعجزة لا تنتهي ، وهي عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة[1] ؛ فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق - سبحانه - يقول هنا: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..(١٢١) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن منَّا له مكان ، أي : له حَيِّز وجِرْم[2]. ويقال : فلان له مكانة في القوم ، أي : له مركز مرموق ؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أنْ يشغله ، وهو مكان يدلُّ على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..(١٢١) ﴾ [هود]

أي : اعملوا[3] على قَدْر طاقتكم من عُدة ومن عَدد، فإن لمحمد ﷺ رباً سيهديه وينصره، وفي هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر مِنْ عَدوِّهم.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون» أخرجه مسلم في صحيحه (٥٢٣) كتاب المساجد.

(٢) الجِرْم : الجسد أو الجسم. وهو مُجَسَّم فيأخذ مكاناً وحيزاً في الوسط الذي هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد ، وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل لأصبحوا من الطائعين.

وحين يقول لهم -سبحانه - فى آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) ﴾ [هود]

فمعنى ذلك أن كل ما فى قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار الأحداث[1]؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ؛ لأنه - سبحانه- قديمٌ أزلىٌّ لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدَث الحادث عمل القديم الأزلى ، فقوة الحادث المُحدَث موهوبة له من غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهى ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أىَّ عمل إنما يُقَاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسَوا مَن الذى عَمِلَ العمل ، ولو كان العمل من فعل البشر لَحقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل من الله - تعالى - فليلزمِ الإنسان حدوده.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا فى مسألة الإسراء التى قال فيها الحق - تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ[2] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ

---

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أى لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتى عليها عوامل الفناء والتغيُّر.

(٢) اسرى به : جعله يسرى، أو حمله معه على السَّيْر ليلاً. قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعيناً له فى إسرائه. وقوله تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣)﴾ [الدخان] أمر الله سبحانه موسى عليه السلام أن يحمل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومعيناً وهادياً. [القاموس القويم: ١/٣١٢] بتصرف.

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ[1] .. (١) ﴾ [الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه أتاها في ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذى عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ[2] (١٢٢) ﴾

في هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد ؛ فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم[3].

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة :﴿ أن قَدْ وَجَدْنَا ما

---

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى :﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٩٦) ﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٨) ﴾ [النمل] ، وقوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور] أي : عظيمة الخير، كبيرة النفع. [القاموس القويم: ١/٦٥].

(٢) انتظره : ترقَّبه وتوقَّعه . وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة] أى: ترقَّب ما سيحل بهم، إنهم مترقبون. [القاموس القويم : ٢/٢٧٢].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ..(٤٤)﴾ [الأعراف]

وفى انتظار الكفار تهديد لهم ، وفى انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم، ولو لم تأت الأحداث المستقبلة كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا مِنْ واثقٍ بأن ما فى هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التى جاءت فى القرآن.

ألم ينزل قول الحق - سبحانه :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ[1] (٤٥)﴾ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية[2] ، حتى قال عمر - رضى الله عنه -[3] : أىُّ جَمْعٍ يهزم ؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين، وعدم قدرة بعض المؤمنين على

---

(١) ولّى المحارب دبره : كناية عن فراره . قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : ويفرون ، وجمع الدبر : أدبار . قال تعالى : ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين. وقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : سيُهزم الجيش الذى جمعوه، أو ستُهزم جماعتهم. [القاموس القويم: ١/١٢٧] بتصرف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله القرطبى فى تفسيره (٦٥٤٦/٩).

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره معزواً إلى ابن أبى حاتم. قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يُغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ.

حماية نفسه، ثم تأتي غزوة بدر ؛ ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين[1] ، بل وأماكن إصاباتهم، وجاء ذلك قرآناً يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ[2] ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن يُنزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أزْره ، وليثبِّت فؤاده ، ويذكِّر المؤمنين فيزدادوا إيماناً.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٣) عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول : «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدَّ رسول الله ﷺ». وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان «يضع يده على الأرض ههنا وههنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله».

(٢) الخرطوم : الأنف أو مقدم الأنف، والأنف رمز العزة عند العرب، ويقال : شُمُّ الأنوف أي : أعزاء . والوسم على الأنف : إذلال وإهانة. قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم] أي : سنذله نهاية الإذلال . قيل : إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقد ضُرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصدقت عليه الآية، وأخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه. وقد أسلم من أبنائه اثنان، أحدهما سيدنا خالد بن الوليد سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس القويم: ١/ ١١٩].

(٣) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي. والغيب : مصدر، ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة] والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجمعه: غيوب. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] . [القاموس القويم : ٢/ ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله ـ سبحانه ـ من خلال ما يُنزله على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقةٌ منه ـ سبحانه ـ أنه إذا أخبرنا فى القرآن بخبر لم يجىء أوانه ، فلْنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات – مؤمنهم وكافرهم – فإذا حدثنا القرآن بشىء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله ـ تعالى ـ عن أمر لم نشهده من قديم قد أوْغَل[1] فى الزمن، ولم يقرأه النبى ﷺ فى كتاب ولم يسمعه من معلِّم[2] ؛ فهذا كَشْف لحجاب الماضى.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

---

(١) وَغَل فى الشىء وغولاً : دخل فيه. ووَغَل: ذهب وأبعد، وتوغَّل فى الارض: ذهب فابعد فيها. وكذلك أوغل في العلم. [لسان العرب ـ مادة : وغل].

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك. [انظر: تفسير القرطبى ـ ٥٢٤١/٧].

مثل قوله الحق: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[2] مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وغير ذلك من الآيات[3] التى تبدأ بقوله الحق : ﴿ مَا كُنتَ ﴾.

وقد كان هناك أناس فى ذلك الماضى يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومَنْ معه؛ لكن الحق - سبحانه - أظهر هـذا الغيب للرسول

---

(١) الأقلام : جمع قلم، وهو السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يُعطى لمن يخرج باسمه. وكانوا يستعملونه فى القرعة، ومن استعماله فى القرعة قوله: ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] . فالأقلام هنا سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم. [القاموس القويم: ٢/١٣٢].

(٢) كفله يكفله كـفلاً وكفـالة: آواه ورعاه وربّاه. وأكفله اليتيم، وكفّله اليتيم: أسند إليه كفالته ورعايته، كقوله: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران] جعله كافلاً لها. وقال تعالى : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾ [ص] أي: قال: اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها، مالكاً لها. [القاموس القويم: ٢/١٦٧].

(٣) هى تسع آيات فى القرآن الكريم ، منها آية آل عمران التى ذكرها الشيخ هنا، ومنها:
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا .. (٤٩) ﴾ [هود]
- ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ [يوسف]
- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]
- ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢) ﴾ [الشورى]

الذى لم يجلس إلى مُعلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق ـ سبحانه ـ لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

ومَنْ ينكشف له حجاب الزمان وحجاب المكان؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذى كشف هذا هو الحق ـ سبحانه ـ الذى قدَّر مَجيء هذا العالم، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمر[1] الحق ـ سبحانه ـ فى القرآن أموراً لو كُشف عنها فى زمن بَعْثة الرسول ؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث ـ سبحانه ـ عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وهَزَمَتْ فارس ـ التى لا تؤمن بإله – امبراطورية الروم التى تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة.

لذلك حزن رسول[2] الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بإله فى السماء؛ فَيُسرِّى[3] الله ـ سبحانه ـ الأمر على رسوله، ويُنزِل الحق ـ سبحانه ـ

---

(١) طمر الشيء: خبَّأه. والمطمورة حُفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيِّئ خفياً يُطْمر فيها الطعام والمال، أى: يُخبأ. [لسان العرب ـ مادة : طمر].

(٢) إن فى حزن رسول الله ﷺ على هزيمة الروم ، وهم أهل كتاب لدليلاً على أن الإسلام هو جماع الأديان السماوية ، وأن الأديان جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسهر والحمى ـ الحديث إن إحساس رسول الله ﷺ بالهزيمة وحزنه عليها لدليل على رحابة الإسلام وعالميته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٣) يسرو : يكشف عن فؤاده الألم ويزيله. وسُرِّى عنه: أى: كُشِفَ عنه الخوف، وقد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه، وكلها بمعنى الكشف والإزالة [لسان العرب ـ مادة: سرو].

قرآناً يُتلَى على مَرِّ العصور وكل الأزمان؛ يحمل نبوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس.

ويقول سبحانه : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى[1] الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ[2] لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم]

هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في بضع سنين ؛ و «البِضْع» يقصد به من ثلاث لتسع سنوات.

---

(١) أدنى الأرض: أقربها. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات - بين بلاد العرب والشام - فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة. وإن كانت الوقعة بالجزيرة - موضع بين العراق والشام - فهي أدنى الأرض بالقياس إلى أرض كسرى.

وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم. [نقله القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٢٦٠)].

(٢) البضع : هو ما بين الثلاث إلى التسع. أخرج الترمذي في سننه (٣١٩٤) عن نيار بن مُكرَم الأسلمي قال: لما نزلت : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ﴿٤﴾﴾ [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم] فكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ﴿٤﴾﴾ [الروم] قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل؟ البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسَمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رَهْن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: في بضع سنين. قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وإنْ قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هتكاً للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق ـ تبارك وتعالى ـ وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقاً لقوله ـ سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

وهذا الغيب[1] المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذى له مقدمات ؛ ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من أسرار الكون.

والحق ـ سبحانه ـ هو القائل:

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة فى الكون ومطمورة فيه ؛ وجعل الله ـ تعالى ـ لكل مستور منها ميلاداً . فالبخار واستخدامه فى الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد، وكل مُكتشف ومُخترع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفى ميلادها

---

(١) الغيب : مصدر ويُسمَّى به ما غاب واستتر ، قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب. قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم جـ ٢ / ٦٤].

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتى هذا الميلاد بكشف وبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بَحْث ؛ أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابع من قاعدة «أرشميدس» ومثلما أظهر الحق ـ سبحانه ـ قانون الجاذبية صدفة ؛ أى : أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث فى شىء، فيظهر له شىء لم يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق ـ سبحانه ـ الإحاطة له ـ سبحانه.

وهنا يقول الحق ـ سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

ولم يقل : « إليه يَرْجع الأمر كله » ، لأنه سبحانه ضبط كل مخلوق على قدر.

ولله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر فى توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب.

والله ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

فكل شىء إنما يرجع إلى الله فى التوقيت الذى شاءه الله.

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حى ؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ قد خلق فى الكون أشياء وترك ملكيتها له ـ سبحانه ـ والحق ـ سبحانه ـ لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها، مثل: الشمس التى ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان بضوئها[1] وحرارتها ، وهى لا تدخل فى ملكية الإنسان ؛ لأنها من

(١) وصف الله تعالى الشمس فى قرآنه، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. (٥) ﴾ [يونس]، وقال عنها: ﴿ .. وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح] والسراج: المصباح يعطى ضوءًا ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة ؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذى خَصَّه الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها ؛ حتى لا يعبث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - فى سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعبث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يُملِّكها لأحد ؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - علِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسىء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّر الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات[1] ، وسخَّر بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيره ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق - سبحانه - أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضَّعْف[2] ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

---

(١) يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تحدث عنها فضيلة الشيخ الشعراوى: السماوات - الأرض - الماء - الثمرات - الفلك - البحر - الأنهار - الشمس - القمر - الليل - النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم].

وهكذا يُثبت لنا أن كل ما نملك موهوب[1] لنا من الله - تعالى - وليس هناك ما هو ذاتيٌّ فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله - سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير الذى كانت عليه فى الدنيا[2].

وإذا كان الحق - سبحانه - يقول هنا:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

فهو - سبحانه - يقول فى آية أخرى: ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ[3] الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه]

وكان الحق - سبحانه - ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله - تعالى - بها على عباده أنه يملكها.

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [يس] .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : التراب الندىّ أو التراب مطلقاً، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه] أى: ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس القويم - ١/١٠٧].

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذى تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هنا - فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستهدفاً النجاة حين لا يكون لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق الأعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته ـ سبحانه ـ وأعطاه غنًى من باطن غناه ـ سبحانه ـ وأعطاه حكمة من باطن حكمته ـ سبحانه ـ وأعطاه قبضاً[1] وبسطاً من باطن قدرته ـ سبحانه ـ وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من فَيْضها ، ثم تظل الفيوضات للحق ـ سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حُدِّثتَ فى القرآن بأمر تغيب عنك مقدماتُه، فاعلمْ أن الذى أنزل هذا الكتاب لا يعزب[2] عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

(١) يستعمل القبض كناية عن ضيق العيش، والبسط كناية عن سعته . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] أى: يضيق الرزق ويوسِّعه على من يشاء. [القاموس القويم : ٢/٩٦] بتصرف. وبسط اليد: يُكنى به عن الكرم والسخاء أو عن الإسراف وكثرة إنفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ..(٦٤) ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ١/٦٦].

(٢) عزب الأمر يعزب: بَعُدَ وغاب وصَعُبَ مطلبه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس] ، أى: لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم: ٢/١٨].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق - سبحانه - حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع فى كل الأمور إليه - سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إنْ لم يُجازَوْا فى الدنيا، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملّكهم أشياء؛ فسيسلُبهم هذه الملكية فى الآخرة ، وإنْ كان قد أعطاهم الخِيَار[1] فى الدنيا ؛ خِيَار أنْ يؤمنوا ويطيعوا ، أو أنْ يكفروا ويعصوا[2] ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم فى الآخرة ، وكل مالك لمُلْك يصير مُلْكه بعده إلى الله.

ومادام الأمرُ كذلك فلنعبد الله وحده - سبحانه - لأنه صاحبُ الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتى.

وهو - سبحانه - الذى شاء، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان: زمان سبَقَ وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أىٍّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور فى فلك الأحداث[3] .

---

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيّرته بين الشيئين أى : فوّضْتُ إليه الخيار. وتخيَّر الشيء: اختاره. والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخيُّر. [لسان العرب - مادة : خير] بتصرف.

(٢) وقد جاء هذا فى آيات كثيرة، منها:

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]

ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]

(٣) الحدث من أحداث الدهر: النازلة. وحَدَثان الدهر وحوادثه: نُوَبُه ومصائبه. [اللسان - مادة : حدث].

ومن المنطقى بعد أن تستمتع بوجودك فى الحياة ؛ وتنضج عقلياً أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشرى.

وأنت - في هذه الحالة - تكون رَهْناً بثقة المحدِّث : هل يقول الصدق أم يقول الكذب ؟ خُصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل آدم ، ولابد أنْ تقول لنفسك : لا يمكن أن يُحدِّثنى عن ذلك إلا مَنْ خلقنى[1].

وساعة يُبلِّغكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قائلاً : «كان الله ، ولم يكُنْ شيء غيره»[2].

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذى يمكن أن نقبل منه كلاماً عمَّا فاتَ قبل آدم هو الله ـ سبحانه وتعالى.

وإنْ سألتَ : لماذا وُجِدتُ فى زمنى هذا ، ولم أوجد فى زمن آخر؟ هنا ستقول لنفسك إنْ كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ أوجدنى هى التى رجَّحتْ وجودى فى هذا الزمن عن أى زمن آخر ».

ولابد أن تسأل نفسك : وما المطلوب منى ؟

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف] ، وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾ [الزخرف]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣١)، والبخارى فى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين، وتمامه: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض».

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة ؛ لأن تلك الحركة هى الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

فقد أعطاك الحق ـ سبحانه ـ العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق ؛ لتستخرجه وتتعيش منه.

وهكذا يتضح لك أن كل شىء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ؛ لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطى للأدنى منك.

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلى بين يدى الله خمس مرات كل يوم؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجدِّد ولاءك لمن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان.

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى، فالسعى إلى ذكر

---

(١) استعمره فى المكان : جعله يعمُره. قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : عمر]: «استعمركم فيها، أى: أذن لكم فى عمارتها واستخراج قومكم منها، وجعلكم عُمَّارها».

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها في الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا(1) فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقول الحق - سبحانه - في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

أي : أطع الله في أمره ؛ لأنه - سبحانه - الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وزكاة ؛ وصيام ، وحج إن استطعتَ لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك في حركتك الثانية التي تتحركها في الكون.

ومن العجيب أن حركتك في الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوِّن الكون - سبحانه.

فأنت حين تصلى تحتاج لِسَتْر عورتك بثوب ، وحتى تأتى بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح في الزراعة ، وحركة

---

(1) انتشر الناس: تفرّقوا وتصرّفوا في معايشهم. قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] أي : تتصرفون في معايشكم وتسعَوْن في الأرض، وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢/٢٦٦].

العامل فى النَسْج ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك فى عملك الذى يتيح لك أجراً تشترى منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذتَ كل علوم الحياة ؛ لكى تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة ؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطى الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدى صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره فى الحياة، هى استقبال[1] من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظِّم حركة حياتك على ضوء منهجه ـ سبحانه.

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذى تأخذ منه المدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»[2].

---

(١) «عن طريق عبادتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة] فعلينا العبادة الخالصة لنفوز بعون المدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل عند البيت الحرام : قال في دعائه: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] » من مفهوم مأثورات الإمام».

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : «كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

ومعنى «حزبه»[1] أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإنْ عبدتَ الله وتوكلتَ عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه ـ سبحانه لا يغفل عما تعمل.

وهذه الآية تدلُّك على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك[2]، وتُكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق ـ سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

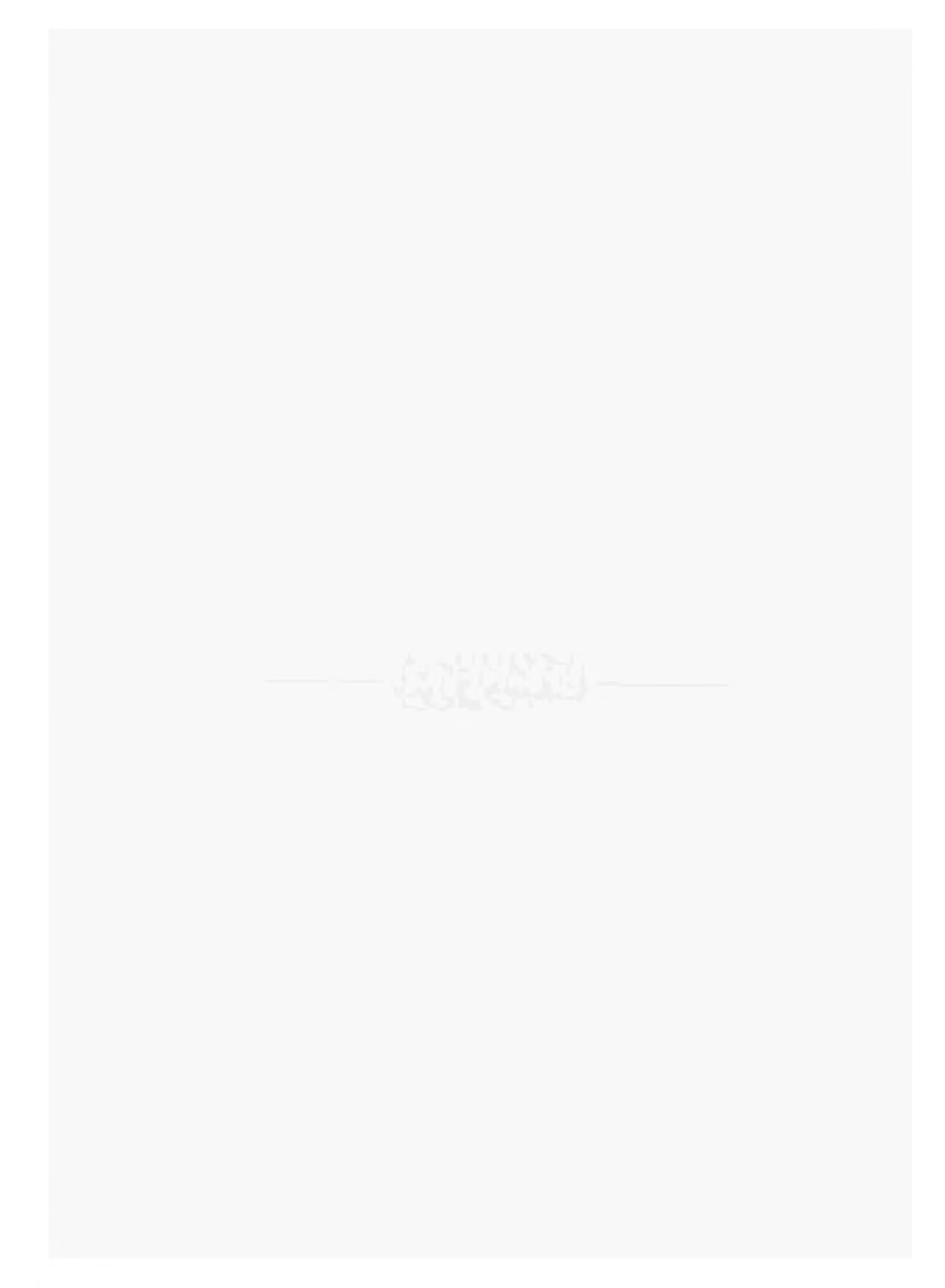
فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّوِىّ يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

---

(١) حزبه أمر: أصابه، إذا نزل به مُهِمٌّ أو أصابه غَمٌّ. وأمر حازب وحزيب: شديد. وحوازب الخطوب ـ وهو جمع حازب ـ وهو الأمر الشديد. [لسان العرب: مادة: حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام] ويقول أيضا: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].


سورة يوسف



سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب المبين ①﴾

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور[1] : من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة ؛

● سورة يوسف سورة مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٤٠): «استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واه جداً لا يلتفت إليه». عدد آياتها ١١١ آية. وهي سورة جامعة «لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسِيَر الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهّال، والرجال والنساء، وحِيَلهنّ ومَكْرهنّ. وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسِّير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا» ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطي : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام:

الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني: التسبيح في سبع سور.

الثاني : حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث : النداء في عشر سور: خمس بنداء الرسول ﷺ، وخمس بنداء الأمة.

الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يسألونك عن الأنفال .. ①﴾ [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، في خمس عشرة سورة.

السادس : الشرط ، في سبع سور مثل : ﴿إذا وقعت الواقعة ①﴾ [الواقعة].

السابع : الأمر، في ست سور، نحو : ﴿قل هو الله أحد ①﴾ [الإخلاص]

الثامن : الاستفهام، في ست سور، نحو: ﴿عم يتساءلون ①﴾ [النبأ]

التاسع : الدعاء، في ثلاث سور: الهمزة، المطففين، المسد.

العاشر : التعليل ، في سورة قريش . انتهى باختصار [الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٦٦].

ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الأمى إذا سُئل أن يتهجى أىَّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ فى أول سورة البقرة : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

مثلما تقرأ فى أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ .. ۝١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل[1] - عليه السلام - « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأى كتاب تُقبِل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا. بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح

---

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة] فالتلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشىء فى مكانه ووضع للمقال فى مقامه ، وفى الغيب علم يتوالى ، وفى التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزاهة ، وتفريد بطهارة ، وتجريد بإخلاص.

قراءتك على قارىء ؛ لـتعرف كيف تنطق كل قوْل كـريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرا بعد أن تعرفتَ على كيـفية القراءة ؛ لأن كل حرف فى الكتاب الكريم موضوع بميزان[1] وبقدر.

ونحن نعلـم أيضـا أن آيات القـرآن منهـا آياتٌ مُـحْكمـات وأُخَـر مُتَشابهات[2] . والآيات المُحْكماتُ تضم الاحكام التى عليك أن تفعلها لِتُثـاب عليها ، وإنْ لم تفعلهـا تُعاقب ، وكل ما فى الآيات المُحْكمات واضح.

أما الآيات المُتَشابهات إنمـا جاءت متشابهة[3] لاختلاف الإدراك من إنســان لآخر ، ومن مـرحلة عُـمـرية لأخرى ، ومن مـجـتمع لآخـر ، والإدراكات لهـا وسـائل يتشابه فـيها الناس ، مـثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسـان ، واليد.

ووسـائل الإدراك هذه ؛ لها قوانين تحكمها:

---

(١) قال ابن الجـزرى فى كتابه «النشـر فى القراءات العشـر» (١/ ٢١٠) : «لاشك أن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حـدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفـة المتلقـاة من أئمة القـراءة المتصلة بالحـضرة النبـوية الأفصـحية العـربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المـتشابه هنا أى: مـا استأثر الله بعلمه، وخـفى معناه على الناس، أو هو ما احـتمل أوْجُهـا من حيث المعنى والتـأويل. وهذا هو معنى الآية السابعـة من سورة آل عمـران، أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا .. ۝٢٣﴾ [الزمر] فمعناه: أنه يشـبه بعضه بعضاً فى الصحة، وعدم التناقض وتأييد بعـضه لبعض. انظر «فتح الرحمن بكشف مايلتبس فى القرآن» لأبى يحيى الأنصارى (ص٦٠).

فَعينُك يحكمها قانون إبصارك ، الذى يمتد إلى أن تلتقى خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها ؛ ولذلك تصغُر الأشياء تدريجياً كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك.

وصوتُك له قانون ؛ تحكمه ذبذبات الهواء التى تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك.

وكذلك الشمُّ له حدود ؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة فى بلد بعيدة.

وكذلك العقل البشرى له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسان الأمور ، فلم يمنع تأمل وردة جميلة ، لكنه أمر بغضِّ البصر[1] عند رؤية أى امرأة.

وهكذا يُحدِّد لكَ الحق الحلال الذى تراه ، ويُحدِّد لك الحرام الذى يجب أن تمتنع عن رؤيته . وكذلك فى العقل ؛ قد يفهم أمراً وقد لا يفهم أمراً آخر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف ؟

انظر إلى موقف تلميذ فى الإعدادية ؛ وجاء له أستاذه بتمرين

---

(١) غض بصره وغض من بصره، يغض غضاً: خفضه ولم يرفعه ولم يحدِّقه فيما أمامه، أو كفُّ بَصره ولم ينظره. وفى غضِّ البصر قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..﴿٣٠﴾﴾ [النور]، وقال : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ..﴿٣١﴾﴾ [النور] . ومنه غضّ صوته: خفضه، قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ..﴿١٩﴾﴾ [لقمان][القاموس القويم : ٢/٥٦].

هندسي[١] مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسي ، هذا القول يعني أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ، وفى كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه الحق - تبارك وتعالى:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ[٢] هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ[٣] وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

---

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى شيء من كلام العرب زاى بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهنْدز: هو الذى يُقدِّر مجارى القُنِىِّ والأبنية. [انظر: لسان العرب - مادتي : هندز ، هندس].

(٢) أحكم الأمر: أتقنه، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢) ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة. وآيات محكمة: متقنة مقنعة واضحة. وقيل: محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ..(٢٠) ﴾ [محمد] أى: متقنة. [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله، يُرَدُّ إليها كل ماعداها مما يحتمل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أمُّ الكتاب كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة: أمم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبتدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ (١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ (٢) الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مآربهم (٣)، وهو إبطال الدين بأىِّ وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئةً بحروف تُنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها.

وقد أرادها الحق ـ سبحانه ـ كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق ـ سبحانه ـ للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

---

(١) زاغ يزيغ زَيْغاً وزيغاناً: مال عن القصد. وأزاغه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. (٥) ﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ١/ ٢٩٣، ٢٩٤].

(٢) بغى الشىء: طلبه، وابتغاه: طلبه، قال تعالى : ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ..(٤٧)﴾ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى: يطلبون فضلاً. وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بثّها ونشرها. [القاموس القويم: ١/ ٧٦].

(٣) المآرب والأرَب والإرْب : الحاجة والغرض، يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١/ ١٧] بتصرف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات فى وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتى بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق - سبحانه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ[1] إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ[2] فِي الْعِلْمِ.. (٧)﴾ [آل عمران]

قد يُفْهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أنّ الراسخين فى العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالى سيُعلِّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل. ولكن تأويل الراسخين فى العلم هو قولهم:

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ لِيَحُلّ لنا إشكال المُتَشابه:

«ما تشابه منه فَآمِنوا به»[3].

---

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أول]: «التأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ .. (٧)﴾ [آل عمران] : التأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا، أى: صار إليه قال الجوهرى: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشىء».

(٢) رسخ يَرْسَخ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أى : ثابت. الراسخون فى العلم: المتمكّنون فيه. [القاموس القويم: ١/ ٢٦٤].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٤٦) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذى أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم[١] الحجر الأسود وأن نُقبِّله[٢]، وأن نَرْجُم الحجر[٣] الذى يمثل إبليس، وكلاهما حجر، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ[٤].

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر، لَعبدْتَ عقلك، والحق - سبحانه - يريد أن تُقبِل على الأمور بحُكْمه هو - سبحانه.

وأنت إن قلتَ لواحد: إن الخمر تهرى الكبد، ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذى يكشف صورة الكبد، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر فى الكبد، وراعَه[٥] ذلك؛ فقال: والله لن أشربها أبداً.

---

(١) قال الليث: استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلة ومَسْحه بالكفّ. وقال الجوهرى: استلم الحجر لمسه إما بالقُبْلة أو باليد. [نقله ابن منظور في لسان العرب - مادة: سلم].

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر يبكى، فقال: « ياعمر، ههنا تُسْكب العبرات». أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٩٤٥) والحاكم في مستدركه (١/ ٤٥٤) كلاهما من طريق محمد بن عون الخراساني. قال البوصيرى فى الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما. قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبى على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمى الجمرات فى مِنًى فى أيام الحج، وهى ثلاث جمرات: الصغرى وهى القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرْمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة. انظر: كتابى «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضى الله عنه يقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزعه. وارتاع منه وله وروَّعه فتروَّع، أى: تفزع. والرَّوْع والرُّواع: الفزع. [لسان العرب - مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذى نفَّذ تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلَّة المُتَشابه : الإيمان به. وقد يكون للمُتَشابه حكمة ؛ لكنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهى عند عتبة إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطيَّة[1]، يُوصِّلك إلى باب السلطان، لكنه لايدخل معك.

إذن: فالذى يناقش فى عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب فى الحديث مع مُسَاوٍ له فى الحكمة، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التى جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفد من

---

(١) المطية: الدابة تُمتطى أى: يُركب ظهرها. والجمع: مَطايا والمطا : الظهر لامتداده. وأصل المطو المد. وتمطى الرجل: تمدَّد. وكل شىء مددته فقد مطوْته. وتمطى النهار: امتد وطال. [لسان العرب ـ مادة: مطا ـ بتصرف].

العطاء، إلى أن تُحل إنْ - شاء الله - من الله[1].

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل، ففى آخر سورة هود نجد قول الحق - سبحانه:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآياتُ مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألفٌ لامٌ راءٌ» لكن الرسول ﷺ علَّمنَا أن نقرأها «ألفْ لامْ راءْ» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن لله - سبحانه - حكمة فى هذا وفى ذاك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل - عليه السلام - وراجعه مرتين فى رمضان الذى سبق وفاته ﷺ[2].

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي - ا ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قول : «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إليَّ النبى ﷺ أن جبريل كان يُعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٦/٢٨٢).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ①﴾ [يوسف]

و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (الٓر) ، وهى آيات الكتاب.

أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى : ﴿الٓر .. ①﴾ [يوسف]

لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من الخيوط التى تم نَسْج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة.

فكأنَّ الله - سبحانه - يُبيِّن لنا أن ﴿الٓر .. ①﴾ [يوسف]

أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله[1].

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلابد أن يكون كلامه مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن البشر.

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ⑧⑧﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «ألفْ لام رَاء» ، وهو ﷺ الأمى[1] بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلِّماً ، ذلك أن الأمى ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها[2] ، وفى هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق - سبحانه :﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم[3].

ونجد كلمة «المبين» ، أى : الذى يُبيِّن كل شىء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ فى الأرض ، فإن بانَ لك شىء وظننتَ أن القرآن لم

---

(١) «قال أبو إسحاق: معنى الأمي: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، مكتسبة، فكأنه نُسبَ إلى ما يُولد عليه، أى: على ما ولدته أمه عليه» نقله ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : أمم] وقال: «بعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخَلَّة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى، بالنظم الذى أنزل عليه فلم يُغيِّره ولم يُبدِّل ألفاظه» إذن : الأمى هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقيه للإمدادات هو من العطاءات النورانية ، أما الكتابة فهى اكتساب ، وعلم الأمى من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمَّى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي فى كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» فى القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معانى كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ. ومن معانى الكتاب أيضاً «الرسالة»، مثل رسالة سليمان عليه السلام التى أرسلها مع الهدهد إلى ملكة اليمن فقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]. ومن المعانى أيضاً صحيفة الإنسان التى تعرض عليه يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء].

يتعرَّض له ، فلابد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محمد عبده[1] أنه قابل أحد المستشرقين[2] في باريس ؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مادامتْ هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ[3] مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فَدعْني أسألك: كم رغيفاً ينتجه أردبُّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

---

(١) هو : محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية. ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٨٤٩م ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة)، تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر في باريس جريدة «العروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغاني. توفي عام ١٩٠٥م بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. [الأعلام للزركلي ٦/٢٥٢].

(٢) المستشرقون: جمع مستشرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفاته، فهم يتخصصون في هذا دراسة وبحثاً وتنقيباً، ومنهم المنصفون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسخِّرون دراساتهم للطعن في الإسلام.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٣/٢٥٠٥) «أي: في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل. أي : في القرآن أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللت عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنصِّ الكتاب».

فردٌ الإمامُ : إذا كان القرآن قد قال:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

فالقرآن قال أيضاً:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

لقد فَطِن الإمام[1] محمد عبده إلى أن العقل البشرى أضيق من أن يسع كل المعلومات التى تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يوزِّع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق فى مجال ما ، هو من أهل الذكر فى مجاله.

ونحن – على سبيل المثال – عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص فى المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدى المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها ﷺ.

---

(١)الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته فى تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوى انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصْباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ[1] الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ .. ۝٢ ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق ـ سبحانه : ﴿ أُنزِلَ .. ۝٩١ ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً فى اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) «الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه». قاله ابن كثير فى تفسيره (٣٤٧/٣).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا[1]، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً[2] متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التي تعرض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق - سبحانه - يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أي: أن الحق - سبحانه - أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعي[3].

---

(١) ذكر أبو شامة في المرشد الوجيز أن «السر في إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها. فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مُفرّقاً، تشريفاً للمُنزل عليه. نقله السيوطي في [الإتقان في علوم القرآن ١/١١٩)].

(٢) نجوماً: مُنجّماً، أي: أن القرآن أُنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسباب النزول» وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطي ١/١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

قال الواحدي عن أسباب نزول هذه الآية: «لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمي أم سليم بحيس في تور من حجارة، فأمرني النبي ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت، فأطالوا المكث. فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية» [أسباب النزول: ص٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول ـ سبحانه :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ۝٢﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ..۝١﴾ [يوسف]

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرَّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع[1] ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربى؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

---

(١) قال الحاكم في المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات:

إحداها : بحضرة النبى ﷺ .

الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة : في زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن والذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى الله عنه: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطى: «وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧] باختصار.

ممَّا نبغ[1] فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدى ، ولا يمكن أن يتحداهم فى أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق[2] ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفَوَّهين[3] ، وكانت المباريات الأدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُم أمة بيان[4] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

---

(١) نبغ الشيء : ظهر. نبغ منهم شاعر: خرج. والنابغة: الشاعر المعروف، سُمِّي بذلك لظهوره. [لسان العرب ـ مادة: نبغ].

(٢) كانت للعرب أسواق يجتمعون فيها، مثل: عكاظ، وذي المجاز، فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوَّه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد في بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا في [لسان العرب ـ مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهور. [اللسان ـ مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ..(١٣٨)﴾ [آل عمران] أي: كشف وإيضاح أو هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى: النطق المعبِّر عمَّا فى النفس من معانٍ وأفكار. [القاموس القويم ـ مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التى تطغى على مبادىء الفرس والروم.

وهى مبادىء قد نزلت فى أمة مبتدِّية[1]، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُتبدِّية قد امتلكتْ ما يبنى حضارة ليس لها مثيل من قَبْل ، رغم أن النبى أميٌّ وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق ـ سبحانه ـ أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ[2] قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدَّى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضر. وسُمِّيت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس في الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب ـ مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)﴾ [البلد] فالله يمتنُّ على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام. قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤)﴾ [القصص] أى: أقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢)﴾ [الروم] ألسنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم ـ مادة لسن].

وأرسلَ محمد ﷺ بالقرآن ، الذى تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة فى آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التى أُنزلتْ إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا[1] فى العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهِين[2] بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم.

ففي القرآن قوانين تُسعِد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث فى الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم لم يفرط فى شىء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقولون : إن القرآن قد نزل

---

(١) المساحة: الذهاب فى الأرض لأغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من سَيْح الماء الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب ـ مادة: سيح] بتصرف.

(٢) شُدِه الرجل شَدَهاً: تحيّر، والدَّهْش أيضاً: التحيُّر. دهش: تحيَّر، أو ذهب عقله من ذهل أو وَلَه فهو مدهوش، وأدهشه غيره. [اللسان ـ مادتا: شده، دهش].

بلسان عربي مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التي تؤمّنون[1] بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية[2]، وأخرى فارسية[3]؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربي استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن في عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل في لغتنا أيَّ لفظ نستعمله

---

(١) التأمين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال في إثر الدعاء. قال الفارسي: هي جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لي. [لسان العرب - مادة: أمن]. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك في موطئه (١/٨٧) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٨ ، ٣٢١) والبخاري في صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة في القرآن الكريم :

- (الرقيم) في قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف]. قال السيوطي في الإتقان (٢/١١٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: اللوح، الكتاب، الدواة.
- (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزي أنه الطريق بلغة الروم.
- (طفقا) في قوله تعالى : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢)﴾ [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية في القرآن الكريم :

- (أباريق) : حكى الثعالبي في فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقي: الإبريق فارسيٌّ مُعرَّب، ومعناه: طريق الماء، أو صب الماء على هيئة.
- (دينار) : في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .. (٧٥)﴾ [آل عمران] . ذكر الجواليقي وغيره انه فارسي.
- (سجيل): عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا، ما دُمْنا نفهم المقصود به[1].

ويُذيِّل الحق ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل، ليفكر في الأمر، والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل، عكس المدلس[2] الذي يهمه أن يستر العقل جانباً؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما، ويستعرض معك متَانتها ومحاسنها؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

---

(١) ذكر السيوطي في كتابه الإتقان (٢/١٠٥ ـ ١٠٨) اختلاف العلماء في عربية هذه الألفاظ وفي أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعرَّبتها بألسنتها وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمدالسة: المخادعة. والتدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري. واندلس الشيء: إذا خفي [لسان العرب ـ مادة: دلس].

ويقول الحق ـ سبحانه ـ من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ(١) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣ ﴾

حين يتحدث الحق ـ سبحانه ـ عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومَنْ غيره ـ سبحانه ـ له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه ـ سبحانه ـ وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدَّر.

لكن حين يتكلم ـ سبحانه ـ عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

---

(١) قصَّ الكلام أو الأخبار: يقصُّها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ .. ۝٢٥ ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها.
والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ .. ۝١١١﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (٢/ ١٢٠)] .

﴿ وَأَقِمِ[1] الصَّلَاةَ لِذِكْرِي[2] (١٤) ﴾ [طه]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدِر عليها غيره؛ بالدقة التى شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذى يقصُّ، وإذا وُجِد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التى علَّمناها فى أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصَّاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشتق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه فى أسمائه الحسنى بذلك.

---

(١) أقام الصلاة: أداها كاملة. وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] أي: أخلصوا قلوبكم لله، وعَدِّلوا وجوهكم واجعلوها تتجه لله في المساجد في الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أى: ارفعه وعدِّله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] أي: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٣] بتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التأمل. والذكر الحديث والقصة. والذكر: القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه - سبحانه - اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول - سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعنى الإتباع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، ومأخوذة من قَصِّ الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذى سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقرأ قول الحق - سبحانه - ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ[1] بِهِ عَن جُنُبٍ[2] وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ [القصص]

و ﴿قُصِّيهِ .. (١١)﴾ [القصص]

أى: تتبعى أثره.

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التى تتبع كلمة، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل.

---

(١) بصُر به: رآه ببصره فهو بصير. وبصُر بالأمر: علِمَه كأنه رآه ببصره.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى: رأته من أحد جوانب البيت وهى متخفية. وقوله تعالى عن السامرى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] أى: علمت بما لم يعلموا، وهو رؤية أثر الرسول أو سرِّه. [القاموس القويم ١/٦٩].

(٢) الجنب: قد يراد به البُعْد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى : عن بُعْد ، أو رأته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١/١٣٠].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ[1] وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[2] (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[3] فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾ [الكهف]

أي : تابعا الخطوات.

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع ، لا لَبْس[4] فيه أو خيال ؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث

---

(١) الحوت: السمكة، كبرت أو صغرت، والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] أي : السمكة، وقال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣)﴾ [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان في الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة: حوت]: «المحاوتة: المراوغة. وهو يُحاوتني أي يُراوغني. وحاتَ الطائر على الشيء يحوت أي : حام حوله».

(٢) العجب: روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شيء خفي سرُّه أو استعظامه. وأعجبه الأمر: سرَّه أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجاب وعُجَّاب بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ .. (٥)﴾ [ص]. [القاموس القويم ٢/٧].

(٣) بغى الشيء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ .. (٤٧)﴾ [التوبة] أي: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] أي: طلبوها وسعوا في بثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. (١٠٤)﴾ [النساء] في طلبهم لقتالهم، وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. (٢٢)﴾ [الرعد] أي: طلباً لرضاه تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللَّبْس واللبَس : اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أي: اختلط واشتبه. وتلبس بي الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب ـ مادة: لبس].

فى القصص الفنىِّ الحديث ؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتٍ خيالية من أجل الحَبْكَة[1] الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه.

أما قَصَص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكلُّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة[2]؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرةً تكون للحدث، ومرةً تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تَأْتِ قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطاتٍ فى مناسبات لتثبيت فؤاد[3] الرسول محمد ﷺ ، فتأتى لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

---

(١) الحبك : الشدُّ .والحُبْكة: الحبل يُشدُّ به على الوسط. والتحبيك: التوثيق. وجاد ما حبكه إذا أجاد نَسْجه. وحبك الثوب يحبكه حبكاً: أجاد نسجه وحسَّن أثر الصنعة فيه. [لسان العرب - مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحبكة القصصية كأنها ثوب يُجاد نسجه وصنعه فلا يكون مُهلهَلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ..(١١١)﴾ [يوسف]. والعبرة: اسم للشيء الذى يتعظ به الإنسان. والعبرة: العظة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ..(٤٤)﴾ [النور]. وقال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر] أى: اتعظوا. [القاموس القويم ٢/ ٤].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود] أى: نثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٤٣٥].

مستوفية؛ فقد شاء الحق - سبحانه - أن يأتى بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُسْتوفية، ففيها الحدث الذى دارتْ حوله أشخاصٌ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث.

فقصة يوسف - عليه السلام - فى القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط؛ بل جمعتْ نَوعَيْ القصة، بالحدث الذى تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذى تدور حوله الأحداث.

جاءتْ قصة يوسف بيوسف، وما مَرَّ عليه من أحداث ؛ بَدْءً من الرُّؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية[1] له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولِّى السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق - سبحانه:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ③ ﴾ [يوسف]

يبيِّن لنا أن الحُسْن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار[2] اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك

---

(١) الغواية : الضلال والانهماك فى الغَيِّ والفساد. غَوَى يغْوِى: انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد. قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/ ٦٤].

(٢) الأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم، قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [التوبة] وأصل الكلمة الحِبْر: الذى يُكتب به، وهو المداد. وكل ما حَسُنَ من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حَبِر حَبْراً وحَبَّر. [لسان العرب - مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن فى روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطْويَّة فى النفس البشرية ؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء فى حَبْكة ذات أداء بيانى مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هى أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عِبَر متعددة ، عِبَر فى الطفولة فى مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، وإلقائه فى الجبِّ والكيد له ، ووضعه سجينا بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف ـ عليه السلام ـ محبةً منه ؛ ليجعل كل مَنْ يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»[2].

---

(١) ثرَّبه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لَوْمَهُ . وعيَّره بذنبه ، وأنَّبه على سوء فعله. قال تعالى : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ..(٩٢)﴾ [يوسف] أى: لا لوم ولا تأنيب. [القاموس القويم ١/١٠٦].

(٢) قال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما تَرَوْن أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢].

هكذا تمتلئ سـورة يوسف بعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها في قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهى أحسنُ القَصص ؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسنُ القصص فى أنها أدَّتْ المُتَّحد والمتفق عليه فى كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمى ، الذى لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتمِيل مُقْنع مُمْتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هى السورة التى شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الزمنى ؛ والعمر العقلى ؛ والعمر العاطفى للإنسان فى كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شىء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت فى موقعها المناسب لها.

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذى لا يستطيع واحد من البشر أن يأتى بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُميًا، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهى صفات مطلوبة فى المُبلِّغ عن الله : فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً فى رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبى بكر رضى الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحى قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر - رضى الله عنه -: صدقْتَ.

وحين حدثتْ رحلة الإسراء ؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها فى ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق[1] .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار «أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فأنكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، هاهو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليُخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ».

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هي التي دلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحي.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضي الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتُكسب المَعْدُوم[2]، وتَقْرِى[3] الضَّيف ، وتعين على نوائب[4] الحق »[5].

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له ﷺ في نبوته[6].

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة

---

(١) الكَلُّ : هو مَنْ لا يستقل بأمره . قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل] . والكل هو: العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٢) المعدوم: كالميت الذي لا تصرُّف له . والمعنى : أنك تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. [فتح الباري ١/٢٤].

(٣) قَرَى الضيف : أضافه . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى].

(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهي ما ينوب الإنسان أي : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب ـ مادة : نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري في صحيحه (٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد في مسنده (٦/١١٨) من حديث عائشة.

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - متسائلاً - ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح - : ألسنا على الحق ؟ علام نعطى الدَّنية[1] فى ديننا ؟

ويرد عليه أبو بكر - رضى الله عنه - : استمسك بِغَرْزِه[2] يا عمر ، إنه رسول الله[3].

أى : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ ، وليس فى ذلك انصياعٌ أعمى ؛ بل هى طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذى لا يعلم - لا عن جهل ، أو قصور عقل - ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

---

(١) الدنية: الخصلة المذمومة. ورجل دَنِيٌّ من قوم أدنياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة: دنا] باختصار .

(٢) الغرز: رِكَاب الرحْل ، وكل ما كان مِساكاً للرِّجْلَيْن فى المركب غَرْز . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس ، ومثل الركاب للبغل . ومنه حديث أبى بكر أنه قال لعمر : « استمسك بغرزه » أي : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. [لسان العرب - مادة : غرز].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٣ - ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان ابن الحكم وتمامه « أن عمر بن الخطاب أتي أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله:

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

أي : أنك يا محمد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروي لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك.

بل أنت لم تَتَلَقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر[1] ؟

وكان ضَرْباً[2] من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة ، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أوحى بها إليه .

والوَحْي - كما نعلم - هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحي للملائكة فيقول :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره من قول النحاس (٣٤٤٠/٤) : « يُروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء . ويقال : هذا من ضرب ذلك أي من نحوه وصِنْفه ، والجمع : ضُروب . وضرب الله مثلاً أي وصف وبيَّن . وقولهم : ضرب له المثل بكذا : إنما معناه بيَّن له ضَرْباً من الأمثال أي صنفاً منها . [لسان العرب - مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم ؛ مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[1] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحى لأم موسى بأن تلقى طفلها الرضيع موسى فى اليَمّ*[2] :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[3] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ[4] يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهى الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

---

(١) الحواريون : جمع حوارى ، وهو : الخالص النقىُّ من كل شىء ، وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم : ١/١٧٧] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم : ٢/٣٧٢] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢٤٨) ﴾ [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذى يُحْرز فيه المتاع . [القاموس القويم : ١/٩٦] . [لسان العرب - مادة : تبت] .

(٤) سحله : قشره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشط ما عليها من تراب . والساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم : ١/٣٠٦] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ[1] (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا[2] .. (٦٩) ﴾ [النحل]

والحق سبحانه يوحي لمن شاء بما شاء ، فالكل ؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان ؛ من خَلْقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرِّ خَلْقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ[3] لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا[4] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

---

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعُّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مطايا ذلل أو طرق ذلل : سهلة ممهدة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .. (٦٩) ﴾ [النحل] أي : ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ١/٢٤٥ باختصار] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٤١) : « سئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ عن « يوسف » فقال : الأسف في اللغة الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا في يوسف ؛ فلذلك سُمّي يوسف » .

(٤) الكوكب : في تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أي : نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم : ٢/١٧٧ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات « أبى » و « أبتِ » و « أبتاهُ » و « أبَة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها ملْحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حُلم يوسف يُبيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدِّهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيِّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته فى الدنيا فى إطار منهج الدين ، وأسْمَى ما فى الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى[1] .

مثلهم فى ذلك مَثَلُ ما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ[2] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربِّها الذى بَنَاها .

وقال عنها أنها بلا فُرُوج[3] :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤٣/٤) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمَّنْ يعقل » .

ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيَّنت منزلة يوسف بين الأسرة ، ومنزلته عند ربه وأنه فى نهاية المطاف سيعترفون بفضله وعظمته ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .

ولتعلم أن الرؤيا المنامية لها قوانين تختلف عن الرؤية البصرية ، وأن رمزيات الرؤيا المنامية فيها من الأسرار ما يعطى المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رؤيا يوسف فى حالة سجودهم له ، وأنه رأى الجميع فى وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بأذنه وأنصت معجباً به مُحباً له ، وفُسِّر بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② ﴾ [الانشقاق] أى : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١٦/١ باختصار] .

(٣) الفروج : جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيئين . والفرج : الشق . قال تعالى فى وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ ﴾ [ق] أى : شقوق فهى متماسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ ﴾ [المرسلات] . [القاموس القويم : ٧٤/٢] .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾ [ق]

وهى أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

أى : أنها امتلكتْ حاسة السمع ؛ لأن «أذنت» من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق[1] .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر[2] ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه فى اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها «جُوقة »[3] من الانسجام مُكَوَّن من إنسان مُسبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هى الجبال ، وهى من الجماد أدنى الكائنات .

---

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ ﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام] .

(٣) الجَوْق فى اللغة : كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب ـ مادة : جوق].

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها[1] ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

وهكذا عَلِمْنا أن للطير منطقاً . وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ[2] سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[3] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فلكُلِّ أمَّة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف في رؤياه ؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .

---

(١) قال تعالى : ﴿ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه : كسره بعنف ، وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف . ويُطلق على أي كسر ، قال تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨) ﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسَّر من اليابس ، قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٩) ﴾ [النمل] أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبه إليَّ [القاموس القويم ٢/٣٢٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا[1] إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾

وحين يُورِد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب[2] ، و « بُنى » تصغير « ابن » .

أما حين يأتى القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابنى » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذى اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ۝٤٥ ﴾ [هود]

وكلمة « يا بنى » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتى من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بنى » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفى نفس الوقت نجد أىَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتى عليه أن يسمع كلمتى .

---

(١) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ١٨٠/٢] .

(٢) ورد هذا الخطاب فى القرآن ٦ مرات فى سورة هود ويوسف ولقمان فى ثلاث آيات والصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظيفته أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بنى ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعجه أو يُسيء إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل[1] ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الأقدر فى نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ۝ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا مناميـة ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تأتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

---

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضَّل عليه فى أمره تعضيلاً : ضيَّق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضَّل بهم المكان : ضاق . وعضَّلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب - مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »[١] .

وأخذت الرؤية الحقيقية التى تحدث فى اليقظة « التاء » وهى عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح[٢] فى كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة فى القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ[٣] به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً[٤] لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا فى الأحلام ، ولكنه حدث فى الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس » .

---

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هي :

– تاء التأنيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتفرقة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مرضع ، ثيب.

– ألف التأنيث المقصورة : وهى ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .

– ألف التأنيث الممدودة : وهى مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ، وهى تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع : القواعد الصرفية ـ الدكتور على أبو المكارم ـ طبعة ١٩٧٩ ص : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) قدح : أثَّر . يقال : قدح الشيء في صدرى : أثَّر . وفى حديث على كرم الله وجهه : يقدح الشك فى قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب ـ مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج . قال تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ٢/١٣] .

(٤) قال الأزهرى وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب ـ مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛ لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبَّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ⑤ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه[1] .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علِم تأويل الرُّؤيا ؛ وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ علِموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٤٧/٤) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط[1] ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب علُوّ عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة[2] ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامى.

أما الخيِّر فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقة » ؛ لكنه يُقلِّل من التفكير فى رَدِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفعتين بدلاً من « العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عَمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف – وهم الأسباط[3] – بدءوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

---

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ١/ ٣٠٠].

(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلُّم . وقيل : بالسليقية ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب – مادة : سلق] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنَى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذاك.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المُؤْلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ [1] أَرْضًا يَخْلُ [2] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجُبّ [3] لعل أن يلتقطه بعض السَّيارة [4] . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ [5] الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا في نجاته .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه . قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف] أي : ألقوه في أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف] أي : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/ ٢٠٩] .

(٣) الجب : البئر التي لم تُبْنَ بالحجارة . قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُقَبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ⑲ ﴾ [يوسف] أي : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ⑨⑥ ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ③ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ٢/ ٦٤ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمَنْ لا تقوى على مُجَابهته، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذى قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللّه المخلصين[1] .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »[2] .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة[3] . أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٨٥) .

(٣) بان الشىء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن وهى بيِّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البيِّن والمبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر . وبين الشىء وأبان وبيَّن واستبان : لم يَعُدْ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/٩١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يأتِ ذكْر للمجيء من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيا في عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً .. ⑤ ﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح[1] نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعني أن الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى.

أما ﴿ فَيَكِيدُوا[2] لَكَ .. ⑤ ﴾ [يوسف]

فتعني أن كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتي بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ⑦⑥ ﴾ [يوسف]

أي : كِدْنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل بالعرق نضحاً : فضَّ به . ونضحت العين : فارت بالدمع وعيناه تنضحان ونضحت الخابية والجَرَّة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت . [لسان العرب - مادة : نضح بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق على العمل أو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ٢/١٨٠] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ[1] وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ[2] وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

أى : كما آنسك الله بهذه الرؤيا المُفْرِحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك : لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتى كطلاسم ، ولها شَفْرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهى ليست عِلْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس القويم ١١٧/١] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أُحْدوثة ، وهى الحديث العجيب . والحديث قد يُطلق على الرُّؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدَّث الناس عنهم . [القاموس القويم ١٤٥/١] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ[1] ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففي حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[2] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⦗٦⦘ ﴾ [يوسف]

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عزٍّ

---

(١) الجدب : القحط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدبة : التي ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلأ ، والأرض المجداب : التي لا تكاد تُخْصِب . [لسان العرب - مادة : جدب] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٥٠) : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [يوسف] أي : بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه » .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا[1] لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

أى : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن « فى » تدل على الظرفية[2] ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شىء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسفٍ .

و ﴿ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يلْفت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد أُلقى فى الجُبِّ وأُنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء] ، وسُمِّى إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ابن كثير ١/٥٦٠] .

(٢) قال ابن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٤٤) : « فى : حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : ﴿ الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] » .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهى تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات الكونية رصيد للنظر فى الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛ فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية ؛ لا بُدَّ أن تفكر فى ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هى المعجزات الخارقة للنواميس التى يأتى بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التى صارت بَرْداً[1] وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذى انفلق وصار كالطود[2] العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن الكريم .

وفى قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ ٧ ﴾ [يوسف]

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ ٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ ٦٩ ﴾ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال على ابن أبى طالب : أى لا تضر به . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : ﴿ وَسَلَامًا ۝ ٦٩ ﴾ [الأنبياء] لآذى إبراهيم بردها . وقال جويبر عن الضحاك : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ ٦٩ ﴾ [الأنبياء] قالوا : صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شىء حتى أخمدها الله » [انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٤] .

(٢) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝ ٦٣ ﴾ [الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذى كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سَلْوى[1] لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاً لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نَفْيه إلى الشام ، ومحاولتهم قَتْله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كَنفه .

إذنْ : فلا تيأس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومَنْ معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ[2] وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

---

(١) سلأنى من همّى تسلية وأسلانى أى كشفه عنى . وانسلى عنى الهمُّ وتسلى بمعنًى أى : انكشف . [لسان العرب - مادة : سلا] .

(٢) الباساء : الفقر والشدة . قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء : طول المرض أو أى شدة أو نقص الأموال والأنفس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السراء . [القاموس القويم ١/ ٥٢ ، ٣٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً[1] .

ولذلك نجد رُؤْيَا الخير يطول أَمَدُ تصديقها ؛ ورُؤْيَا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي ، لأنها لو ظَلَّتْ دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسة تخيُّل الشر بكُلِّ صوره.

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله مُتخيِّلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتأويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[2] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[3] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

---

(١) « قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه » . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩١) .

(٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوَّهه أو مَحاهُ وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وطمس على عينه : أعماها مضمَّنة معنى غطّى وغشي عليها . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ .. (٦٦) ﴾ [يس] . [القاموس القويم ١/ ٤٠٦ باختصار].

(٣) شدَّه : قوَّاه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحكماً . وشد أسره : قوّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً . أي : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] أي : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٢٠) ﴾ [ص] أي : قويناه . [القاموس القويم ١/ ٣٤٣ ، ٣٤٤ بتصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آية للسائلين » أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية فى آية واحدة ، مثلما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً[1] .. ۝ ﴾ [المؤمنون]

مع أن كلاً منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه فى آخر هذه الآية أن القصة : ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرّضهم اليهود[2] على أنْ

---

(١) أى : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية (٢٤٦/٣) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥٠/٤) : « أى : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خُبِّروا به ، لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وَجَّه اليهودُ من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبَر من الأمم السابقة ، وجاء الوَحْيُ لينزل على الرسول الأميِّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذى لا يَقْوَى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هاتْ أنت أىَّ إنسان ليتكلم ثُلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أُنزِل إليه من ربه ، ويُمليه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ فى الصلاة ما أُنزِل عليه ، ورغم أن فى القرآن آياتٍ متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطيء مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٧ ﴾ [لقمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ[1] الْأُمُورِ ۝٤٣ ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

---

(١) عزم الأمر : من المجاز أى نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. ۝٢١ ﴾ [محمد] فعل لازم أى : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ۝٢٢٧ ﴾ [البقرة] أى : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٨٦ ﴾ [آل عمران] أى : من الأمور الجادة الرشيدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى . [القاموس القويم ٢/ ٢٠].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ [الحجر]

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور]

فكيف يتأتَّى لبشر أُميٍّ أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الوحى قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ[2] مُّبِينٍ (٨)﴾

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا[3]

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..(٨)﴾ [يوسف] . عصبه : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود] أى : شديد العَصْب يعصب الناس ويُضيّق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول . [القاموس القويم ٢/٢٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأَوْلى كقوله فى قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)﴾ [يوسف] أى : شدة تعلقك بيوسف وحزنك عليه فهو فى نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ١/٣٩٥] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥١) : « أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلى : أم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين . وقيل : فى اسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا » .

عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا.. ⑧﴾ [يوسف]

وحرف اللام الذى سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبُّه لنا . والتوكيد لا يأتى إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون فى أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه فى الجب[1] ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفى قولهم لَمْحة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبُّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صغاراً وماتت أمهما[2] ؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذى أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله فى قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخْل ليعقوب فيه ؛ بل هى مسألة إلهية أودعها الله

---

(١) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : هى البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَيَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقَبَّبة . [لسان العرب - مادة : جبب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل فى نفاس بنيامين . ذكره القرطبى فى تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى فى قلوب الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة ـ على سبيل المثال ـ إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛ تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سأله « أى أبنائك أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر يعيش على الكفاف[1] أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛ ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية[2] ؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .

---

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهرى : كفاف الشىء بالفتح مثله وقَيْسُه ، والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى أغنى فهو لا يفضل عن الشىء ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب ـ مادة : كفف].

(٢) الطبع والطبيعة : الخليقة والسجية التى جُبل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثة [لسان العرب ـ مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ[2] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضي الله عنه - بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون نفاق - : أحبك يا رسول الله عن مالي وعن ولدي أما عن نفسي ؛ فلا . فكرر النبي ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[3] .

---

(١) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجُرْم . قال تعالى : ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ﴿٨﴾﴾ [المائدة] أي : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أي : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أي : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١٢٦/١] .

(٢) شناه وشنئه شنئاً وشناة وشنآناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] وشانيء : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر] أي : مبغضك وكارهك . [القاموس القويم ٣٥٧/١] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٦/٤) .

ففطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدىٌ وتكليفى ؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل ـ كما نعلم ـ هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى[1] المسلم فى حُبِّ رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مبادىء الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛ حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوى وجهك عنى ؟ قال عمر : لأنِّى لا أُحبك ، فأنت قاتلُ أخى . فقال الرجل : أو يمنعنى عدم حبك لى من أىِّ حق من حقوقى ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : « لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

---

(١) السمو : الارتفاع والعلو . سما الشيء يسمو سمواً : ارتفع . وتساموا : تباروا . وتساميها : تباريها وتفاخرها . والتسامى : الرِّفْعة والارتقاء . [لسان العرب ـ مادة : سما] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤاخَذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا انصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويُقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا[1] أباهم في الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (٨) ﴾ [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا[2] في غَيِّهم[3] ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم :

---

(١) الفجيعة : الرزية الموجعة . فجعته المصيبة : أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة . [لسان العرب - مادة : فجع] .

(٢) السادر : المتحير ، وهو أيضاً الذي لا يهتم لشيء ولا يُبالي ما صنع . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) الغيُّ : الضلال والخيبة . غوى : ضلَّ . والغواية : الانهماك في الغيِّ . والغوى : شديد الضلالة والغواية . وأغواه : أضلَّه وأوقعه في الغيِّ والضلال . [القاموس القويم ٢/٦٤] .

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بُدَّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشي فيسلك طُرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. ②⑧② ﴾ [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ ﴾ [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف

وأخيه ؛ ووصلوا إلى نتيجة ضارَّة ؛ لأن المقدمات التى أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة ؛ ولو أنهم مَحَّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التى قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على ألسنة إخوة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ(١) أَرْضًا يَخْلُ(٢) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ؛ فقالوا : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

فكأنهم خافوا من إثم القتل ؛ وظنُّوا بذلك أنهم سينفردون بحبِّ أبيهم ؛ لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

والوجه هو الذى تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) طرح الشيء وطرح به : رماه . والطَّرَح بالتحريك : البُعْد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه في أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يُشْتَغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح ؛ ويعرفون أن الذى فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح ؛ لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصىَ والكبائرَ .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص[1] علاقتهم بأبيهم ؛ فحين يخلُو لهم وجهه ؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءًا من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً ؛ فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

---

(١) النغَص : كَدَرُ العيش .. وقد نغص عليه عيشه تنغيصاً أى : كدَّره ، ونغَّص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدياد منه فهو مُنغِّص . [لسان العرب ـ مادة : نغص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ[1] الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[2] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى[3] ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم فيسُدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم ؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استطراق .

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف] وقرىء غيابات بالجمع . [القاموس القويم ٢/٦٥] وغيابة كل شيء : قعره ، ووقعوا في غيابة من الأرض ، أي : في منهبط منها . [لسان العرب - مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير - والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة] أي : للمسافرين . [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طيًّا : عرشها بالحجارة والآجُرّ . [لسان العرب - مادة : طوى] .

وكلمة : ﴿ غَيَابَةِ الْجُبِّ ۝١٠ ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفية فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتّى إلقاؤه فى مكان مَخْفىٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ۝١٠ ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت مُتوقِّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل[1] لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠ ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : «لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٢) : « القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب. قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته . وقيل : شمعون » .

ويضيف :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ[1] بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⑩ ﴾ [يوسف]

وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⑪ ﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذى خفّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء فى الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه ، وفى حضور كل الإخوة :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ .. ⑪ ﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذى قال ، وأمَّنَ الباقون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

---

(١) التقط الشيء ولقطه : أخذه ليصونه أو لغرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ .. ⑧ ﴾ [القصص] فأخذوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصونوه . [القاموس القويم ٢/١٩٨] .

قال موسى عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

ورَدَّ الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردتْ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

---

(١) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكماً وشد أسره : قوَّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قوَّيناه . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أحكم الغطاء واربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم . [القاموس القويم ١/٣٤٤] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⑪ ﴾ [يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرٌّ ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ[1] وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑫ ﴾

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بعلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به ؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى الرماية[2] وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِى عن واجب ، أما اللهو[3] فهو شُغُل يُلهِى عن واجب .

---

(١) رتع يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [القاموس القويم ١/٢٥٤] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النبى ﷺ بنفر يرمون ، فقال : رميا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا » أخرجه أحمد فى مسلم (١/٣٦٤) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهْوا : تسلَّى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها ، أو تسلى بما لا يفيده . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ .. ⑪ ﴾ [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطبل والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٢/٢٠٥] .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذِّن المؤذن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة فى ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التى يخاف فيها من فِراق يوسف لقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهى :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يوسف]

وقال بعض الناس[1] : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٧٠) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطى فى « الدر المنثور » (٤/٥١٠) آثاراً فى هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب » .

وهذا ليُربّى فيهم مواجيد الأخوة التى تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرّ ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ فى ردّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذى دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ⦗١٤⦘ ﴾

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم ؛ كى يأذن فى خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحيطون به كعُصْبة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٢/٤) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ⦗١٤⦘ ﴾ [يوسف] أى : إنا لخاسرون فى حفظ أغنامنا ، أى : إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا » .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أخْذٌ وردٌّ ، إلى أن استقروا عليها[2] .

وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحي كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتي في القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة في مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح ؛ إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا[3] .

---

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه] أي : عزم عليه وأحكمه . وأجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف] أي : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبي في هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بني شفقتي عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عَجِّل بردّه إليّ . قال : فأخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبي ٣٤٦٢/٤] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ فقال : إني ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يُقال له يوسف ، يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم » (أورده السيوطي في الدر المنثور ٥٦١/٤)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يلْحَظْ إخوته هذا الوحي .

ونقول : إن الوَحْي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر ؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ[1] أخٌ لَّهُ من قَبْلُ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحي في هذه الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - هو إيناس الوَحْشة ؛ وهو وارد إلهي لا يرده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم[2] .

---

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجد أبي أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل علي يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به ولَهٌ فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمي إليَّ يوسف فو الله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة قالت : فو الله ما أنا بتاركته ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت . اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، راجع تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] .

والوارد الإلهى لا يجد له معارضة فى النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنسُ وحشته[1] حين ألقاه إخوته فى الجُبِّ الذى ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التى درج[2] فيها وأُنْسه بالبيئة التى اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذى كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك - وهم إخوتك - سوف يُضطرون لدقّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذى ألقوْه فيه ، وبقى أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التى توجد فى النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

---

(١) ومما ورد فى هذا ما نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٦٥) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملا ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددها يوسف فى ليلته مراراً ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ » .

(٢) يقال للصبى إذا دَبَّ وأخذ فى الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشيا مَشْياً ضعيفاً ودَبَّا . [لسان العرب - مادة : درج] .

بإخيهم ، وأخذوه وألقوه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً[1] أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلٌّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتلق[2] .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَرُ للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عِشاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) ﴾ [يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى فطرىّ ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء

---

(١) ضننت بالشئ أضن : بخلت به ، وهو ضنين به . ورجل ضنين : بخيل . والضِّنَّة والضَّن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) ﴾ [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه. الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلَّق قوله . [لسان العرب ـ مادة : خلق]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء[1] .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التى أعطاها لذاته ، ولم يُعْطها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحى ، وهو الذى يُضحك ويُبْكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزى وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفتعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٦/٤) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إذَا اشتبكتْ دُمُوعٌ فى خُدودٍ   تبيَّنَ مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى ».

نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصْحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركوني »[1] .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[2] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف]

تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجري نحوه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] أي : نتبارى في الجري والسبق . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [البقرة] تباروا في الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [القاموس القويم ٣٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان في الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بآلة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِن ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم في منتصف الوتر ، ليشده الرامي فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف » .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب[1] الذى لا يَنْهى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

---

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، واللهو لا يكون إلا مذموماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عدوَّان ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهِي لعب الكرة عن واجب : فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا[1] .. (١٧) ﴾ [يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. (١٢) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

---

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أي : وصنع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأدوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/٢١٥] .

وهذا أول الكذب الذى كذبوه ؛ وهـذه أول مخالفـة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذونى» نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنـهم يعلمون أن والدهم لن يُصـدِّقهم مهـما قالوا . ونعلم أن «آمن» إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل «آمنه الله من الجوع» ، أو قوله الحق :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

أو : تجىء بالباء ، ويُقال «آمن به» أى : صدَّق واعتقد .

أو : يُقَال «آمن له» أى : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ[1] بِدَمٍ كَذِبٍ[2] قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ[3] لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

---

(١) القميص : ما يحيط بالبدن وقد يُسمَّى شعارًا وما فوقه دثار ، وقد يُسمَّى كل ثوب قميصاً . والجمع أقمصة وقُمص وقُمْصان . [القاموس القويم ٢/١٣٣] .

(٢) «قال مجاهد : كان دم سخلة أو جدى ذبحوه . وقال قتادة : كان دم ظبية ، أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة : «بدم كدب» بالدال غير المعجمة ، أى : مدم طرى . وحكى أنه المتغير ، قاله الشعبى» (تفسير القرطبى ٤/٣٤٧١) .

(٣) سولت نفسه له أمراً : زينته له ليفعله . وسول له الشيطان : أغواه . والتسويل : تحسين الشىء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [لسان العرب - مادة : سول] .

كأن قميص يوسف كان معهم . ويقال : إن يعقوب علَّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له[1] .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة[2] تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُر لحظة أنْ جذبته امرأة العزيز لتراوده[3] عن نفسه .

وفي آخر السورة[4] يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

---

(١) نقل القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٧١) ، أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره » .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف].

(٣) راوده على الشيء : مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] أي : طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة . [القاموس القويم ١/٢٨١ بتصرف] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣)﴾ [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقيل «قميص عثمان » رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [1] .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب مَنْ جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدرى للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عَدْل » أى : كان العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شرّ » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَف الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

---

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملفقة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكنْ أنيابه قد مزّقتْ القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم ؛ أشار أحدهم خُفْية للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه[1] ؛ وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة[2] التي يتحلى بها أيُّ محقق في قضية قتل ؛ حين يُقلّب أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكنْ ذَكُوراً »[3] .

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

« والسَّوْل » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشاف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم ، فاتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟! » .

(٢) الفراسة : في النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به ولهما معنيان قالهما ابن الأثير :
أحدهما : ما يُوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .
الثاني : نوع يُتعلَّم بالدلائل والتجارب والخَلْق والأخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس » . نقله ابن منظور في [لسان العرب - مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشيء تذكره . ورجل ذَكِيرٌ : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر : تذكر ما أنسيته . [لسان العرب - مادة : ذكر] .

مشدودة ؛ ثم يجب أن يسترخي ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئاً من اليُسْر في بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. ⑱ ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ⑱ ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياد خطأ فـي القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفـون أن الصبر يُقال فيه « اصـبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورِث إيلاماً ؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصـبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ [1] هَجْراً جَمِيلاً ⑩ ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفـية استقباله وفهمه ؛ وقد بيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ⑧⑥ ﴾ [يوسف]

---

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً : تركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ ﴾ [المدثر] أي : اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له ، وهذا الأمر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجزاً . وقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ⑩ ﴾ [المزمل] أي : اتركهم وابتعد عنهم في سماحة بغير إيذاء . [القاموس القويم ٢/٢٩٨] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] .. ⑱ ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ⑱ ﴾ [يوسف]

كان الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدِّق الكذب ؟ كيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قِيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسي تأساء وتعزية ... إحدى يدىَّ أصابتْني ولم تُرِدِ

كِلاهُمَا خلف عَنْ فَقْدِ صاحبِهِ ... هذا أخي حين أدعُوه وذَا ولدِي

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ عل خَلْق الله ؛ ولا بد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علَّمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] ؛ وحزبه أمر

---

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر : من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

ما يعني : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى المُسبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعني : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ[1] أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

أي : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات]

وتعني أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[2] وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا عبّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

---

(١) وصف الأمر : ذكره وعرَّفه وتحدَّث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل] أي : تذكره وتقوله . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] أي : من الوصف الذي يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك ، وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام] . أي : جزاء وصفهم وعقابه . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن يوصف به الحسيّ والمعنوي . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] وهو جمال معنوي ، وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر] الذي لا لوم معه ولا عتاب . والسراح الجميل : الطلاق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة وبغير إيذاء . وقوله : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل. [القاموس القويم ١/ ١٢٨] .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول فى فاتحة الكتاب :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتُخلص فى عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتى لموقف يوسف عليه السلام فى الجُبِّ .

يقول سبحانه :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ(١) فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ(٢) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ(٣) قَالَ يَا بُشْرَىٰ(٤) هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ(٥) بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ ﴾

---

(١) السيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿وجاءت سيارة ۝١٩﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿متاعا لكم وللسيارة ۝٩٦﴾ [المائدة] للمسافرين . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لتشرب ، والوِرْد : الماء الذى ترد عليه . والواردة : وُرَّاد الماء . والورد : الوراد وهم الذين يردُون الماءَ . [لسان العرب - مادة : ورد] . ورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) الدلو : الوعاء الذى يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه .. ۝١٩﴾ [يوسف] أى : أنزله فى البئر ليخرج منه ماء . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٧٥) : « فى معناه قولان :

أحدهما : اسم الغلام .

الثانى : يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً . قال السدى : نادى رجلاً اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبى : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم » .

(٥) أسررت الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث : ألقاه إليه سراً ولم يُطلع عليه أحداً معه . وقوله : ﴿وأسروا الندامة .. ۝٥٤﴾ [يونس] أخفوها فى صدورهم وفى سرائرهم . وقوله فى قصة يوسف : ﴿ وأسروه بضاعة .. ۝١٩﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿ تسرون إليهم بالمودة .. ۝١﴾ [الممتحنة] أى : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهو تبكيت وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون المودة لهم ، أى : تجعلون مودتكم لهم سرًا ، وتخفونها عن المسلمين نفاقاً وخداعاً . [القاموس القويم ١/ ٣١٠] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ؛ ليأتي لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه في البئر ؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف في الحبل : فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أي : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشيء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أي : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشي بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً آبقاً[1] ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[2] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكَمّ أو فى الكَيْف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كمًّا وإما كَيْفًا .

---

(١) أبق يأبق : هرب من مالكه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات] جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [القاموس القويم : ١/٤] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يُوفِّه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] . والثمن البخس : القليل الناقص عن مثله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظلماً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أى شىء يأتى من ورائه فهو فائدة لنا[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ[2] عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٣٤٧٩) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً أى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم ، لا عند الإخوة ، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا - والزهد قلة الرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أَوْلَى » .

(٢) ثوى المكان ، وثوى به يثوى : حله وأقام فيه واستقر به ، فهو متعد ولازم واستعمل القرآن اللازم ، فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] أى : مقيماً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى . قال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعبّر باسم المكان عن الحالّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المحلية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وكان للشراء علّة ؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن مَن اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبِّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحظور وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أن تعتني بالمكان الذي سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضي أن تعتني بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفْع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه ؛ وكإنسان تربَّى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.. (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد علمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد[1] .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والاحلام ؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضَنُّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو عَلِم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

---

(١) « قال ابن عباس : كان حصوراً لا يُولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد له ، فإن قيل : كيف قال (أو نتخذه ولداً) وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتبني ، وكان التبني في الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان في أول الإسلام » ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٨٢) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شىء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قَيُّوم[2] ؛ لا تأخذه سنة[3] ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلمُوا أن الله يُملِّك بحق مَنْ يُظلم فوق الذى ظلمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ[4] ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب - مادة : قوم] .

(٣) وسنَ يوْسَنُ سنة : نام نومة خفيفة ، السِّنة : الغفلة . قال تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أى شىء ولا نوم من أى نوع ثَقُل أو خَفَّ كثُر أو قلَّ . [القاموس القويم ٢/٣٢٨] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٨٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ..(٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النُّضْج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أَنْ يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممتلىء بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة[1] ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تأويل الرُّؤى[2] ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يُولَّى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أَشُدَّه وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لمَا هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

---

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والأرعن : الأهوج فى منطقه . [لسان العرب ـ مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا : وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [القاموس القويم ١/ ٢٥٠] .

الحُسْن ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَرِ الله أن جعله فقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدرى ، وأحسنتَ عملك ؛ فخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَر الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمِّم الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام.

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِنٍ يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة[1] ، وهنا بدأت متاعبه فى القَصْر ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛ وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

---

(١) الفتاء : الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال . قال الشاعر :

إنَّ الفَتَى حَمَّالُ كُلِّ مُلمة ليسَ الفتى بمُنعَّمِ الشُّبانِ

[لسان العرب ـ مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة[1] ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علّة غَضّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدركتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإنْ لم تتعفف عربدت[2] فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدِى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ[3] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ[4] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها . وشبّة النار : اشتعالها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبى عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شبّت النار وشبت هى نفسها ، قال ولا يقال : شابّة ، ولكن مشبوبة. [لسان العرب - مادة : شبب] .

(٢) رجل عرْبد وعربيد ومعربد : شرِّير مُشَارٌ ، ويقال للمعربد : عربيد كأنه شبه بالحية . [لسان العرب - مادة : عربد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمِّى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول : قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. (٧٢)﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. (٢٢٨)﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى - وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/ ٧٦] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها ، وكذلك الأربة والمارب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ .. (٣١)﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١/ ١٧] .

أي : الذي بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر في الرغبة في النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو في فتوته ، بعد أن بلغ أشُدَّه نظرةً مختلفة ، يوضحها الله تعالى في قوله :

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ[1] ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ[2] قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) ﴾

وساعة تسمع «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فَاعَلَ » أو « تَفَاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أي : أن علياً شارك محمداً ؛ ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُرَاوِدة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده ممَّنْ تريده ؛ فإنْ كان الأمر مُسهّلاً ، فالمُراودة تنتهي إلى شيء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف

---

(١) غلق الباب يغلقه غَلْقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلَّقه بالتضعيف للمبالغة في إغلاق الأبواب وإحكامها ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف] أي : أحكمت إغلاقها لتأمن على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٢/٥٩] .

(٢) هيَّأ الشيء : أعده وجهَّزه ويسَّره ، قال تعالى : ﴿ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا (١٠) ﴾ [الكهف] أي : يسِّر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهئت للأمر : أعددت نفسي له ، وقرئ في سورة يوسف عليه السلام (وهِئْتُ لك) أي : أعددت نفسي لك . و (هيت) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف] والمعنى : أقبل . واللام للتعدية ، أي : أدعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم ٢/٣١١ ، ٣١٢] .

الثانى بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهى المراودة إلى الشيء الذى كنت تصبو[1] إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أى : طالبته برفق ولين فى أسلوب يخدعه لِيُخرِجه عمَّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضِر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه فى بيتها ؛ وهى مُتمكِّنة منه ؛ فهى سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربَّى فى بيتها ؛ وهى التى تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب راقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

وكلمة : ﴿ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

توضح المبالغة فى الحدث ؛ أو لتكرار الحَدث ، فهى قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج[2] لنؤكد غَلْق باب ، ونحرك المفتاح ، وندير لتأكيد غَلْق الباب .

---

(١) صبا يصبو : مال واحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يُغريننى به ، وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٢) الزُّلاج والمزلاج : مغلاق الباب ، سُمِّى بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أى أغلقته . والمزلاج : المغلاق إلا أنه ينفتح باليد ، والمغلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب ؛ وإذا أضفنا مِزْلاجاً جديداً تكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصفَ ما فعلنا أننا غلّقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فَقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليلقى العظيم الذي جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب[1] أنها أبهة[2] ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر[3] .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنَّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

---

(١) الأريب : العاقل ، والإرب والأرب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الإرب : الدهاء والمكر . [لسان العرب ـ مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أي ذو كبر وعظمة . [لسان العرب ـ مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو علي القالي في أماليه (١٣٦/٢) : « قال المغيرة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فعْله ، وهى قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون فى القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ..(٢٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل ؛ بأن قالت : تهيأتُ لك ؛ وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجدك ؛ فكأن المسألة قد عزَّتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذًا إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبى ﷺ عقد على ابنة ملك[1] ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبى بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضى الله عنها : إنْ تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبى يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها[2] . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولى « أعوذ بالله منك » .

فغادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُذْتِ بمعاذ »[3] وسرَّحها السراح[4] الجميل .

وهناك فى قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً[5] :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم]

فهى استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

---

(١) جاء فى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٩/٣٥٩) : « وقع عند ابن سعد (فى الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلت عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : إن النبى ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ١/٣٠٩].

(٥) السوى من الرجال : من ليس فى خلقه عيب وليس فى بدنه مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) ﴾ [مريم] أى : حالة كونك كامل الخلْق لا خرس بك ولا بكم ولا أى عجز . وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] مستوى الخَلْق فى صورة إنسان كامل جميل وضىء . [القاموس القويم ١/٣٣٩] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ[1] إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجّاه من الجُبِّ ؛ وهيَّأ له أفضل مكان في مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ.. ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف]

ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..﴿٢١﴾﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرِم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

---

(١) المثوى : اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران] اسم مكان قُصد به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] أي : إقامته ، أي : أكرمي يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالِّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المجازية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وتلك ميْزة أسلوب القرآن ؛ فهو يأتى بعبارة تتسع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذى يُجازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى نفس الموقف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يسىء يأتى الله بالضد ؛ فلا يُفلح ؛ لأن القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

و ﴿ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ[1] وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ[2] رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ[3] (٢٤) ﴾

---

(١) هم بالفعل يهم به همآ : قصده واتجه إليه بنيته ولم يفعله ، قال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ .. (١١) ﴾ [المائدة] أى : عزموا واتجهت نيتهم إلى حربكم والتعدّى عليكم وإيذائكم فكفهم الله ، وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] همت به : هم عَزْم وتصميم . وهَمّ بها هَمّ ترْك وإعراض ومقاومة . أى . هَمّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٢/٣٠٧ بتصرف] .

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التى ثبتته على الحق وصرفته عما هم به ـ أو لولا أن رأى برهان ربه ، أى الدليل على قدوم سيده وحضوره ، وقدّر الله مجىء سيده إلى البيت فى هذا الوقت ليصرف عنه السوء . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول «مخلَص» بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الأتقياء المطهرين . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

والهَمُّ هو حديث النفس بالشيء ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه. ومن رحمة ربنا بخلْقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها ؛ ولم يفعلها كُتبتْ له حسنة[1] .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ، والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفَاعلة بين اثنين يصطرعان في شيء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين قالت : « هيت لك » وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف «معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى في حديث النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا نعلم أن « لولا» حرف امتناع لوجود ؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِد منه ؟

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنِّين[1] أو خَصَاه موقف أنها سيدته فخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهمّ بها ؛ لكان المانع من الهَمّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارئ لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أشُدّه ونُضْجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة[2] ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يَقربَ عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمّ على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَال : ولقد همَّتْ به ولم يَهِم بها .

---

(١) العنين : الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن بيِّن العنانة . وعُنِّن عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر . وامرأة عنينة كذلك : لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّي عنيناً لأنه يعن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [لسان العرب ـ مادة : عنن] .

(٢) بغته بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون (٩٥) ﴾ [الأعراف] والمباغتة : المفاجأة والبَغْت والبغتة : الفجاءة ، وهو أن يفجاك الشيء . [لسان العرب ـ مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجِد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمِّ ، فواحد هَمَّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهَمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه هَمَّ وجلس بين شعبتيها[١] ، ولم يرتعد إلا عندما تمثَّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل[٢] ؛ فافسقُ الفُسَّاق ولو تمثَّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة[٣] يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا[٤] على أن يوسف لم يحدث منه شىء .

---

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الغسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشُفْرا فرجها ، كنى بذلك عن تغييبه الحَشَفَة فى فرجها . [لسان العرب ـ مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبير : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٤٩٢/٤] .

(٣) رجل فحيل : فحلٌ، وإنه لبيّن الفُحولة ، غير خصىّ بل هو مُنْجِب . [لسان العرب ـ مادة : فحل] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظافروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتألبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب ـ مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .. (٢٦) ﴾ [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لمَا قال :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ[1] .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

وقالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ[2] الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ[3] أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ..(٥٢) ﴾ [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

والصَّبْوة هي حديث النفس بالشيء ؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة ؛ لأن الحق سبحانه قد قال :

---

(١) استعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع متمسكًا بعصمته وعفة نفسه ويحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

(٢) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه . قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١) ﴾ [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « الحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه » . [مادة حصص] .

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨١) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة ».

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ .. (٣٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتى تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يقلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ..(٣١) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوَيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز ؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقفنه هُنَّ ؛ وهذا دَأْب[1] البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هى التى راودتْ يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبْنَ ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ :

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١) ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧) ﴾ [يوسف] أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ.. (٣٣) ﴾ [إبراهيم] أى : مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . [القاموس القويم ١/ ٢١٩] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذى يتكفل دائماً بالغُواية ، وهو لا يدخل أبداً فى معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز - هو كشيطان - عن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذى من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ(٢) مِن دُبُرٍ(٣) فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) أغواه : أضله وأوقعه فى الغىّ والضلال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ..(٦٣) ﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا . وغوى يَغْوِى غياً غواية : انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد . قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة] وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . والغاوى : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾ [الشعراء] أى : الضالين المنهمكين فى أعمال الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) قد الثوب : شقه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] . والقِدَّة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها. قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الرأى جمع قِدَّة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

(٣) الدبر : مؤخَّر كل شىء وعقبه وظهره ضد القبل . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : من خلف . وولَّى المحارب دبره : كناية عن فراره . قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] أى : ويفرون . وجمع الدبر أدبار . قال تعالى : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ [ق] أى : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ١/٢٢٠] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حقّ أحد أن يتساءل : هل همّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يهِمّ ؟

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْلا أن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..(٢٤)﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. (١٦٥)﴾ [النساء]

أى : لا بُدّ أن يبعث الحقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدّقون المنهج الذى يسيرون عليه ؛ كى يعيشوا حياتهم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ[1] عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤)﴾ [يوسف]

والفحشاء هى الزنا والإتيان ؛ والسوء هى فكرة الهمّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

---

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال. وصرف النقود : تغييرها أو إنفاقها . وصرف السجين : أخلى سبيله . وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧)﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

مرحلة السُّعَار[1] لحظة أن سبقهـا إلى الباب ؛ فكَّرتْ في أن تقتله ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل[2] .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعـنى بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمّ ، وهى مُقدِّمات الفعل.

ويقـرر الحق سـبحـانه أن يوسف عليـه الـسـلام من عـبـاده المُخْلَصين ، وفى هذا رد على الشيطان ؛ لأن الشيطان قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف]

يؤكد إقـرار الشيطان أنـه لن يَقْرب عبـاد الله المخلصـين . وهناك «مُخْلِصين » . و « مُخْلَصين » والمخلص هو مَنْ جـاهد فكسب طاعة الله ، والمُخْلَص هو مَنْ كسب فجاهد وأخلصه الله لنفسه[3] .

وهناك أُناس يَصِلُون بطاعـة الله إلى كـرامـة الله ، وهناك أُناس

---

(١) السُّعار : شدة الجوع . يقـال : سُعِر الـرجل ، فهو مـسعور ، إذا اشـتد جوعـه وعطشه . والسعْر : شـهوة مع جـوع . والسُّعُر : الجنون . وسـعـار العطش : التـهابه . والسـعير والساعـورة : النار . وقيل : لهبـها . والسُّعار والسُّعْـر : حرها . [لسان العـرب ـ مادة : سعر] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره أنَّ من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمَّ بضربهـا ودفعها عن نفسه ، والبرهان كَفَّـه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قـصدها بالحرام فامتنعت فضربها . [راجع تفسير القرطبى ٤/٣٤٨٨] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً مُطهَّراً ، واسم المفعول « مُخْلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسـف] أى : الأصفـياء الأتقياء الـمطهرين . وأخلص دينه لله : طهَّره وصفَّاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - ولله المثل الأعلى - مُنزَّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخْذ وردّ ؛ ينتقل بنا الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا[1] سَيِّدَهَا[2] لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا فى هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) ألفى الشيء : وجده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه . [القاموس القويم ٢/١٩٧] .

(٢) ساد قومه يسودهم سيادة : شرُفَ عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] سيداً أى : شريفاً ورئيساً فى الدين والعلم . وقال : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا .. (٦٧) ﴾ [الأحزاب] أى : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهى قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهى تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدَّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدَّته من قميصه من الخلف ، وتمزَّق القميص فى يدها ، وقد محَّص الشاهد - الذى هو من أهلها[1] - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهى ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثيا : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام فى شكل سؤال تبريرى للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ [يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

---

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ[1] شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا[1] إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ[2] مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْن مختلفين ؛ قولها هي باتهام يوسف ؛ وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتي بمَن يفصل بين القولين ، وأن يكون له دِقَّة استقبال وفَهْم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾

وتأتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعانٍ متعددة .

---

(١) شهد : دلَّ بقول أو فعل ، وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا .. (٢٦) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١/٣٥٨] . وقال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٩٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أي : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٩٤ ، ٣٤٩٥) :

« اختلف في هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة » بتصرف .

(٣) قد الثوب : شقه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] والقدة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾ [الجن] أي : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

فهى مرّة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا[1] طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وتأتى مرّة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رجَّح كلاماً على كلام لاستنباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وثّق القرآنُ أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كذلك - أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها ؛ تدلَّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزَّق القميص.

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ[2] قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

---

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (١٨) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١٣٣/٢] .

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف ؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ[1] عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُۥ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه رتَّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

---

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه ، ومن ذلك قوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] أى : اجمعوا الوسائل التى تكيدون بها . [القاموس القويم ٢/ ١٨٠] .

مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم ؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا[1] وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ[2] (٢٩) ﴾

وبهذا القول من الزوج انهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعي عند هذا الحد ، الذى جعل عزيز مصر يُقِرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده فى عصرنا أيضاً ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أن يرى أهله فى خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله فى مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر فى نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهى

---

(١) أعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ٢/١٦] . قال القرطبى : « أى : لا تذكره لأحد واكتمه » . [تفسير القرطبى ٤/٣٤٩٧] .

(٢) الخطأ والخطاء : ضد الصواب . وقد خطيء يخطأ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعمَّد الذنب . قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾ [يوسف] أى : متذنبين .

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف]

وهو في قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقِرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس[1] عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة .

---

(١) أصل العَسّ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كان يعس بالمدينة ، أي : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب ، وقد يكون جمعاً لعاسٍّ كحارس وحرس . [راجع لسان العرب - مادة : عسس] .

ويحكى القرآن الموقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ[1] فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا[2] ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفردَ كلٍّ منهما ساقط فى اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثنى هو « امرأتان » ، لكن فى صيغة الجمع لا توجد « امرءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف]

وما قُلْنَه هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أى غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ..﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] أى : أصاب شغاف قلبها بحب قوى نافذ كالسهم . [القاموس القويم ١/ ٣٥٠] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ.. (٣٢)﴾ [يوسف]

والمكر هو ستْر شىء خلف شىء ، وكأن الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق ؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنِّكاية[1] بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن - أيضاً - شيئاً آخر ؛ أن يُنزلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأتيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز[2] ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

---

(١) نكى العدو نكاية : أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكاية أى هزمته وغلبته ، فنكى ينكى نكىً . [لسان العرب - مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة وبيده مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئاً ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب - مادة : عزز] .

فيُقال : « الأرض العَزَاز »[1] أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحد أنْ يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامرأة العزيز حين تصير مُضْغة[2] فى الأفواه ؛ لأنها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية[3] مشينة[4] .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا .. (٣٠) ﴾ [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الهوى » مثل : شقشقة[5] النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهواه » .

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : عزز] : « العَزَز والعزاز : المكان الصلب السريع السيل . وقال ابن شميل : العزاز ما غلظ من الأرض ، وإنما يكون فى أطرافها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العزاز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يمضغ : لاك . ومضغ الطعام يمضغه مضغاً . والمضغة : القطعة من اللحم . وامضغ التمرُ : حان أن يُمضغ . وتمر ذو مَضْغَة : صلب متين يُمضغ كثيراً . ومُضَغ الأمور : صغارها [لسان العرب : مادة - مضغ] والمقصود تشبيهها بقطعة اللحم التى يلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشىء . وازدريته أى حقرته ، والازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من زريت عليه زراية إذا عبته . [لسان العرب - مادة : زرى] .

(٤) الشين : العيب . وهو خلاف الزين . قال الفراء : العين والشَّيْن والشَّنار أى : العيب ، والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب - مادة : شين] .

(٥) شق النبات يشق شقوقاً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . وشقّ نابُ الصبى يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [لسان العرب - مادة : شقق] .

وقد ينتهي هذا الهَوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة[1] .

وبعد ذلك يأتي الكلف[2] ؛ أي : تكلُّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهي العشق[3] ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »[4] ؛ أي : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال « تبلت[5] الفؤاد » أي : تاه الإنسان في الأمر .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الهُيَام[6] ، أي : يهيم الإنسان على

---

(١) علِق الشيء علقاً وعَلِق به علاقة وعُلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد علِقها علقاً وعلاقة وعلق بها عُلوقاً وتعلَّق بها : أحبها . وقال اللحياني : العَلَق الهوى يكون للرجل في المرأة . [لسان العرب ـ مادة : علق] .

(٢) الكلف : الولوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشيء كلفاً وكُلْفة : لهج به ، وكلف بها أشد الكَلَف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب ـ مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدِقّ وتصفر . عن الزجاج . [لسان العرب ـ مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم في روضة المحبين (ص ٥٩) : « وأما التدليه ففي الصحاح : التدليه ذهاب العقل من الهوى ، يقال : دلهه الحب ، أي : حيَّره وأدهشه » .

(٥) قال في روضة المحبين (ص ٤٩) : « أما التبالة فهي فعالة من تَبَله إذا أفناه . قال الجوهري : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . وتبله الحب وأتبله ، أي أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيَّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هَيْمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهَيْم . مصدر هام يهيم هَيْماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهُيَّام : العُشَّاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [لسان العرب ـ مادة : هيم] .

وجهه ؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه « جوى »[1] .

تلك هى مراحل الحب التى تمر بالقلب[2] ، والقلب ـ كما نعلم ـ هو الجهاز الصنوبرى ، ويُسمُّونه مَقَرّ العقائد المنتهية ، والتى بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور ؛ فهو يعرضها على العقل ليوازن بينها ؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية ؛ فقد تأتى مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك يُقال للأمور التى استقرت فى القلب « عقائد » ، أى : شىء معقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره فى إخضاع سلوك حركة الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ فى نفس الإنسان ؛ فهو يجعل كل حركته فى ظل هذا المبدأ الذى اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمرُّ العقيدة بعدَّة مراحل قبل أن تستقر فى النفس ، فالإدراك[3] يحدث أولاً ؛ ثم التعقُّل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد

---

(١) الجوى : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم مقام أو درجة فى الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ، ثم الانفعال ، ثم النزوع ، أى : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وِفْقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا .. (٣٠) ﴾ [يوسف]

تعني أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشُّغاف هو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب ؛ أي : أن الحب تمكَّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾ [يوسف]

هو قول حَقٌّ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مَقْصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً[1] وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ[3] مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾

---

(١) تكيء يتكيء : جلس متمكناً ، أصله اوتكأ . قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف] . والمتكأ : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف] أي : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات متكئات . والمتكأ : ما يتكيء عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٣].

(٢) أكبر الشيء : عدَّه كبيراً ، أو عظم تأثره به فرآه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ٢/ ١٥٠] .

(٣) حاش لله ، أي : براءة لله ومعاذاً لله ، قال ابن الأنباري : معنى حاشى في كلام العرب أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشي وأعزله بناحية ، ولا أدخله في جملتهم . [لسان العرب ـ مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذى حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث فى القصر ؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر ؛ إنسان له علاقتان ؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتى ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء[1] : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن ؛ فمَنِ الذى نقل لَهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّى أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر ؛ وكيف يمكرن بها ؛ أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا .. (٣١) ﴾ [يوسف]

والمتكأ هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

---

(١) انظر : تفسير القرطبى (٣٤٩٨/٤) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفيـة جلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سـيطول وقتها ، وقـد خططتْ لتكشف وَقْعَ رؤيـة يوسف عليـهن ، فـقدَّمـتْ لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

ويُقـال : أكبـرْتَ الشىء ، كـأنك قـد تخـيَّلتـه قـبل أن تراه على حقيـقته ؛ وقد يكون خـيالك قد رسم له صورة جمـيلة ، إلا انك حين ترى الشىء واقعاً ؛ تكبر المرائى عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَـاءلةُ الرُّكْبَانِ تُخبِرني ... عـن جَعْفَرِ بنِ حبـيبٍ أصدقَ القيم

حتَّى التقـيْنَا فَلاَ واللهِ مَا سَمِعتْ ... أذنى بأطيبَ ممَّـا قَدْ رأى بَصَرِى

ويقولون فى المقابل : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه[1] . أى : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقص من قدر ما سمعت .

---

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبـره خيـر من مرآته ، يُضـرب للرجل الذى له صيت وذكـر ، فإذا رأيته ازدريت مَرآته . ومَعَدٌّ : حَىٌّ أو اسم للقبيلة . فأمـا قولهم فى المثل : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم فى هذا الضرب . [لسان العرب ـ مادة : معد] .

وهُنَّ حين آذَيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخَيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رَأَيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه ؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذى يجعل الشيء الذى طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان فى يدك شيء قد يقع منك.

وقد قطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التى أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ[1] أَيْدِيَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول[2] ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾[يوسف]

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٣) : « قال مجاهد : قطعتها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى ابن أبى نجيح قال : حزًا بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٧٦) : « ذكر غير واحد أنها قالت لهن ـ بعد أن أتت كل واحدة منهن سكيناً ـ : هل لكُنّ فى النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وهُنَّ يحززن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتُن هذا ، فكيف ألام أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالي ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفنها[1] ؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه ملَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتخيَّلة ، والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كابشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْنَ إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

---

(١) قال القشيرى أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة ملك ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] والجمع بين الآيتين أن قولهن (حاش لله) تبرئة ليوسف عمّا رمته به امرأة العزيز من المراودة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٥٠٥) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال فى النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء فى الانسجام .

ولذلك يُقال فى الريف المصرى هذا المثل «كل فُولة ولها كيَّال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب فى الزواج منها ؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع فى هَواها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعنى أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثانى.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذى يكتب القبول ؛ ويُظهِر فى المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث فى نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن يوسف هو الصورة العليا فى الجمال التى لا يوجد لها مثيل فى البشر[1] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢٨٦) والحاكم فى مستدركه (٢/٥٧٠) .

وأورد السيوطى فى كتابه (الدر المنثور) (٤/٥٢٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به . وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ والطبرانى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى[1] فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ[2] وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ[3] (٣٢) ﴾

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

مكوّن من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَٰلِكُنَّ » خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

---

(١) لامه يلومه لَوْماً : عذله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل منهما الآخر : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) ﴾ [القلم] ، والام : جرَّ على نفسه اللوم بفعل ما لا ينبغي فهو مليم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] أي : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢/٢٠٨] بتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] يحفظك ويقيك ، وقوله : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ (٤٣) ﴾ [هود] يحفظني . واعتصم : تمسك بقوة . قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه . واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٣ ، ٢٤] .

(٣) الصِّغَر يكون مادياً في الحجم ، ويكون معنوياً في القدر والمنزلة وهو ضد الكِبَر . وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته ، فمن المادي قوله : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ، ومن المعنوي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/٣٧٧] .

وهنا موقف أسلوبي ؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليُقْرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية[1] ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً[2] أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالطُّورِ[3] (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[4] مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) ﴾ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعتَ أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده في الرسالة التي كتبها ابن زيدون[5] مُسْتعطفاً ابن جهور:

---

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقفو البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة في البيت.

(٢) السجع : الكلام المقفَّى . وسجع يسجع سَجْعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجَّاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها . قال ابن جني : سمي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [لسان العرب ـ مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤) ﴾ [النساء] ، ويُسمَّى أيضاً : ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ .. (٢٠) ﴾ [المؤمنون] و ﴿ وَطُورِ سِينِينَ (٢) ﴾ [التين] . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٤) الرَّق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأُطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، توفي بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) في أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . [الأعلام للزركلي ١/١٥٨]. بتصرف .

« هذا العَتْب محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فابطأ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه فى اغتفاله .

فإنْ يكُن الفعلُ الذى ساء واحداً فأفعالُه اللاتى سَرَرْنَ أُلوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعرى على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهرى : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : اهدنا الصراط المستقيم ، بالصاد ، وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صاده سين قلبت مع الطاء صاداً لقرب مخارجها . قال الجوهرى : الصراط والسراط : الطريق . [لسان العرب - مادة : صرط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذى قاله الله نَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشاز[1] فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتَّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهْك أحد لِمَا فى بعض الآيات من وزن شعرى .

أما كلام البشر ؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلَّف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهُنَّ أنه إنْ لم يُطِعْها فيما

---

(١) نشز الشيء ينشز نشوزاً : ارتفع . وتل ناشز : مرتفع . ونشز فى مجلسه ينشز : ارتفع قليلاً . وأنشز الشيء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب - مادة : نشز] .

تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتي سَمِعْنَها ؛ فقد طمعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أى منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ[1] عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ[3] (٣٣) ﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هى التى قالت :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

---

(١) الصرف : ردُّ الشيء من حال إلى حال . وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوَّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم .. (١٢٧) ﴾ [التوبة] أى : حوَّلها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وافعل ما يغريننى به . وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم ١/ ٣٦٨] .

(٣) الجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . واسم الفاعل « جاهل » ، وصيغة المبالغة « جهول » ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/ ١٣٥] . بتصرف .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحي له بألاّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد - امرأة العزيز - في جمع النسوة اللاتي جمعتهُنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتي طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته[1] ، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دلَّتْ يوسف على المراد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء[2] . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفية بأنه سيُجزل[3] له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشي أن يضيع منه أيُّ شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٥٠٧/٤) ، أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله (تلومه) في حقها ، وتأمره بمساعدتها . فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة فَصِرْنَ جماعة.

(٢) هجاه يهجوه هجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقيعة في الأشعار . [لسان العرب - مادة : هجو] .

(٣) الجزيل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أي أكثرت . وعطاء جزْل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب - مادة : جزل] .

ألا أبلـغْ لديْـك أباَ دلامة فليسَ منَ الـكرامِ ولاَ كرامه
إذَا لَبِسَ العِمَامةَ كان قِرداً وخِنْزِيراً إذا خَلَـع العِمَامـه

وهكذا خرج من قِسم الأمير ؛ وكسب العطايا التي وعـده بها مَنْ حضروا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصـدد خواطرنا عنهـا نجد يوسف عـليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة ؛ فقال :

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣)﴾ [يوسف]

أي : أن السجن أفـضل لديه من أن يوافق امرأة العـزيز على فعل الفـحـشاء ، أو يوافق الـنسوة علـي دعوتهن لـه أن يُحرِّر نفـسـه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لـم يَقُلْ يوسف « يا إلهى » وهو يعلم أن مناط التكليف في الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يـدعو ربه باسم الربوبية اعـترافـاً بفضله سبحانه ؛ لأنه هو جلَّ وعـلا مَنْ ربَّاه وتعهَّده ؛ وهو هنا يدعوه باسـم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعـرف أنه من البشـر ؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كـيـدهُنَّ ؛ لاسـتجـاب لغـوايتـهن ، ولأصبح من الجـاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه ؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُربِّى الأول . لتأتى الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهكذا تفضَّل عليه الله الذى خلقه وتولَّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ ؛ الذى تمثل فى دَعْوتهِنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعتْه إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ[1] إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكْر النسوة ؛ وهو جلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شىء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ[2] لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) الخَطْب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القويم ١٩٨/١] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الأمر ، صَغُر أو عظُم . ومنه قولهم : جَلَّ الخطب أى : عظم الأمر والشأن » .

(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٨/٤) .

وبعد أن ظهرتْ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف فى الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام فى السجن ؛ ليكون فى ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذى ظهر فى بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذى يُكِنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نَفْيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذى يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن - كما نعلم - هو حَبْس المسجون لتقييد حركته فى الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضى أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شَرِّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجترىء على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضى أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَّان ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه فى العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاّ يُكلِّم أحد الثلاثة[(١)] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ[(٢)] قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا[(٣)] وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ[(٤)] (٣٦) ﴾

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٣٥١١) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردي . وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ (٣٠) ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما مأخوذة من خمرْتُ الشيء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها بوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا .. (٣٦) ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ١/٢٠٩] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١٢) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسَّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المحنة التى دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هى محنة ذات ، وقيلَ : إنهما الخبَّاز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بِطَانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هى فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمّ للعزيز[1] .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غَده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يُهمهم :

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما ـ أو كُلٌّ منهما على حدَة ـ يطلبان ـ تأويل الرؤييين المناميتيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأوِيل هذا الأمر الذى رأياه .

---

(١) مما ذُكِر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمَّاه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبى ٤/٣٥١١] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أيِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسَلْباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة : لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحساني ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتي لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختياري للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ[1] قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مَخْفية ، وكأنه يُنمي فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أيّ طعام يُرزَقانه قبل أن يأتي هذا الطعام[2] .

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما ـ السجينان ـ يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسناً الإيمان بالله. ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الملة : الدين ، حقاً كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ، وهي الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف] ، وهي ملة باطلة . [القاموس القويم ٢/٢٢٦] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣٥١٢) : قوله : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف] يعني : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما : ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ.. ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف] لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف ، وبيّن أن الله خصَّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله . يعني : دين الملك » .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذى يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هِبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى فى إنسانٍ ما مَخِيلَة[1] خير فَلْينمى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكى يُطمِع العباد فى تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً فى النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ[2] إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

---

(١) إنه لمخيل للخير أى : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيَّل عليه تخيُّلاً ، كلاهما : اختاره وتفرَّس فيه الخير . وتخولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أى : رأيت مخيلته . وتخيل الشىء له : تشبَّه . وتخيَّل له أنه كذا أى تشبَّهُ وتخايل . يقال : تخيلته فتخيَّل لى ، كما تقول تصورته فتصور . وتبينته فتبين ، وتحققته فتحقق . [لسان العرب ـ مادة : خيل] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذى فى سننه (٢١١٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٣٢ ، ٤١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٣٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ومَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ ولَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

فلو أن هناك آلهةً غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله ـ هكذا أوضح يوسف عليه السلام ـ أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ ولَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

اعلم أن الأمر الذى أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ[1] مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ[2] ﴿٣٩﴾ ﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم[3] ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

---

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رَبُّ الأرباب . ورب كل شيء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمربِّى والصاحب والقيِّم والمنعم . [لسان العرب - مادة : ربب] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه وأذلَّه . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى] ، والقاهر : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ٢/١٣٦] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثُرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . [لسان العرب - مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذى أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض فى مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : فى قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِى ويُضخِّم العمل ، لكن فى الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبى السجن :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩) ﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطة قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليلُ نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[3] وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ونلحظ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤْيَيَيْنِ ، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذهنُ وانتباه كُلٌّ من السجينين إلى قضاء

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع . وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه. [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) السَّلْم والسَّلَم : الأمان وعدم الحرب : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة] في الصلح والمهادنة والاستسلام : ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ .. (٩٠)﴾[النساء] سالموكم وخضعوا لكم واستسلموا لكم ، وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أي : ملكاً خاصاً له لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

(٣) القيِّم: الثابت المستقيم الذي لا عوج فيه . أو المقوِّم المعدِّل للأمور أو المهيمن المشرف عليها . ومن ذلك قوله : ﴿دِيناً قِيَماً.. (١٦١)﴾ [الأنعام] أي : مستقيماً أو مقوِّماً لغيره من الأديان السابقة . [القاموس القويم ٢/ ١٤٣] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذى يدعو إليه هو الأمر الأبْقى ، وهو الأمر العام الذى يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إيثار لا أثرة[1] .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ ما تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمي المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

---

(١) آثره عليه : فضَّله . وآثرت فلاناً على نفسي : من الإيثار . ويقال : قد أخذه بلا أثرة وبلا إثرة وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب - مادة : أثر] .

وإذا أُطلِق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثَل من الريف المصرى ؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد » ؛ فيسمِّى كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لِمُسمَّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمَّى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ لِيُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

وكأن يوسف يتساءل : ءإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مُسمَّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمَّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسمى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزِل معهم المنهج الذى يوجز فى « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى وَصْف تلك الأسماء التى بلا مُسميَّات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : إننى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأنى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ،

ولـكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم فى أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام فى تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ[1] ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بانه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتاكل الطير من راسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سياكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله فى قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهى قدرة على فكّ شفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال :

﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حَسْبَ ما أظهرته الرؤيا التى قالها ، وأما

---

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رأيه فى مسألة فأفتاه ، فأجابه . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] . وقال : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أى : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبى الرؤيين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصبًّا على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[2] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[3] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

---

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] [القاموس القويم ١/٣٢٥]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٣) اكفلنيها : أى اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها مالكاً لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ[1] رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذى وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذى ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق فى الحكم ؛ لأنه ذكر فى حيثية الحكم نعاج الذى أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذى أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذى وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

---

(١) خر راكعاً : أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم ١/ ١٩٠].

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلِّمي إليَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء[1] من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجارى أنه إذا سرق أحدٌ شيئاً وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم - أى عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقي يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرَّواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرِف في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت[2] ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرُّؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

---

(١) هذا الشيء هو منْطقة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٢/٤٨٦] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أى شد النطاق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمت : حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جنْبة : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذيَّة . [لسان العرب - مادة : سمت] .

ولما دخل هذان الفتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحبَّاه حبًّا شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبَّنى إلا دخل علىَّ من محبته ضررٌ ، أحبتنى عمَّتى فدخل الضرر بسببها ، وأحبَّنى أبى فأوذيتُ بسببه ، وأحبَّتنى امرأة العزيز فكذلك .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ[2] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته فى صناعة الخمر لسيده .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره [٤/٣٥١١] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى» .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعى الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/٢٥١] بتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شىء بالبال ؛ وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتَها من قبل ثم تركتَها ، ونسيتَها لفترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالاتٍ للإدراكات ، وهى لا تظل فى بُؤْرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشىء واحد ، فإن جاء شىء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكِّرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُسْتويين : فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أي : اذكر ما وجدته عندى من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث فى السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغى له كرسول أن يُوسِّط الغير فى مسألة ذِكْرِه بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحى ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ..(٣٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذى يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُراداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ[1] وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ[2] أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾

والأرض التي وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هي مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكْتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا

---

(١) عجف: هزل فهو أعجف وهي عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٤٣) ﴾ [يوسف] هي الهَزْلى التي لا لحم عليها ولا شحم ضُرِبت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خِصْب [لسان العرب - مادة : عجف] .

(٢) المقصود بالملا هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه. [راجع : تفسير القرطبي ٤/ ٣٥٢٠] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمُّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعني أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ (٤٣) ﴾ [يوسف]

أي : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة (عجاف) أي : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوى فى الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العِبْرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العِبارة » وهو أن يكون هناك شىء مكتوم فى النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهره بالعبارة .

ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمْعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤيا حين يَعْبُر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول الملك تفسيراً للرُّؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ[1] وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أضغاث أحلام .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة ، كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٤] .

و « الضِّغْث » هو حزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .

وهذا صِدْق من البطانة فى ألاَّ يخبر أحدهم بشىء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمر لسائله - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره . أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَتْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق فى الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى » ؛ لأنه حين يقول « لا أدرى » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ[1] بَعْدَ أُمَّةٍ[2] أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

وكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مرّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

---

(١) ادكر : أصلها اذتكر على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً وأدغمت الدالان : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/ ٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت . وفسّر به قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أمَه » بالهاء . والأمَهُ : النسيان والغفلة أى تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/ ٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُرَاد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤].

يعنى أن التأويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرُّؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ[1] أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

يدل على أنه قد جرَّبه فى مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق فى كل أقواله ؛ وصادق فى كل أفعاله ، وصادق فى كل أحواله ، ولكن معناها يتسع ليدلُّنا على أن الصدق ملازم له دائماً فى القول وفى الفعل .

---

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. (١٩) ﴾[الحديد] ، وهى صدِّيقة : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. (٧٥) ﴾ [المائدة] هى مريم عليها السلام . [القاموس القويم ١/٣٧٢] .

أما فى الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتى فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صدِّيق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان فى الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل : لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول ؛ وإما فعل .

والصِّدِّيق هو الذى يصدُق فى قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق فى فعله بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتاً[1] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

---

(١) المقت : أشد الإبغاض . مقته يمقته : أبغضه . ويقول تعالى: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٠) ﴾ [غافر] قال : يقول : لمقت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب ـ مادة : مقت] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته فى السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيبين :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾[يوسف]

والتجربة الثانية : هى مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيبين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

أى : افـتنا فى رُؤيا سـبع بقـرات سمَان ؛ يأكلهن سـبعُ بقـرات شديدة الهُـزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخر يابسات ، لَعلِّى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

يوضح أنه لا يسـأل عن رؤيا تخـصُّـه ؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط فى قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط فى واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً (٢٤) ﴾ [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن الله يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أيّ فعل ؛ فأيُّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقي :

﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام ؛ ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجَّة[1] فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف ؛ فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنِ الذى كلَّف الساقى بالذهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل ؛ للاحتياط الأدائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[2] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك .

والدَّأَب معناه : المُواظبة ؛ فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل .

---

(١) تحاجّا : تخاصما وتنازعا الحجة ، كل منهما يحاول أن يثبت أنه المحق ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] أى : يتخاصمون . [القاموس القويم ١/١٤٣].

(٢) دأب على الأمر: اعتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١/٢١٩] .

ويتابع : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

أى : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجدٍّ واجتهاد ؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً فى سنابله .

والحفظ فى السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن ، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم فى كل نواحى الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن فى سنابله ؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال فى تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح فى سنابله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح فى سنابله فقط ؛ لأن العيدان هى طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدَّرْس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصِلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التى تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهى نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقى عن « الردة » ،

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التى أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالى من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوى على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف فى مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمُّونه « الدقيق العلامة » ؛ الذى إنْ وضعت ملعقة منه فى فمك ؛ تشعر بالتلبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعى الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك فى قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن]

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة فى طَحْن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقى للغاية ؛ يعانى من ارتباك غذائى يُلجئه إلى تناول خبز مصنوعٍ من قشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السِّن » ؛ ليعوض فى غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الحب ذو العصف : أى ذو التبن أو ذو الورق الذى يغلفه . والعَصْف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/ ٢٧١) : «معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ﴾ [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تاويل رُؤْيا الملك ؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا مِلْء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ﴾ [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحلْم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ[1] ٤٨ ﴾

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب همّة لا تفتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ ٤٨ ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس ؛ فإنْ لم تكُنْ هناك

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٢٦) : « أى : مما تحبسون لتزرعوا ، لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات. قال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : تحصنون : تدّخرون ، والمعنى واحد » .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم فى السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْرى على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغى سَدَّ غائلة[1] الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا[2] مَّرِيئًا[3] ④ ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضرك ، ودون أن يُلجئك هذا الطعام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه :﴿هَنِيئًا.. ④ ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مَّرِيئًا ④ ﴾ [النساء]

(١) الغوائل : المهالك . والغَوْل : المشقة . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) هَنُؤَ يَهْنُؤ هناءة : تيسر بلا مشقة ، وسَهُل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنىء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ④ ﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً لا حرمة فيه ولا حرج عليكم فى أكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] .

(٣) مَرُؤَ الطعام : سَهُلَ فى الحلق وحُمِدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

فهو الطعام الذى يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تأكل ؛ بل البشر الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ولمكان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثل على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ[1] الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ[2] .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

---

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف ـ دلائل الإعجاز للجرجانى .

(٢) العير : القافلة . والعير : القوم معهم دوابُّهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون . [القاموس القويم ٢/ ٤٤] .

وقوله تعالى :

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا فى داخل الحصن » أى : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : المُمْتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الأنبياء]

أى : التى أحكمتْ صيانة عِفّتها ، وهى السيدة مريم البتول[1] عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[2] (٤٩) ﴾

---

(١) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الأزواج . ويُقال : هي المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهْن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمراً ، والسمسم دُهناً ، والزيتون زيتاً . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدلّ ذلك على كثرة النبات . [تفسير القرطبى ٤/٣٥٢٧] .

ونلحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا ؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف[1] يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ ؛ وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخِصْب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْث » ؛ لأننا نقول « أغثْ فلاناً » أى : أعِنْ فلاناً ؛ لأنه فى حاجة للعون ، والغيث[2] ينزل من السماء ليُنهى الجَدْب .

وقوله : ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

---

(١) عجف : هزل فهو أعجف ، وهى عجفاء ، أى : هزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هى : الهَزْلَى التى لا لحم عليها ولا شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطْر فيها ولا خِصْب . [لسان العرب - مادة : عجف].

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلأ ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمِّى ما ينبت به غيثاً . [لسان العرب - مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق فى آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق - عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء فى أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأنْ يرسلوه كى يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علِم الملك بتأويل الرُّؤيا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تأويل الرُّؤيا ، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرِج يوسف من السجن الذى هو فيه .

لكنه فُوجِيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذى هو فيه ؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول فى طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآنى وهو يعطينا العِبْرة التى تخدمنا فى واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هى للعبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أى إنسان هو أمر مُهِمٌّ ؛ كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أى عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنْ قائل فى وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »[1] : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه ـ والله يغفر له ـ حيث أُرْسِل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

---

(١) اللمز : العيب فى الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفى . والهمز : الغيبة والوقيعة فى الناس وذكر عيوبهم . [لسان العرب ـ مادتى : لمز ، همز] .

صبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر»[1] .

وشاء نبينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريمَ ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال ـ لو لبثتُ في السجن ما لبثَ ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ ﷺ ـ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . (٥٠) ﴾ »[2] [يوسف]

وهكذا بيَّنَ لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفي قول الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كَشْف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذ كل موقف بقدْره ويُرتِّب له ؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٠) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): «فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك» ، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢) ، والترمذي في سننه (٣١١٦) وقال : « حديث حسن» ، وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبي هريرة . قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة » وسكت عنه الذهبي .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة »[١] .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضي ألاَّ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَابِهاً ، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ ؛ فيتقوَّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بألاَّ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذى تأتيك منه الرِّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنا في رسول الله ﷺ أسْوة حسنة ، فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب - أى : تعود إلى حجرتها - فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرَّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا[٢] ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسْلكما ، إنما هى صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما »[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٠٠)، والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) النفاذ : الجواز . وفى المحكم : جواز الشىء والخلوص منه . تقول : نفذت أى جُزْت . [لسان العرب - مادة : نفذ] . أى : مرَّا وجاوزاهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيي .

وهنا فى الموقف الذى نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتى قطَّعن أيديهن ، وراودْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ[1] ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ﴾

ونعلم أن المُراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هى النسوة إلى مجلسها ؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجِئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. (٥١) ﴾ [يوسف]

والخَطْب : هو الحَدَثُ الجلَل ، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

---

(١) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه . والحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه أى : ظهر وبرز . [لسان العرب - مادة : حصص] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحبَّ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أمِلْ إليهن وأفعل ما يغريننى به . وصبا إلى اللهو : حنَّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢)﴾ [الذاريات]

أى : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام ؛ فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامرى قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامرى :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥)﴾ [طه]

وقولُ الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها ؛ واعتبرها خَطْباً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. (٥١)﴾ [يوسف]

ولم يذكُرْنَ مسألة مُراودتهنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿حَاشَ لِلَّهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

أى : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنا ليوسف أمرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١)﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حصةُ الحق من حصةُ الباطل ، ولا بُدَّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾

قالت ذلك حتى تُعلنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلُّنا على أن شرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسيء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تُذهِب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذي يُلهِبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

أي : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرىء نفسها :

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكَّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء[1] : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرَّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفي هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس ؛ فهي ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ،

---

(١) قاله ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم . والقول الأشهر والأليق بسياق القصة ومعاني الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهى تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها فى ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[1] .

أى : أن المعاصى قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التى تُوصِّله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[2] .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطىء الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذى يفصل بينه وبين حساب المولَى - عَزَّ وجَلَّ - له على المعاصى .

وكل منَّا مُطَالب بأن يضع فى حُسْبانه حديث الرسول ﷺ :

« الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذى كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد »[2] .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف]

وتعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع فى زلة أخرى .

---

(١) ذكره العجلونى في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٣/١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٧) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢) ﴾ [الإسراء]

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك.

وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً ، وتُطبِّقه فى حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌ علاجىٌ وطبٌ وقائىٌ فى آنٍ واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[1] أَمِينٌ (٥٤) ﴾

ونلحظ أن الملك قد قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ (٥٤) ﴾ [يوسف]

مرتين[2] ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك فى يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسعةَ علْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر فى صفات هذا الرجل ؛

---

(١) مكُنَ مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف] أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .

(٢) المرة الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف] والمرة الثانية فى قوله تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف].

والراحة النفسية التى ملأتْ نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله :

﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفَّ خفَّة يوسف على نفسه ؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبَّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ ؛ وهو صاحب علْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو سجين، ولَم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلِّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذى أعلن الأمر بقوله :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وذلك ليسدَّ باب الوشاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين » هى المكانة التى لا ينالَ منها أىُّ أحد .

ولذلك نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلَّم عن الوحى من جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهْلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو الذى سينُفذ الأمور ، وله صلة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمكَّن من عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة فى مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجّح الحاكمُ مَنْ يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكيّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف، عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التى سبق أن أوَّلها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[1] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعلْم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتى وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ[2] الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

---

(١) دأب فى عمله دأبا ودأبا : جدّ فيه ولازمه من غير فتور . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب. [القاموس القويم ١/٢١٩] بتصرف .

(٢) الخزائن : جمع خزانة ، وهى المكان الذى تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨٢) : « هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام.

وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟ والقاعدة[1] تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تأتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمَنْ يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة ؛ وتعقَّدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهي الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

---

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ، ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :

الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكِّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحِفْظاً وعِلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المِيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى : يقول رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب ليشُدَّ كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء بل يأكل فى معىً واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف : « المؤمن يأكل فى معىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما .

وكان التموين في سنوات الجَدْب يقتضي دِقّة التخطيط ، ولا يحتمل أيَّ إسراف .

وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء ؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته ؟

أجاب : كي يأخذ كل إنسان في أقلِّ الحدود التي تكفيه في سنوات الجدب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشترى الخبز المُدعَّم ليُطعم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشتري في حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألاَّ يُلقِى مما اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة ؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر في حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن في كبرياء : « إن معدتي لم تَعُدْ تتحمل اللحم ».

وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير ؛ لأن لحمه طيِّب ، عكس السمك الكبير الذي يكون لحمه « متفِّلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً في بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل في سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفي آخر لقمة في الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا[1] حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجدب : لم يأتِها وحدها ؛ بل عَمَّ البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أناساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾

[يوسف]

---

(١) يتبوأ منها حيث يشاء : أي ينزل في أي مكان يريده من أرض مصر ، وهذا كناية عن اتساع جاهه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ ولا يَظُنَّنَّ ظَانٌ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة فى بعض البلاد ؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم فى منطقة ما ؛ وقد يزوره ؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التى يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه فى حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ؛ وقد يُحضِرون أصَص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ علموا بوجود بيت للحاكم فى مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم سيُوالون العناية بكلِّ التفاصيل المتعلقة بالمرافق فى هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

يعنى : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون فى هذا البلد ؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبُّوء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط ؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش فى مكان مُريح ستتحول المنطقة التى

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن فى الأرض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية من قبَل الجهاز الإدارى حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ ولا نُضيعُ أجْرَ الْمُحْسِنين (٥٦) ﴾ [يوسف]

والمُحْسِن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التى له فيها بيوت ؛ بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ويوضح ـ هنا ـ سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛ ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شىء آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعنْ بالله ولا تعجز ، وإنْ أصابك شىء فلا تَقُلْ : لو أنِّى فعلتُ كذا وكذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] .

والاستعمال الثانى لكلمة « خير » : هو خير مقابله شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ[2] ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب فى الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذى سيصدق ذلك .

أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشرى الفساد فى الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاءَ نوعين : جزاء فى الدنيا لمَنْ يُحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاءً فى الآخرة يختصُّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) المثقال : وزن معلوم قَدْره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٤٠) ﴾ [النساء] . أى : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغر أو كبر . [القاموس القويم ١/١٠٩] .

على عكس خير الدنيا الذى قد تفوتُه أو يفوتُك ، بحُكْم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرك فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدَّيْمومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد ألقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً؛ ومرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثر عليه بعض السَّيارة ؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتمر به الأحداث المتتابعة بما فيها من نُضْج جسدى وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بما يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عقْد من الزمان ؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كانَ كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج .

والذى دفعهم إلى المجىء هو القحط الذى لم يُؤثِّر على مصر وحدها ؛ بل أثَّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذى اختزن الأقوات تحسُّباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة[1] والطعام ، ولم يتخيَّلوا

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان أى يجلبه . مار أهله : جلب إليهم الطعام . قال تعالى : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا.. (٦٥)﴾ [يوسف] . [القاموس القويم : ٢/٢٤٦] .

بأيِّ حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذى ألقوْه فى الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المِيْرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم[2] .

وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب فى انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم - من بعد ذلك - أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ، وقال لهم :

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ[3] ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم فى قصدهم. والمعنى هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذى جاءوا من أجله . [راجع تفسير ابن كثير ٢//٤٨٣ ، والقاموس القويم ١/١٣٤] .

(٢) «ذكر السدى وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنَّا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله. قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » [تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان. والنُّزُل والنُّزْل : ما هُيئ للضيف إذا نزل عليه . [لسان العرب - مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بانه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المَيْرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كى يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذى نزلوا فيه ، بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلى ، وحقيقة المعنى هو : مُنْزِل مِنَ الذى ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ نُزُلاً[1] مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) النزل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ .. (١٩٨) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم ٢ / ٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذى يعدّ ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بُهِروا بفندق رَاق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقِياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين ؛ تظهر نفسه فيه ؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشْقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صُنْع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حقْد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صَبابة[1] النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صَبابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان ؛ فثقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهتْ النعمة أن تأتى إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الصبابة : الشوق . صببتُ إلى الشىء صبابة ، فأنا صَبٌّ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم ؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي .. (٦٠) ﴾ [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادُ[1] قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

﴿ وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ [يوسف]

أى : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذى أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) ﴾ [يوسف]

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

---

(١) المعاد : المرجع والمصير. أى : أن مرجعهم إلى بلاد ذات جدب وقحط وهى الموطن الذى جاءوا منه . والمعاد والمعادة : المأتم يُعاد إليه . [لسان العرب ـ مادة : عود] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

وقولهم : ﴿ سَنُرَاوِدُ[1] عَنْهُ أَبَاهُ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الامر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُرَاودة تعنى أخْذ وردّ ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف]

وأكّدوا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : انهم سيبذلون كُلَّ جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسالَ أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْب المنَال ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ[2] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا[3] إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) أى : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلنا . [ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/٤٨٣] .

(٢) الرحال : جمع رَحْل . وهو ما يُوضع على البعير للركوب عليه . ويطلق على ما يحمله المسافر من أمتعة . [القاموس القويم ١/٢٥٩] .

(٣) انقلب : رجع وتحوّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . قال تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . بتصرف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا[1] بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُستتر فى الرِّحال التى أتَوْا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كى يعودوا مرة أخرى[2] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المِيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم « بنيامين » معهم ؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .

---

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة . والقَيْض : العوَض . [لسان العرب - مادة : قيض] .

(٢) ذكر ابن كثير فى هذا أقوالاً منها : أن يوسف خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل : تذمَّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. [راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

وهم فى قولهم هذا يحاولون أن يُبعِدوا رِيبة الأب عمَّا حدث ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقدِّموا من قبل ما يُطمئِنه على ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي[1] هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

---

(١) بغى : كذب وظلم . وبغى الشىء : طلبه . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٢٥٥٩) : «المعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وُفِّى لنا الكيل ، ورُدّ علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم» .

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معهم في رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومِيْرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على المِيْرة التي يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا[1] مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ[2] بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التي بَدَتْ من قبل في قوله :

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

---

(١) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة] . أي : عهده الذي عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٢) الإحاطة بالشيء : الإحداق به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف] . أي : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١/١٧٨] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحطْ بهم أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصرهم أعداء يُضيِّعونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أي : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم .

ويُوصِي يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام في المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن علم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعةَ ترى إنساناً له شـان ؛ فترقب أن يُعـادى ، لذلك توجّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب ؛ تُفتح وتقفل في مواعـيد محـددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقـد خـاف يعقـوب على أبنائه مـن الحسـد ، ونعلم أن الحسـد موجود .

وقد علّمنا سبحـانه أن نستـعيـذ به سبـحانه من الحسد ؛ لأنه سبـحانه قد علِم أزلاً أن الحسد أمر فوق طاقة دَفْع البـشر له ، وهو القائل :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق]

وفي أمر الحـسد أنت لا تستطيع أن تستـعيذ بواحد مُـسَاوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتي من مجـهول غير مُدْرَك ، فالشـعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحـقد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصـرنا ، وهو عصر الارتقـاءات العـادية قـد توصَّل إلى اسـتـخدام الإشـعـاع في تفـتـيت الأشياء .

إذن : فمن الممكـن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشـعاعات ؛ والتي

قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ..(٣١) ﴾ [المدثر]

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطي من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها في غير موضعها ، وكلُّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذي يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلْتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك[1] .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وأن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

« أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة[1] ، ومن كل عين لامّة[2] »[3] .

وقال ﷺ : « كان أبوكما ـ إبراهيم ـ يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كما أنه ﷺ : « كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى »[4] ، لأن معنى حَزْب أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يأوى إلى المُسبِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذتَ أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضطر ؛ لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ ربه إلا بعد أن

---

(١) الهامّة : مفرد هوام . وهي الحيات والعقارب ، وكل ذى سم يقتل سمُّه ، وأمّا ما لا يقتل ويسمُّ فهو السَّوام . [لسان العرب ـ مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من مسٍّ أو فزع . واللامة : العين التى تصيب الإنسان . [لسان العرب ـ مادة لمم] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٠)، والترمذى فى سننه (٢٠٦٠)، وأبو داود فى سننه (٤٧٣٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد ؛ بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٦٧) ﴾ [يوسف]

أي : لست أُغْنِي عنكم بحذري هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فكل الخَلْق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذَ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

أي : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شيء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أي شيء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا[1] .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب يعلم أن أيَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

أي : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يوسف]

أي : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قضى حاجته : أدركها ونالها . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .. (٦٨) ﴾ [يوسف] . أي : أدركها وحصّلها . [القاموس القويم : ٢/١٢٢] .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ[1] إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم وفادتهم[3] ؛ بعد أن وَفَوْا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا[4] لفترة ببنيامين ، ولم

---

(١) آواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . والمأوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات] . هى : المنزل والملجأ . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . [القاموس القويم ١/٥٣] .

(٣) الوفد : الرُّكبان المكرَّمون . قال الأصمعي : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير . [لسان العرب ـ مادة وفد] .

(٤) استفرد فلاناً : انفرد به . واستفرد الشيء : أخرجه من بين أصحابه . وأفرده : جعله فرداً . [لسان العرب ـ مادة : فرد] .

يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّى عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ [1] فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جَهَّزهم فى المرَّة السابقة ؛ وأراد أن يُبقِى أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته ليُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألا يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد جنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التى يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْل أخيه .

---

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُستقى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به الطعام. [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقات متعددة من مادة « سقى » أى : « السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٩) ﴾ [التوبة]

فكأن معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نَفَاسة المكيل .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَم الشارب ؛ وأيضاً يُكَال بها ؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ .. (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا « السقاية » فى رَحْل

أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جمالهم استعداداً للعودة إلى الشام ؛ وقعت المفاجأة لهم ؛ والتى يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شىء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من « بنيامين » ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه[2] إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِى بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزيد من حُزْن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقَّة القرآن ، ولنُحْسِنَ الفهم عنه ؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه ؛ فلن يُؤثّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

---

(١) أذن تأذيناً وأذاناً : أعلم بالشىء . والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون (٧٠) ﴾ [يوسف] . أى : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) المقصود بأبويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت فى نفاس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبى ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة ؛ واستبقاء بنيامين فى مصر قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم فى نظر يوسف قد سَرَقوه من أبيه ، وألقوْه فى الجُبِّ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم :

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (١) (٧٢) ﴾

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

---

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كفيل . [القاموس القويم ١/٢٨٦] .

الملك ؛ ويُقال لها « صواع » ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حِمْل بعير ؛ فلعل صُواع الملك قد خُبئت فى حِمْل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهى حِمْل بعير من المِيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وقولهم ﴿ تالله ﴾ هو قَسَم ، وعادةً تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أى : أن إخوة يوسف اقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا ؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما جاء على السنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُوَاع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على السنتهم :

﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا سؤال من مُساعدى يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة فى شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد فى رَحْله صُواع الملك ؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة فى شريعة آل يعقوب أن يُسترقَّ أو يظل فى خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التى أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ فى ثياب يوسف شيئاً[1] عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمتُه .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذى يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورد الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكَّدُوه بقولهم :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالمين ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) هو منْطقة إسحاق كان ينتطق بها ، أى : يشدها على وسطه . وكانت عمته هى أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقيه عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب . وقد كان هذا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنِّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبَّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٧٦) ﴾

[يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسببِ أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما فى المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أىَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْفصل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن العلم ذاتىّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وُجدت السقاية فى رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف فى قولهم :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] .. ⑧ ﴾ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لتلطفوا به[2] . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة في رِحَالى هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحالكم .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورِد الحق سبحانه هنا قولهم :

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٢٥٦٩/٥) أن إخوته ، لما رأوا تلك نكسوا رءوسهم، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كاليوم قط . ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه في متاعى » .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك فى مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

يُسمَّى فى اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية : أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثانى ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ .. (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فكأن الله يوضح للرسول ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيزَ مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك الملَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٢) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، ولِيُسرِّب جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكنه قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا مؤانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحى من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصِف » وكلمة « تصفون » غلب فى استعمالهما للكلام الذى يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر فى السنّ تكون من «كَبِرَ يَكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَر فى المقام تقول : « كَبُرَ يكبُر ».

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

والكِبَر واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أبا شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتمَّ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المِيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنبٍ ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذاً » مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أي : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة[1] أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا[2] مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا[3] مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ[4] حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

ويقال : « يئس » أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقّقون كل ألوان المُرقّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلِحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ

---

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب - مادة : جرر] .

(٢) استيأس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/٣٦٦] .

(٣) الميثاق والموثق : العهد المؤكّد . قال تعالى : ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾﴾ [المائدة]. أي : عهده الذي عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أي : لن أفارق أرض مصر . [القاموس القويم ١/٦١] بتصرف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم فى رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا[1] ..﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاونين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا فى أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن ﴿ خَلَصُوا ..﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف] هى جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ..﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التى يتساءل فيها مَنْ لا يملكون مَلَكةً عربية : كيف يأتى القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملكة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[2] ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

---

(١) نجاه ينجوه نَجْواً : كلَّمه سراً وخصَّه بالحديث. فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سراً . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] بتصرف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] بتصرف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

اى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا ..(٨٠)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذى احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذى حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاَّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا فى نفس البلد .

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد فى الرحلة الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذى يرأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاولة بين الإخوة فى تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية التالية :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُوَاع الملك في رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هي حِيلة[1] ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُوَاع الملك في رَحْلِه هو السبب في كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم - إنْ كذَّبهم - ما جاء به الحق على ألسنتهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[2] الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الحيلة : الحذق في تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود وأصلها الواو واحتال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٥٨٠) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها »، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أي : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك في أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذي كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة ، وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التي كانت معنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتمَّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العير التي كانت تسير معنا في الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التي جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا (٨٢) ﴾ [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَدَثٍ من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

وفي بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى في الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبيٌّ ويوحي لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ونعلم أن العِيـر هى المَطايا ؛ سـواء أكانت نِياقـاً أو كـانت من الجمال أو الحمير أو البِغال التى تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المُلابسات كلها .

ومثـال هذا ما كـان فى موقـعة بدر ؛ فـقد خـرج رسـول الله ﷺ ليلقى العير القادمة من الشام وهى مُـحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أمـوال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العِير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حـين تكلم عن المـقاتلين الذين قَـدِموا من مكة ؛ وصـفـهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبـحانه ما جاء على ألسنة إخوة يـوسف حينما عادوا لِيلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخلُّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفـتيـشهم قـد تَمَّ فى مكان بعيـد قليلاً عن العُـمْران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التى عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمي المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرروا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبِتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتي الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

الأمور التي تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغبَّتها[2] ؛ هي أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسِّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

أي : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الجمال : البهاء والحُسْن يوصف به الحسيّ والمعنوي . قال تعالي : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] . وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١/١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذي يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الامر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب ـ مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحَدِّ ، بل ستأتى من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر فى النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

فى هذه الآية طلب الأمل الذى يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الإخوة الذى رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : يأتينى بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ [يوسف]

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(١) (٨٤) ﴾

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْنَاه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصِيبتاه » ؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف

---

(١) كظيم : أى سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى : كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

طاقة من الهَمّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، هى افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف[1] عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - : أتبكى ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقيْن فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش[2] وجوه ، وشق جيوب[3] ، ورنة[4] شيطان»[5] .

وقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الذرف : صَبُّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب - مادة : ذرف] .
(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح].
(٣) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون في الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبي ٦/٤٧٦٧] .
(٤) الرنة : الصيحة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب - مادة : رنن] بتصرف .
(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله . قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث في الترمذى . ولكن فى فتح البارى (١٠/١٧٤) زيادة : « صوت عند نغمة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلموداً[٢] أو يكون صخراً لا ينفعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها .

فسبحانه هو الذي خلق العاطفة ، والغريزة في الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفَعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة في الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثل الذي أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً[٣] .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة في التجسُّس على الناس .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٠٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصخر ، وهي الصخرة التي تكون في الماء القليل . [لسان العرب - مادة : جلمد] .

(٣) الشَّره : أسوأ الحرص ، وهو غلبة الحرص . والشَّرِه : السريع الطعام الشديد الحرص عليه . [لسان العرب - مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا [١] تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا [٢] أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتأ وفتِيء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك. [تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب - مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَمنى يوسف . فعتب عليه الله في هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤ /٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامي وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من همِّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سُئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي(١) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هي المصيبة التى لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوعٍ يتودد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتلَى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد ».

والحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فساعةَ يأتى البأسُ ونتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمَنْ يدعوه.

وتساءل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ:

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها. قال الحسن : بثى : حاجتى . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبى ٣٥٨٦/٥] .

ونقول : إن هذا من النعم التى اختصَّ بها الحق سبحانه أمةَ محمد ﷺ ؛ وحين دخل بعضهم على عليّ بن أبى طالب ـ كَرَّم الله وجهه وأرضاه ـ وكان يعانى من وَعْكة ، وكان يتأوَّه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حُزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حَياً ، وأن الرُّؤيا التى حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ونلحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والأخ

---

(١) تحسس الشىء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧)﴾ [يوسف] . أى : تتبعوا أخبارهما وابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكْر يوسف وأخيه ، ولم يأتِ ذكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنواتُ المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرَّاتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كى تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلاني » .

وتابع يعقوب القول :

﴿لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ[1] اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ » .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى »[2] .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك فى أىِّ أمر يُعضلكم ، ولن ينتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاً لمَا أعضَله .

---

(١) الرَّوْح : الرحمة، سماها روحاً لأن الرَّوح والراحة بها. وقوله : ﴿ لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ... (٨٧) ﴾ [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبى فى تفسيره ٥/٣٥٨٧] و [لسان العرب - مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح »، و « الرَّوْح » هى الرائحة التى تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان فى يوم قَيْظ[1] ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾ [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس فى بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما فى البستان من زهور .

والرُّوح[2] هى التى ينفخها الحقُّ سبحانه فى الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذى يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

لأن الذى ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

---

(١) القيظ : صميم الصيف . واليوم القائظ : شديد الحر . [لسان العرب ـ مادة : قيظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ (٩) ﴾ [السجدة] . أى : من سر الحياة التى لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ، بروح لا يملك نفخها فى الإنسان إلا الله . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقي الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقي الله ، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر في الطريق ، وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان في بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .

ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أيِّ كرب ممَّا هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المُلحد هو الذي ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده : إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤْمَن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى ؛ وهى لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام فى مقرِّه بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ[1] فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير فى « عليه » لا بُدَّ أنْ يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

---

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد . [ابن كثير ٢/٤٨٨] . وقال القرطبى (٥/٣٥٨٨) : « الإزجاء : السَّوْق بدفع والمعنى : أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كلَوْن من المكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أي : المالك المُتمكِّن ؛ ويعني هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر في متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُزجاة ، أي : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

أي : مدفوعة من الذي يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[1] .. (٤٣) ﴾ [النور]

وكلمة « يزجي » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

---

(١) الرُّكْم : جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشيء المرتكم على بعضه . وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - مادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر فى نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أىِّ شىء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشترى منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التى تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ ببِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

على أنها بضاعة رديئة .

فكأن الضُّرُّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التى سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التى تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفِّى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفية فى الكَيْل صدقة .

وبذلك ردُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى.

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »[1] .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التي قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه[2] ، وهي ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رآوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ومجيء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدِّث .

ثم يأتي التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف]

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٦٦) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « ألا إن الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي : الأسنان الأربع التي في مُقدَّم فمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . [لسان العرب - مادة : ثني] .

إليهم بعزة الكبرياء ، وغرور المكانة التى وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم.

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ فى حقِّك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلتَ إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكُّره[1] ، ودار بينهم وبينه الحوار الذى جاء فى الآية التالية :

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ[2] ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أئنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسَّم كان ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تبسَّم يوسف ، فشبَّهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام : ﴿ أئنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف] . وفى هذا روايات أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩٦) .

(٢) منَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩٩) : « أى : قد منَّ الله علينا بالنجاة والملك » بتصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرىّ الذى أكّدوه بـ « إنْ » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم فى التحسُّس الذى أوصاهم به أبوهم .

فَردَّ عليهم :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذِكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شُكْر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أىَّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرَّتْ به بَدْءً من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُليا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر همَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصى مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه فى الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾

و « تالله » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : خصَّك بشىء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعزيز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هى : «الخاء» و « الطاء » و «الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطِئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى ثَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أمةُ أحدكم فتبيَّن[1] زِناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيَّن زِناها فليبِعْها ، ولو بحبل من شعر »[2] .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلتِ كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فلْيبِعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت في حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أىَّ رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدّة من رحمته سبحانه .

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (١١/٢٢٣) : « معنى تبيَّن زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوِّز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذى علِم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد علِم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذى رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

قد قال ليوسف :

« يا أيها العزيز إننى أنا الذى حملتُ القميص بدم كذب إلى أبى ، فدعْنى أحمل هذا القميص لأبى ، كى تمحو هذه تلك »[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٩٣) : « حكى السدى أن الذى حمل قميصه يهوذا . قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

و نلحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفي قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و :

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قُرآنى دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم [1] ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يمُتُّ لهم بصلة قُربى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للأب على المجيء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

---

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبى فى تفسيره (٣٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ(١) لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ(٢) ﴿٩٤﴾ ﴾

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصلت العيرُ . أي : خرجتْ من المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير في رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخَرف ، لأن التفنيد هو الخرف[٣] .

---

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

(٢) فند : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، وأتى بالباطل . وفنّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بيّن ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَر . [لسان العرب - مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أيّ جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيءَ يضيع في الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أيَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجتْ من أسوار المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العيرَ لحظة تواجدها فى المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أى مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر فى الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشى هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شىء .

وبذلك نؤمن أن كل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقى من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد رِيحَ يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

وكأنهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال[1] بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التى لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظنُّوا أن يوسف قد مات .

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

وحين حضر البشير[1] ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتى حَلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقي شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

---

(١) البشير : الذي يُبشِّر القوم بالخبر السارّ . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلطَّخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التُّرْحة (الحزن) فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة . [تفسير القرطبى ٣٥٩٦/٥] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقِّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبى ، وأن الواقع قد أيَّد الكلام الذى قاله لهم :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عَمَّا فوق مُدْركات العقول .

---

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

راجعه على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ عادل أبو المعاطى .